# حقيقة الموت

د.ليلى كمدان

بسم الله الرحمن الرحيم

# حقيقة الموت

د. ليلى حمدان

إصدارات يقظة

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾

[النساء: 78]

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾

[ق: 19]

# وَإِنَّا سَوْفَ تُدْرِكُنَا المَنَايَا؛ مُقَدَّرَةً لَنَا وَمُقَدِّرِيْنَا [1]

**أهم موعد –على الإطلاق– يجب أن يشغل تفكيرك وحياتك عملاً وإعداداً له، هو موعد الموت.**

([1]) (لعمرو بن كلثوم)

# كلمة شكر

لكل من ساندني لمواصلة العمل والتأليف وأعانني بدعاء وكلمة تشد الأزر

ولـــو أنـــني أوتيـــت كـــل بلاغـــة وأفنيـت بحـر النطـق في الـنظم والنثـر
لمـا كنـت بعـد القـول إلا مقصـراً ومعترفاً بالعجز عن واجب الشكر[1]

وشكر خاص للأستاذ الفاضل جمال إسماعيل، لتدقيقه الكتاب وتشجيعه ودعمه المستمر

ولا أجد مثل أبيات المتنبي للتعبير عن تقديري لجهده وحسن خلقه:

وقـــد حملتـــني شـــكراً طـــويلاً ثقـــيلاً لا أطيـــق بـــه حراكـــا

ممتنة جداً لكل بعيد قريب ممن جعلني أردد دائماً

لست وحدك حين تكون مؤمناً

لست وحدك حين تنشد الحق.

[1] لقائلها.

# الفهرس

المقدمة ..... 8
حقيقة الموت: لماذا نذكر الموت؟ ..... 10
"الموت" في القرآن الكريم ..... 17
"الموت" في السنة النبوية ..... 33
الموت عند السلف ..... 41
الاحتضار وسكرات الموت ..... 59
ما يُسنّ عند الاحتضار والموت ..... 70
القبر أول منازل الآخرة وبداية حياة البرزخ ..... 76
أمنية رسول الله ﷺ ..... 88
حسن الخاتمة وسوء الخاتمة ..... 99
نماذج لحسن وسوء الخاتمة ..... 105
من حديث الموت ..... 121
وقفة مع الرثاء ..... 149
تغريدات عن الموت ..... 152
وصايا للحيّ ..... 160
حديث الموت ..... 190

## المقدمة

الكتابة عن الموت ثقيلةٌ مؤلمة.. يعيشها الكاتب بكل تفاصيلها ودقائقها وهو يحدث نفسه لا يرى غيرها. إنها كتابة ليست كأي كتابة، فالتفكير في الموت يرافق الكاتب في كل حرف يخطّه وكل معنى ينقشه.. هي كتابة يحدوها الألم وخوف التقصير.. كتابة يخشى كاتبها أن تكون آخر ما يكتب.. فيعتصر القلب وينهمر الشجن وتصغر في عينيه الدنيا كأنها لم تكن.

إنها كتابة الإنسان عن آخر فصل من فصول حياته، عن خاتمة مسرح استمر بعدد سنين عمره ليسدل عليه الستار وتبدأ المحاسبة! أحسن فيه أم أساء يبقى الجزاء من جنس العمل والأعمال الصالحة الذخيرة والمنجى.

يكتب الكثيرون عن الموت، ولابد أن نستمر في الكتابة عنه، فهو كالترياق الذي لا تصحو الضمائر وتشرق الأنفس إقبالاً بدونه، ولا تُرد الحقوق ويُقام العدل بغير ذكره، ولا تُشحذ الهمم وترتقي الأماني بلا تفكر فيه، ولا ترجع الأنفس عن غيّها إلا باستذكاره والتدبر فيه. كان ولا يزال الموت أكثر ما يخشاه البشر، وأكثر ما يحبه الصالحون، حين يكون في سبيل الله وفي مرضاة الله سبحانه.

نكتب جميعاً فصلنا الأخير في الحياة بأعمالنا، بكلماتنا، بأخلاقنا وسلوكاتنا، بترجمة عملية لما نحمله من عقيدة أو هوى، من قيم أو وهم، من حق أو باطل، من صدق أو كذب، فلا ينجو إلا من استقام على سبيل المؤمنين، كما أمر الله ورسوله ﷺ.

نرحل من الدنيا ولا يبقى بعدها غير الأثر، وهذا الأثر الذي يجب أن نوليه كل اهتماماتنا وأولوياتنا، ولا يكون ذلك إلا بحب خالص لله ﷻ نعتني به أشد ما يكون الاعتناء، يرافقه تصديق بالعمل والمسابقة في ميادين البذل. كلما كلّت النفس، طُرق جرس إنذار التذكرة بالموت فيفزع القلب ويرجع للعطاء من جديد مهيباً، ولا يعني ذلك خلو المسيرة من استراحة محارب ولكن استراحات المؤمنين وصالٌ دائمٌ لا ينفك مع رب العالمين! هكذا هي حياة المؤمن، مجاهدة وصبر واستعانة وحسن توكل ورغبة فيما عند الله، إلى أن تحلّ لحظة

**حقيقة الموت ..**

الحقيقة، فتتلاشى كل الشهادات والألقاب والتزكيات ومقاييس الدنيا الفانية، ولا يبقى إلا فضل الله على عبده!

تتباين الخواتيم بحسب تباين سجلات العاملين، ولم أر أجلّ خاتمة من خاتمة الشهادة في سبيل الله، فإن قيل ما الشهادة؟ قلت: أن يُسدل الستار على فصل من أمجد فصول العبد وتُطوى صفحة من سجله العظيم... سجل الخالدين!

فطوبى لأصحاب السجل العظيم!

ليلى حمدان

# حقيقة الموت: لماذا نذكر الموت؟

الحمد لله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، الحمد لله الذي حكم بالموت على كل ذي روح من مخلوقاته، فلم يُفرّق بين الملك والمملوك، ولا بين الغنيّ والفقير، ولا بين الشريف والوضيع، ولا بين القويّ والضعيف ولا بين العاصي والمطيع، ولا بين الكبير والصغير، ولا بين المرأة والرجل، ولا بين الشيخ والطفل، ولا بين صنف وآخر من مخلوقاته، والصلاة والسلام على أفضل البشر، نبيّنا وإمامنا فدته أرواحنا، مُحَمَّد، وعلى آله وصحبه ومن استنّ بسنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد:

قال الله سبحانه وتعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2)﴾ [الملك: 2]. قال السدي في تفسير الطبري: "أي أكثركم للموت ذكراً واستعداداً وخوفاً وحذراً".

فسبحان الله العزيز الحكيم الذي جعل الموت الحقيقة التي تنهزم أمامها كل الدعوات وتنتهي لها كل المساعي والخطوات، قال جلّ في علاه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185)﴾ [آل عمران: 185].

إننا نشاهده في كل يوم وفي كل لحظة في حياتنا اليومية وعلى مواقع التواصل الاجتماعية، لا ينفك ذكر الموت يهدد أماننا ويهزّ ركوننا ويوقظ الحسّ فينا. لنجتمع جميعاً بخشوع وانكسار للواحد القهار، عند الحقيقة الأزلية: أن هذه الدنيا فانية حقيرة، وأن الموت نهايتها الحتمية.

قال تعالى يخاطب نبيّه المصطفى ﷺ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30)﴾ [الزمر: 30].

قال كعب بن زهير:

كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلامَتُه  يَوْماً عَلَى آلَةٍ حَدْبَاء مَحْمُولُ

وفي زماننا بالذات، زمن القسوة وظلم العباد، وتمادي الطغيان وتسلل الإلحاد، واشتداد رحى الحرب بين الغرب والإسلام، بل أهل الكفر جميعاً وهذا الإسلام، أضحى من الضرورة بمكان أن نتحول من الحديث عن الموت كمجرد فكرة، وتذكرة وموعظة، لا يتجاوز التفاعل معها لحظات البكاء واستذكار مآثر الموتى الأحبة، فنقف بخجل عند عتبات المواقف المؤقتة والأشجان المبعثرة، إلى حقيقة أن الموت في الإسلام فكرة منهجية ورؤية متكاملة وسبيل عمل ومسابقة وتفانٍ وإخلاص وإحياء للقلوب وهدم للعقبات، فنجعل من ذكر الموت منهج حياة ووسيلة إنجاز وانبعاث الأمة.

## من دار إلى دار

فإن الإنسان يخرج من دار إلى دار، حتى ينتهي إلى ما قدمت يداه، يخرج من أول دار، بطن أمه، من ظلمات ثلاث، حيث اكتمل خلقه ليستقبل الحياة، ثم ليبحر في عالم الدنيا، داره الثانية، ينشأ ويترعرع ويشتد عوده فيتعلم الخير والشر ويختار لنفسه أسباب السعادة أو الشقاوة، ثم تأتي محطة الموت التي لا مفر منها ولا خلاص، لينتقل الإنسان إلى دار ثالثة هي البرزخ في انتظار يوم الحساب، ثم الدار الأخيرة الرابعة، دار الجزاء، فإما الجنة – جعلنا الله من أهلها– وإما النار، أعاذنا الله منها وكتبنا وإياكم من المقبولين الأخيار.

## وصية النبي ﷺ

وإن تناول حقيقة الموت ودراسة المسائل المتعلقة به وسبر أغواره بعناية وتدبر، يرتقي بالنفس إلى مراتب سامقة ويكشف عنها الحجب المظلمة فيشرق نور المعرفة في القلوب وينعكس استقامةً وإقبالاً.

ولذلك كان السابقون الأولون يقفون مطولاً عند حقيقة الموت، قال الصدِّيق أبو بكر رضي الله عنه:

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ  وَالمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وقال الصحابي الجليل سلمان الفارسي ﷺ: "أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث: ضحكت من مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل لا يُغفل عنه، وضاحك ملء فيه لا يدري أمسخطٌ ربه أم مرضيه، وأبكاني ثلاث: فراق الأحبة مُحَمَّد وحزبه، وهول المطلع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدي رب العالمين حين لا أدري إلى النار انصرافي أم إلى الجنة"[1].

وقد كان نقش خاتم الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ "كفى بالموت واعظاً يا عمر"[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قَال: أَخَذ رسول الله ﷺ بِمَنْكِبِي فقال: "كُنْ في الدُّنْيا كأَنَّكَ غريبٌ، أَوْ عَابِرُ سبيلٍ". وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: "إِذَا أَمْسَيْتَ فَلا تَنْتَظِرِ الصَّباحَ، وإِذَا أَصْبَحْتَ فَلا تَنْتَظِرِ المساءَ، وخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لمَرَضِكَ، ومِنْ حياتِك لِمَوتِكَ"، رواه البخاري.

وقال عطاء: كان عمر بن عبد العزيز يجمع في كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة[3].

وفي ذلك استجابة لأمر رسول الله ﷺ حيث قال ﷺ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ»، يعني الموت، رواه الترمذي، والنَّسائي، وصحَّحه ابن حبَّان.

فلا غرابة أن جعل الصالحون من ذكر الموت ملازماً لهم في سكناتهم وحركاتهم يدفعهم للعمل ويُفزعهم من القعود، فذاك الربيع بن خثيم رحمه الله، كان يردد قائلاً: "ما غائب ينتظره المؤمن خيراً له من الموت". ولم تكن مجرد كلمات يذكرها على سبيل الموعظة بل كان

---

[1] رواه أحمد في الزهد وأبو نعيم في الحلية وغيرهما.

[2] البداية والنهاية، (ج7، ص 14).

[3] تاريخ الإسلام للذهبي (ج7، ص202).

يُعِدُّ نفسه لرحلة الموت إعداداً جاداً، حيث عمد الربيع إلى حفر قبر في داره ينام فيه كل يوم ليذكر الموت، ومما تركه من أثر: "لو فارق ذِكْر الموت قلبي ساعة، لفَسَد" [1].

وعلى هذا النهج عاش الصحابة ﷺ، والتابعون بعدهم بإحسان، يستذكرون الموت ويتواصون بالحق ويتواصون بالصبر، ويعدّون أنفسهم لرحلة فراق الدنيا، فيقضون حياتهم في مسابقة بالخيرات ومجاهدة للإخلاص في الأعمال إلى آخر رمق، فكانت إنجازاتهم باهرة وميراثهم لا مثيل له.

وفي المقابل، على الضفة المظلمة، تعجب لنفسيات الملحدين المجرمين، ممن خلع نفسه مِن لباس الفطرة الإيماني السابغ، فانتكس انتكاسة عظيمة وانسلخ بعقله مِن حقيقة وجود إلهٍ لهذا الكون البديع، فضلّ ضلالاً بعيداً... لكن الموت بقي فاضحاً لتخبطهم ومحطة فارقة تعجز عندها فلسفاتهم. فكانت حياتهم بائسة وآثارها كاسدة ونهايتها فاسدة.

عن أبي قتادة الأنصاري ﷺ قال: مُرَّ على النبي ﷺ بجنازة فقال: «مستريح ومستراح منه»، قالوا يا رسول الله: ما المستريح والمستراح منه؟ فقال: «العبد المؤمن يستريح من تعب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»، أخرجه البخاري ومسلم.

## بركات ذكر الموت

ثم إن لذكر الموت بركاته الجليلة، قال الدقاق: "من أكثر من ذكر الموت أُكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضى بالكفاف، والتكاسل في العبادة"[2].

---

[1] إحياء علوم الدين (451/4) .

[2] التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: كنت جالساً مع رسول الله ﷺ فجاء رجل من الأنصار، فسلم على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقاً» قال: فأي المؤمنين أكيس؟ قال: «أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم لما بعده استعداداً أولئك الأكياس»، حديث حسن، أخرجه ابن ماجه ومالك.

فطوبى لأصحاب الفضل والكياسة.

## الموت في كل مكان وفي المكتبات

وإن في هذه الدنيا كل ما يذكرنا بالموت لمن أبصر، نشاهده مع الأوبئة والأمراض والحوادث والحروب والموت المفاجئ بالسكتات والجلطات وغيره من أسباب لا تعد ولا تحصى بل وبدون أسباب ظاهرة، تحلّ علينا حقيقة الموت في كل يوم وكل حين في غفلتنا والانتباه، لعلنا نتذكر أو نخشى.

كذلك في الكتب العديدة التي جمعت من الخلاصات الطيبة المحيطة بهذه الحقيقة لكل باحث عنها، منها كتاب التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي وكتب ابن الجوزي كالتبصرة، والمدهش، وصيد الخاطر. وكتب ابن القيم ككتاب الداء والدواء، ومدارج السالكين، وكتب ابن رجب في الوعظ والترقيق؛ ككتاب جامع العلوم والحكم، ولطائف المعارف. ثم كتاب القيامة الصغرى للدكتور عمر الأشقر على سبيل المثال لا الحصر.

## الحاجة مُلِحّة لذكر الموت

وإن كان هناك من بد آخر لذكر الموت وتدارسه اليوم، فللحاجة الملحّة له لتجاوز مصائبنا ونوازلنا، قال الحسن البصري رحمه الله: "فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذي لُبٍّ فرحاً"[1]. وقال قال كعب الأخبار ﷺ: "من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا"[2].

دَعِ الأَيّامَ تَغدِرُ كُلَّ حِينٍ  فَما يُغني عَنِ المَوتِ الدَواءُ

[1] إحياء علوم الدين (14/22)

[2] نزهة المجالس ومنتخب النفائس ص58.

ولأن كراهية الموت كانت ولا تزال أحد أهم أسباب تعثرنا ونيل الأعداء منا، ففي حديث الرسول ﷺ: عن أبي عبد السلام، عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها». فقال قائل: ومِن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن». فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا، وكراهية الموت»، رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود".

وهما متلازمان «حب الدنيا، وكراهية الموت». فحب الدنيا والتعلق بها يورث كراهية الموت وخشيته، وكلاهما معا يصنع الجبن ويجلب المذلة.

وليس المقصود الخوف الفطري من الموت الذي هو من صميم طبيعة البشر، وخارج عن نطاق التكليف ولا دخل للإنسان في حصوله. إنما المقصود هو الخوف المؤدي للحرص على البقاء في الدنيا والركون إليها وكراهية الجهاد والجبن عن الصدع بالحق.

ولا يمكن في مثل هذه الحال، حال الابتلاءات والمدلهمات، للبيب النجيب، إلا أن يأخذ بنصيحة لقمان حيث قال لابنه: "يا بني، أمرٌ لا تدري متى يلقاك، استعدَّ له قبل أنْ يفجأك". [1]

لذلك عليك أيها المسلم أن تتذكر كلما دعتك نفسك للمعصية وشغلتك عن حقيقة وجودك في هذه الحياة، كلما أزّتك الفتن على الوهن – حب الدنيا وكراهية الموت– أنك في يوم ما، ستموت حتماً وترحل عن هذه الدنيا للأبد، بلا رجعة، فلا يبقى بعدك إلا عملك الصالح والأثر، وأنت الميّت التالي طال الزمن أو قصر، كان أبو هريرة ﷺ إذا رأى أحداً يحمل جنازة يقول لها: "امضوا، فإنا على الأثر".

ولا يملك الإنسان أمام هذه الحقيقة إلا العمل ثم العمل ثم العمل، في سبيل الله وحده لا شريك له.

قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدو، فَبائعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتِقُها أَو مُوبِقُها»؛ رواه مسلم.

---

[1] العافية في ذكر الموت والآخرة.

**حقيقة الموت ..**

ولأجل كل ما سبق ذكره وتفاصيل أخرى لم تذكر بعد، سنبحر في طيّ هذه الصفحات مع "حقيقة الموت" لنسبر أغوارها في الإسلام وندرك عظمتها في حياة الإنسان، فنتجاوز فلسفاته القاصرة ونتدبر قصص خواتيم الصالحين والطغاة المتباينة، ونتعلم بعض العلم عن لحظات الموت ومرحلة القبر والبرزخ. ونخرج بالخلاصات المتينة لأفضل أداء وتميّز يليق بمن آمن وأسلم.

يقول أبو نواس:

المِـــــوتُ مِنّـــــا قَريـــــبٌ وَلَـــــيسَ عَنّـــــا بِنـــــازِح
في كُـــــلِّ يَـــــومٍ نَعـــــيٌ تَصـــــيحُ مِنـــــهُ الصَـــــوائِح
تَشـــــجى القُلـــــوبُ وَتَبكـــــي مُوَلـــــوِلاتُ النَـــــوائِح
حَـــــتّى مَـــــتى أَنـــــتَ تَلهـــــو في غَفلَـــــةٍ وَتُمـــــازِح
وَالمِـــــوتُ في كُـــــلِّ يَـــــومٍ في زِنـــــدِ عَيشِـــــكَ قـــــادِح
فَاعمَـــــل لِيَـــــومٍ عَبـــــوسٍ مِـــــن شِـــــدَّةِ الهَـــــولِ كـــــالِح
وَلا تغُرَّنـــــكَ دُنيـــــا نَعيمُهـــــا عَنـــــكَ نازِح
وَبُغضُـــــها لَـــــكَ زَيـــــنٌ وَحُبُّهـــــا لَـــــكَ فاضِـــــح

*******

## "الموت" في القرآن الكريم

ورد ذكر لفظ "الموت" ومشتقاته في القرآن الكريم مرات كثيرة وكذلك الحياة، فالموت والحياة نقيضان، كحال النور والظلام، والبرودة والحرارة، وقد جاء في تعريف الحياة في لسان العرب[1]: الحياة نقيض الموت، والحي من كل شيء نقيض الميت.

والموت في لغة العرب يطلق على السكون، وكل ما سكن فقد مات، فيقولون: ماتت النار إذا برد رمادها، فلم يبق من الجمر شيء، وهكذا مات الحر والبرد، وماتت الريح، يعني: سكنت. [2]

وجاء في لسان العرب: الحي كل متكلم ناطق، والحي من النبات ما كان طرياً يهتز. [3]

والموت خروج الروح من الجسد قال الله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85)﴾ [الإسراء: 85].

وقال سبحانه في آية أخرى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (57)﴾ [العنكبوت: 57].

فهذه النفس تذوق الموت ولا بد، ثم بعد ذلك الجزاء من جنس العمل، قال تعالى ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185)﴾ [آل عمران: 185] وقال عز وجل ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾ [الأنعام: 158].

قال ابن تيمية رحمه الله: "والأرواح مخلوقة بلا شك، وهي لا تعدم ولا تفنى، ولكن موتها بمفارقة الأبدان، وعند النفخة الثانية تعاد الأرواح إلى الأبدان". [4]

والموت حاضر في القرآن لا ينفك يذكّر الإنسان بهذه الحقيقة التي لا مفر منها والنهاية التي لا خلاص منها، إنها قدر الإنسان والمخلوقات في هذه الحياة، يذكرنا بها القرآن لنتعظ

---

[1] لسان العرب (211/14)، والمخصص (180/1).

[2] ينظر: لسان العرب (90/2).

[3] لسان العرب (211/14)، وتهذيب اللغة (184/5).

[4] مجموع فتاوى ابن تيمية (279/4).

ونعتبر، ولنتعلم التفاصيل المهمة المتصلة بها وندرك حقيقة هذه الدنيا أنها دار امتحان تستوجب العمل والمجاهدة والإعداد للحظة الرحيل الأكيدة. عن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ السَّاعديّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «لَوْ كَانَت الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْها شَرْبَةَ مَاءٍ » رواه الترمذي، وَقالَ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وعن أَبي هُرَيْرَة ﷺ قَالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أَلا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلعونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ الله تَعَالَى ومَا وَالَاه، وَعالِما وَمُتَعلِّمًا » رواه الترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ.

وروى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ: "اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ﷺ وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية. فقال النبي ﷺ: «قَدْ سَأَلْتِ اللهَ لآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئاً قَبْلَ حِلِّهِ، أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئاً عَنْ حِلِّهِ، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ، كَانَ خَيْراً وَأَفْضَلَ».

## الوفاة الصغرى في القرآن

مما يقف عليه المرء عند تدبر القرآن كيف قدم لنا الله سبحانه وتعالى في آياته دليلاً حسياً واختباراً واقعياً لحالة الموت في حياتنا اليومية، وذلك من خلال النوم، إذ أن النوم آية من آيات الله التي ينقطع فيها الإنسان ويفقد فيها إحساس اليقظة والاتصال بما حوله، أشارت إليه الآيات بما وصفه العلماء الوفاة الصغرى، قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: 60].

ثم أعقبتها الآية التالية من نفس السورة في سورة الأنعام ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (61)﴾ [الأنعام: 61]، لتشير إلى الموتة الكبرى.

وعلى غرار سورة الأنعام أشارت سورة الزمر لنفس الميتتين: الصغرى والكبرى، مع اختلاف الترتيب، ففي آيتي الأنعام ذكرت الصغرى ثم الكبرى، وفي آية الزمر ذكرت الكبرى ثم الصغرى، قال تعالى ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: 42].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "يمسك أنفس الأموات (اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا)، يرسل أنفاس الأحياء، ولا يغلط (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)".

وقال السدي: "(وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) إلى بقية أجلها".

وقال ابن عاشور في تفسيره: "إن حالة النوم حالة انقطاع أهم فوائد الحياة عن الجسد وهو الإدراك، سوى أن أعضاءه الرئيسية لم تفقد صلاحيتها للعودة إلى أعمالها حين الهبوب من النوم".

وقال القرطبي في المفهم: "النوم والموت يجمعهما انقطاع تعلق الروح بالبدن وذلك قد يكون ظاهراً وهو النوم، ولذا قيل النوم أخو الموت، وباطناً وهو الموت، فإطلاق الموت على النوم يكون مجازاً لاشتراكهما في انقطاع تعلق الروح بالبدن".

ولأننا جميعا نموت كل يوم موتاً مؤقتاً حين ننام، كان النبي ﷺ يحرص على الدعاء قبل أن يأوي إلى الفراش كما في الحديث عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ بَعْدُ، ثُمَّ لِيَقُلْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِاسْمِكَ أَرْفَعُهُ، اللَّهُمَّ إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ الصَّالِحِينَ»، متفق عليه.

## الموت أجل محدد

ومن أهم رسائل القرآن في باب الموت، أن هذا الموت أجله محدد، قد رفعت الأقلام وجفت الصحف، قد كتبته الملائكة الكرام في اللوح المحفوظ من قبل أن يخلق الإنسان، لذلك فإن الموت حين يحين موعده لا يتقدم ولا يتأخر، بأي شكل من الأشكال قضى فيها الإنسان نحبه ولأي سبب من الأسباب مات. حقيقة لم يستثن منها حتى الأنبياء قال تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً﴾ [آل عمران: 144-145].

فعند وفاة النبي ﷺ، ظن عمر بن الخطاب ﷺ أنه ﷺ قد صعد إلى ربه وسينزل، فقال الصديق أبو بكر ﷺ: "أما من كان يعبد مُحَمَّداً فإن مُحَمَّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت"، وقرأ الآية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: 144]، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30)﴾ [الزمر: 30].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "فو الله وكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر، فتلاها منه الناس، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها"، رواه البخاري.

ثم إذا جاء موعد الموت حتى إن انعدمت أسبابه الظاهرة، فسيموت الإنسان في نفس الموعد قال تعالى ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (49)﴾ [يونس: 49].

وقال سبحانه ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: 145] وقال أيضا جلّ في علاه ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: 11]. وفي آية آخرى قال سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام: 2].

فلا قتالٌ يقصّر العمر ولا شجاعةٌ تسلب المرء حياته، إنما هي أعمارٌ قدّرت آجالها مسبقاً.

قال تعالى ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (154)﴾ [آل عمران: 154].

في غزوة أحد، قال بعض المنافقين: هؤلاء الذين خرجوا إلى أحد وماتوا في المعركة: لو أطاعونا، وجلسوا في المدينة ما ماتوا ولا قتلوا، فرد الله عليهم ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: 154].

قال ابن حزم: "الخلق كله مصرف تحت أمر الله عز وجل وعلمه، فلا يقدر أحد على تعدي علم ما علم الله تعالى أنه يكون، ولا يكون ألبته إلا ما سبق في علمه أنه يكون، والقتل نوع من أنواع الموت. فمن سأل عن المقتول لو لم يقتل لكان يموت أو يعيش فسؤاله

سخيف؛ لأنه إنما يسأل لو لم يمت هذا الميت، أكان يموت أم كان لا يموت، وهذه حماقة لأن القتل علة الموت لمن قتل ". [1]

فمن خرج لقتال، ثم قتل فيه، فحتى لو لم يخرج لهذا القتال، فإن الموت مدركه ولو كان في قصر مشيّد قال تعالى ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: 78].

ولا يفرّ من الموت [2] إلا جاهل ظالم لنفسه، أو كافر. قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: 8].

وقال تعالى ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً (16)﴾ [الأحزاب: 16].

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ المَنَايَا يَنَلْنَهُ وَإِنْ يَرْقَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

ومما يروى في العصر الحديث قصة امرأة كان من المفترض أن يسافر ابنها في الطائرة فتأخر عن موعد السفر، ولم يسافر وبقي في البيت، فإذا بالأخبار بعد ساعات، تعلن سقوط هذه الطائرة ووفاة كل من فيها، ففرحت المرأة كثيراً أن ابنها لم يكن على متن هذه الطائرة وسارعت إلى غرفته كي توقظه وتخبره الخبر وتبشره بنجاته، فوجدته ميتاً في فراشه!

ومما يذكر في القصص القديمة أن مجاهداً أقسم لأصحابه أنه اليوم شهيد، فدخل على العدو ووقف أمام سهامه وأخذ يهاجم وينتظر حتفه، لكنه مكث طويلاً ولم يصبه شيء، فكل سهام العدو تتجاوزه وإن أصابت بعض ثيابه! حتى انتهت سهامه فعاد أدراجه يسترجع ويستغفر، قد علم أن الأعمار بيد الله وحده سبحانه.

وتأمل هذا التحدي العظيم في سورة آل عمران حيث قال تعالى ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 168].

فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين!

---

[1] الفصل في الملل، لابن حزم: 49/3.

[2] ليس القصد الخوف الفطري إنما فكرة الهروب من الموت بحد ذاتها.

ثم هذا التحدي المهيب في قوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94)﴾ [البقرة: 94].

وقال تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6)﴾ [الجمعة: 6].

ولكنهم الكاذبون.

وقد أعجزت آية الموت الظالمين والكافرين.

## ملك الموت في القرآن

ذكر القرآن ملك الموت بدون تحديد اسمه لنعلم أنه موكل بإخراج الروح لحظة الموت، وهو كبير الملائكة الذين وكلهم الله بقبض أرواح العباد. قال تعالى ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11)﴾ [السجدة: 10-11].

قال ابن كثير في "البداية والنهاية" (49/1 ): "وأما ملك الموت فليس بمصرح باسمه في القرآن، ولا في الأحاديث الصحاح، وقد جاء تسميته في بعض الآثار بعزرائيل، والله أعلم".

وعند الموت تأتي الملائكة لاستقبال الميت قال تعالى ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (61)﴾ [الأنعام: 61].

قال ابن القيم –رحمه الله – في كتاب الروح: "تنزل الملائكة على المحتضر وتجلس قريباً منه ويشاهدهم عياناً ويتحدثون عنده، ومعهم الأكفان والحنوط، إما من الجنة وإما من النار، ويؤمنون على دعاء الحاضرين بالخير والشر، وقد يسلمون على المحتضر ويرد عليهم تارة بلفظه وتارة بإشارته وتاره بقلبه، حيث لا يتمكن من نطق ولا إشارة. وقد سُمع بعض المحتضرين يقول: أهلا وسهلا ومرحبا بهذه الوجوه. وأخبرني شيخنا عن بعض المحتضرين، فلا أدرى أشاهده أم أخبر عنه؟ أنه سُمع وهو يقول: عليك السلام ها هنا فاجلس، وعليك السلام ها هنا فاجلس".

ويواصل ابن القيم قائلا: " وأبلغ وأكفى من ذلك كله قول الله عز وجل ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (85)﴾ [الواقعة: 83-85]. أي: أقرب إليه بملائكتنا ورسلنا، ولكنكم لا ترونهم، فهذا أول الأمر، وهو غير مرئي لنا ولا مشاهد، وهو في هذه الدار. ثم يمد الملك يده إلى الروح فيقبضها ويخاطبها، والحاضرون لا يرونه ولا يسمعونه، ثم تخرج فيخرج لها نور مثل شعاع الشمس ورائحة أطيب من رائحة المسك، والحاضرون لا يرون ذلك ولا يشمونه، ثم تصعد بين سماطين من الملائكة والحاضرون لا يرونهم... " انتهى. [1]

وروى الطبري في "تفسيره" (13/ 664) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ شَهِدَتْهُ الْمَلَائِكَةُ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ وَبَشَّرُوهُ بِالْجَنَّةِ".

وروى الإمام أحمد عن البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ... وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ، فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا... » الحديث[2].

وأما الكفرة، قال تعالى ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً (22)﴾ [الفرقان: 22].

فالملائكة تنزع أرواح الكفرة والمجرمين نزعاً شديداً عنيفاً، قال تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (50)﴾ [الأنفال: 50].

---

[1] من "الروح" (ص 64-65).

[2] صححه الألباني في "صحيح الجامع" (1676).

وقال سبحانه ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27)﴾ [مُحَمَّد: 27].

وقال تعالى ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً (22)﴾ [الفرقان: 22].

قال ابن كثير -رحمه الله-: "أي: هُمْ لَا يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ فِي يَوْمٍ خَيْرٍ لَهُمْ، بَلْ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لَهُمْ، وَذَلِكَ يَصْدُق عَلَى وَقْتِ الِاحْتِضَارِ حِينَ تُبَشِّرُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِالنَّارِ، وَغَضَبِ الْجَبَّارِ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْكَافِرِ عِنْدَ خُرُوجِ رُوحِهِ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، اخْرُجِي إِلَى سَموم وحَميم، وظلّ مِنْ يَحْمُومٍ. فَتَأْبَى الْخُرُوجَ وَتَتَفَرَّقُ فِي الْبَدَنِ، فَيَضْرِبُونَهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: 50]. وَقَال ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: 93] أَي: بالضَّرْبِ، ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93)﴾ [الأنعام: 93]؛ ولهذا قال في هذه الآية الْكَرِيمَةِ ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: 22]، وَهَذَا بِخِلَافِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ فِي وَقْتِ احْتِضَارِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يُبَشَّرُونَ بِالْخَيْرَاتِ، وَحُصُولِ الْمَسَرَّاتِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32)﴾ [فصلت: 30-32]".

قال مجاهد رحمه الله في فيض القدير: "ما من مرض يمرضه العبد إلا رسول ملك الموت عنده، حتى إذا كان آخر مرض يمرضه، أتاه ملك الموت. فقال: أتاك رسول بعد رسول فلم تعبأ به، وقد أتاك رسول يقطع أثرك من الدنيا".

ويقبض ملك الموت الأرواح في وقت واحد لأن الله تعالى يقرب له مسافات الأرض حتى تكون مثل القصعة بين يديه، قال القرطبي: روي عن مجاهد أن الدنيا بين يدي ملك الموت

كالطست بين يدي الإنسان يأخذ من حيث شاء، قال ابن كثير وروى زهير بن مُحَمَّد عن النبي ﷺ نحوه مرفوعاً– قال به ابن عباس رضي الله عنهما.

ولملك الموت أعوانٌ من الملائكة، قال تعالى ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (61)﴾ [الأنعام: 61].
قال ابن كثير في تفسيره: "إن ملائكة موكلون بذلك، قال ابن عباس وغير واحد: لملك الموت أعوان من الملائكة يخرجون الروح من الجسد فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم".

وعلى غرار حقيقة قدوم ملائكة الموت، لا تزال هناك حقائق أخرى مهمة بشأن سكرات الموت والقبر والبرزخ ويوم القيامة والجنة والنار من القرآن والسنة النبوية لندرك ما ينتظرنا ونحسن الاستعداد له.

**سكرات الموت في القرآن**

قدر الجميع الموت لكن الاختلاف في موعد خروج الروح وما بعده من تفاصيل. قال تعالى ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19)﴾ [ق: 19] وقال سبحانه ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ [الأنعام: 93].

ولحظة الموت لا يملك الإنسان أي خيار إلا الموت. ولذلك جعل الإسلام الأهمية القصوى للاستعداد لهذا الموعد. فهو بالنسبة للمؤمن الصالح يمثل لحظة شوق للقاء الله أما الكافر المجرم فهي لحظة يتمنى ألا تأتي أبداً. قال تعالى ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 96].
عن زيد بن أسلم رحمه الله قال: "إذا بقي على المؤمن من ذنوبه شيء لم يبلغها بعمله شُدد عليه الموت، ليبلغ بسكرات الموت وشدائده درجته من الجنة، وإن الكافر إذا كان قد عمل

معروفاً في الدنيا يهون عليه الموت، ليستكمل ثواب معروفه في الدنيا، ثم يصير إلى النار"[1].

وقوله تعالى ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (87)﴾ [الواقعة: 83-87].

قال ابن كثير -رحمه الله- في تفسير هذه الآيات: "يقول تعالى (فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ) أي الروح الْحُلْقُومَ أي الحلق، وذلك حين الاحتضار، كما قال تعالى ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30)﴾ [القيامة: 26-30]؛ ولهذا قال هاهنا (وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ) أي: إلى المحتضر، وما يكابده من سكرات الموت (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ) أي بملائكتنا (وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ) أي: ولكن لا ترونهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (61) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (62)﴾ [الأنعام: 61-62]، وقوله تعالى ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا﴾ [الواقعة: 86-87] معناه فهلا ترجعون هذه النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول، ومقرها من الجسد، إن كنتم غير مدينين"[2].

وقوله تعالى ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30)﴾ [القيامة: 26-30].

يقول السعدي في تفسير هذه الآيات: "يعظ تعالى عباده بذكر المحتضر حال السياق، وأنه إذا بلغت روحه التراقي، وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر، فحينئذ يشتد الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب يظن أن يحصل به الشفاء والراحة؛ ولهذا قال: (وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ) أي: من يرقيه، من الرقية؛ لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية، فتعلقوا بالأسباب الإلهية،

---

[1] موسوعة ابن أبي الدنيا (450/5).

[2] تفسير ابن كثير (301/4)

ولكن القضاء والقدر إذا حتم وجاء فلا مرد له، (وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ) للدنيا، (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ)، أي: اجتمعت الشدائد، والتفت، وعظم الأمر، وصعب الكرب، وأريد أن تخرج الروح من البدن، الذي ألفته، ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى؛ ليجازيها بأعمالها ويقررها بفعلها، فهذا الزجر الذي ذكره الله يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها، ويزجرها عما فيه هلاكها، ولكن المعاند الذي لا تنفع فيه الآيات لا يزال مستمراً على غيه وكفره وعناده"[1].

وسكرات الموت امتحان صبر أخير للمؤمن في آخر لحظات حياته. وتأمل حال النبي صلى الله عليه وسلم في سكرات الموت كما جاء في الحديث عن عائشة، رضي الله عنها، حيث قالت: "إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ – أَوْ عُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ– فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الماءِ، فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، وَيَقُولُ: «لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ»، رواه البخاري.
قال ابن حجر: "وفي الحديث أن شدة الموت لا تدل على نقص في المرتبة، بل هي للمؤمن إما زيادة في حسناته، وإما تكفير لسيئاته"[2].

وقد ضرب ﷺ لأمته المثل الأمثل في الصبر وكان ذلك حاله على امتداد سيرته الشريفة إلى لحظات وفاته ﷺ. روى الحاكم عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ: "أنه دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ مَوْعُوكٌ، عَلَيْهِ قَطِيفَةٌ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَوَجَدَ حَرَارَتَهَا فَوْقَ الْقَطِيفَةِ، فَقَالَ: مَا أَشَدَّ حَرَّ حُمَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ!، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّا كَذَلِكَ يُشَدَّدُ عَلَيْنَا الْبَلَاءُ وَيُضَاعَفُ لَنَا الْأَجْرُ»[3].
مصداقاً لقول الله تعالى ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35].

---

[1] تفسير السعدي، ص 833.
[2] فتح الباري (11 / 363).
[3] صححه الألباني في "صحيح الترغيب" (3403) .

## تأملات في الموت

والموت حدث لا يتكرر، فمن مات لا يمكنه أن يرجع ليقصّ علينا تجربته مع الموت، والروح إذا خرجت لا ترجع إلا يوم القيامة، يوم الحساب، بمشيئة الله سبحانه، وذلك ما يجعل من أمر الموت جدّاً لا يقبل الهزل، لأن مرحلة ما بعد الموت مرحلة خطيرة من الحساب وتقييم نتائج امتحان الدنيا. وطوبى لمن أحسن عملاً.

قالت عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ ﷺ: إِنَّا لَنَكْرَهُ المَوْتَ؟
قَالَ ﷺ: «لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»، رواه البخاري.

وفي الوقت الذي يشكل فيه الموت محطة مرعبة للإنسان العاصي، فهو محطة يشتاق لها المسلم المسابق، لأنه يعلم أنها بوابته لحياة الخلود في الجنة، ولأنه أمضى عمره يعبد الله على شوق اللقاء والمحبة. بل هو لبعض العباد أمنية كبرى ومرتبة مطلوبة، إنه بوابة الحياة الحقيقية بمعانيها الجليلة، قال تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (171)﴾ [آل عمران: 169-171].

وفي الحديث الصحيح قال النبي ﷺ: «والَّذي نفسي بيدِه لولا أنْ أشُقَّ على المسلِمين ما قعَدْتُ خَلفَ سَريَّةٍ تغزو في سبيلِ اللهِ أبداً ولكنْ لا أجِدُ سَعةً فأحمِلُهم ولا يجِدون سَعةً فيخرُجون ويشُقُّ عليهم أنْ يتخلَّفوا بعدي والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِه لَوددْتُ أنِّي أغزو في سبيلِ اللهِ فأُقتَلُ ثمَّ أحيا فأُقتَلُ » قال ذلك ثلاثاً.
فتأمل كيف يصبح الموت أمنية وغاية، بل أغلى المطالب وأثمنها، ذلك الموت في سبيل الله.

ومما يروى عن الخليفة الراشد أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال لخالد بن الوليد ﷺ: "احرص على الموت توهب لك الحياة".

ولذلك ذمّت الشريعة الوهن فعن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها». فقال قائل: ومِن قلَّةٍ نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السَّيل، ولينزعنَّ الله مِن صدور عدوِّكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوَهَن». فقال قائل: يا رسول الله، وما الوَهْن؟ قال: «حبُّ الدُّنيا، وكراهية الموت» [1].

وتأمل قول الله تعالى ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195]. فقد ذكر أهل التفسير أن هذه الآية نزلت في الأنصار بالمدينة، لما أرادوا أن يتركوا الجهاد وأن يتفرغوا لمزارعهم، فنزلت الآية لتحذرهم من القعود وترك الجهاد في سبيل الله. فطريق الموت هو طريق الانبعاث والحياة لهذه الأمة.

ثم إن الموت بحد ذاته نعمة، فلولا الموت لما انتهى ظلم الطغاة والمجرمين. فقد جعل الله في الموت للظالم شفاء لصدور المؤمنين والمظلومين. قال تعالى يصف حالهم مع الموت ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (6)﴾ [الأنفال: 6]. وجاء في الآية ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً﴾ [المؤمنون: 99-100] والآية ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10)﴾ [المنافقون: 10] وقال تعالى ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26)﴾ [الفجر: 24-26].

كما أنه ابتلاء يبتلى به المرء بفقد من يحب، لكنه مع ذلك تذكرة لهذا الإنسان بأن الحياة الدنيا فانية وأن العيش فيها إنما لأهداف سامقة خلال عمر زمني محدود لا يقبل الإهمال

[1] رواه أبو داود وأحمد وجوَّد إسناده الهيثمي في (مجمع الزوائد) وصححه الألباني في (صحيح سنن أبي داود).

ولا الهدر. قال تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155)﴾ [البقرة: 155].

قَال ابن رجب – رحِمَه اللهُ تَعَالَى: "كلُّ مَا يُؤلِمُ النُّفوسَ ويَشُقَّ عَلَيهَا، فإنَّهُ كفَّارةٌ لِلذُّنُوبِ"[1].

ولحظة الموت قال تعالى فيها ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)﴾ [ق: 22]. وقوله تعالى (حديد) أي قويّ، قال ابن قتيبة: الحديد بمعنى الحاد. أي فأنت ثاقب البصر وفي قوله تعالى حديد، ثلاثة أقوال: الأول: فبصرك حديد إلى لسان الميزان حين توزن حسناتك وسيئاتك، قاله مجاهد، والثاني: أنه شاخص لا يطرف لمعاينة الآخرة قاله مقاتل، والثالث: أنه العلم النافذ قاله الزجاج.

ولأنه خط لا رجعة بعده جعل الله التوبة مصيرية قبل الموت قال تعالى ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: 18].

وقال تعالى يصف فرعون في لحظات الموت ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91)﴾ [يونس: 90-91].

ومن الأبواب التي تناولها القرآن في حقيقة الموت، الأحكام التي تترتب عليه، حيث قال سبحانه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: 180].

وقال سبحانه ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: 84].

وقال أيضا ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾ [المائدة: 106].

(1) مَجمُوعُ رَسَائِلِ ابْنِ رَجَبٍ (4/17)

وقال جلّ في علاه ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179)﴾ [البقرة: 179].

فذكر الله ﷻ الوصية للميّت، والتعامل مع الكافرين والمنافقين عند الموت بتحريم الصلاة عليهم والترحم والاستغفار لهم، وجعل من القصاص في القتلى "حياة" و"أحكام" لا تخفى في أبواب الفقه.

وجاءت العديد من الآيات تشير لآية الموت كعبرة للبشر وحجة دامغة وحق ينسف الباطل، قال تعالى ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: 50] وقوله سبحانه ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر: 9]، وقال تعالى ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259)﴾ [البقرة: 259].

ولا ينقطع العلم بتدبر آيات الله التي تناولت الموت، فهي عظيمة تدفع بالخشية والوجل، وحري بالمسلم أن يقف عندها متأملاً في عظمة الله سبحانه وتعالى وما ينتظره.
وإن تدبر القرآن أولى مفاتيح الفتوحات الربانية للعبد، لا يفرّط فيه عاقل، يبصر سرعة عجلة الحياة التي يعيش. فما عرضناه غيض من فيض، ولا يغني عن فتح المصحف وتدبر آيات الله التي ذكرت الموت.

وما الإنسان إلا تعداد أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه. حتى يحين موعد موته، الذي لا فرق فيه بين قوي وضعيف ولا غني وفقير ولا فاضل ومفضول.
فالعمر مهما طال لابد في نهايته من نزول القبر.. ولذلك أعدّ!.

قال الشاعر أبو العتاهية:

لا تَأمَــنِ المِــوتَ في ظَــرفٍ وَلا نَفَــسٍ ... وَلَــو تَمَنعــتَ بِالحُجّــابِ وَالحَــرَسِ
وَاعلَــم بِأَنَّ سِــهامَ المِــوتِ نافِــذَةٌ ... في كُــلِ مُــدَّرَعٍ مِنــا وَمُــتَّرِسِ
مــا بالُ دُنيــاكَ تَرضــى أَن تُدَنِّسَــهُ ... وَثَوبَــكَ الــدَهرُ مَغســولٌ مِــنَ الــدَنَسِ
تَرجــو النَجــاةَ وَلَم تَســلُك مَســالِكَها ... إِن السَــفينَةَ لا تَجــري عَلــى اليَــبَسِ

والفقيه من جعل عنوان مسيرته في الدنيا ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162)﴾ [الأنعام: 162]، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (8)﴾ [الدخان: 8].

وتأمل ما نُسب إلى الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ حيث قال: "لو أن الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيها رجل، ثم جاءه الموت، لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يَسُرُّه ثم استيقظ، فإذا ليس في يده شيء!"[1].

*******

([1]) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين (248/3) على أنه لعمر ﷺ، وإنما هذا قول الحسن البصري رحمه الله. خرجه ابن أبي حاتم في تفسيره [5635]، وابن أبي الدنيا في الزهد [376]، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (270/6) كلاهما من طريق: عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ، قال: ثنا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ هِشَامٍ، قَالَ: قَرَأَ الْحَسَنُ: {قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ} [النساء: 77]، قَالَ: " رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا صَحِبَهَا عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ، مَا الدُّنْيَا كُلُّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا إِلَّا كَرَجُلٍ نَامَ نَوْمَةً فَرَأَى فِي مَنَامِهِ بَعْضَ مَا يُحِبُّ ثُمَّ انْتَبَهَ ". اهـ

## "الموت" في السنة النبوية

عن أبي هريرة قال كان رسول الله ﷺ يُكثِرُ أن يقول: «أكثِروا مِن ذِكْرِ هاذمِ اللَّذَّاتِ، الموت، فإنه لم يذكره أحدٌ في ضيقٍ من العيش إلا وسعه الله عليه، ولا ذكره في سعةٍ إلا ضيقها عليه»[1]، وسنجد ذكر الموت حاضراً بقوة في السنة النبوية الشريفة قولاً وتعاملاً، فكانت السنة دليلاً نظرياً وعملياً لا يصح إيمان العباد ولا تصح أعمالهم إلا بالإيمان بصاحبها ﷺ نبيّاً مرسلاً، واتباعه والثبات على نهجه إلى آخر رمق.

ولا ينفك ذكر الموت في السنة محرضاً للمسلم على التفاني في عبادة لله سبحانه وتعالى والمسابقة بالخيرات قبل لحظة الوداع. فعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ: «اذكر الموتَ في صلاتِك، فإنَّ الرجلَ إذا ذكر الموتَ في صلاتِه لحريٌّ أن يُحسنَ صلاتَه، وصلِّ صلاةَ رجلٍ لا يظنُّ أنَّه يُصلِّي صلاةً غيرَها، وإيَّاك وكلُّ أمرٍ يُعتذَرُ منه »[2].

وقال ﷺ: «فو الذي نفس مُحَمَّد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » [3] في إشارة إلى فناء هذه الدنيا وضرورة العمل لدخول الجنة.

وعن ابن عمر أَنَّهُ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَاشِرَ عَشَرَةٍ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، مَنْ أَكْيَسُ النَّاسِ وَأَحْزَمُ النَّاسِ؟ فَقَالَ ﷺ: «أَكْثَرَهُمْ ذِكْراً لِلْمَوْتِ، وَأَشَدُّهُمُ اسْتِعْدَاداً لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِ الْمَوْتِ، أُولَئِكَ هُمُ الأَكْيَاسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَكَرَامَةِ الآخِرَةِ»[4].

وقد ورد ذكر الموت في الحديث من باب المقارنة مع الرزق كما روي عن جابِر بن عبدِ الله ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لو أنَّ ابنَ آدمَ هرَبَ من رزقِهِ كما يهرَبُ من الموتِ، لأدْرَكَهُ رزْقُهُ كما يُدْرِكُهُ الموتُ»[5].

وعن محمود بن لبيد الأنصاري عنِ النبي ﷺ قال: «اثنتانِ يكرهُهما ابنُ آدمَ: يكرَهُ الموتَ والموتُ خيرٌ له من الفتنةِ، ويكرَهُ قِلَّةَ المالِ وقِلَّةَ المالِ أقلُّ للحسابِ »[6].

---

[1] رواه الترمذي، والنَّسائي، وصحَّحه ابن حبَّان.

[2] أخرجه البيهقي في كتاب الزهد الكبير وصاحب كنز العمال، وحسنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحية وفي صحيح الجامع.

[3] الجامع الصغير عَنْ حَمْزَةَ بْنِ عُمْرَانَ.

[4] رواه ابن ماجه، والطبراني في الصغير وحسنه المنذري والهيثمي وقال العراقي: إسناده جيد.

[5] صححه الألباني في " السلسلة الصحيحة "(952).

[6] رواه أحمد، الصحيحة (813).

ولم يقف الأمر على ذكر الموت لتحذير الإنسان من مغبة الغفلة عن هذا المصير وضرورة الاستعداد له، بل ورد أيضا لتبيان أن الموت هو أهون خطر ينتظرنا على شدّته، فما بعده أشد وأخطر كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لم يلق ابن آدم شيئاً قطُّ منذ خلقه الله أشدّ عليه من الموت، ثم إن الموت لأهون مما بعده»[1].

وقال أيضا ﷺ: «لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت ما أكلتم طعاماً عن شهوةٍ أبداً، ولا شربتم شراباً على شهوةٍ أبداً، ولا دخلتم بيتاً تستظلون به، ولمررتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم، وتبكون على أنفسكم»[2].

ووردت أحاديث تعلمنا مصيرنا بعد الموت كما روي عن البراء بن عازب ﷺ قال: "خرجنا مع النبيّ ﷺ في جنازةِ رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبرِ ولما يُلحد، فجلسَ رسولُ الله ﷺ مستقبل القبلة، وجلسنا حولَه وكأنَّ على رؤوسنا الطَّير، وفي يده عودٌ ينكُتُ في الأرضِ، فجعلَ ينظُرُ إلى السماءِ وينظُرُ إلى الأرضِ، وجعلَ يرفعُ بصرَهُ ويخفضُه، ثلاثاً، فقال: استعيذوا باللهِ من عذابِ القبرِ، مرتين، أو ثلاثاً، ثم قال: اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك من عذابِ القبرِ (ثلاثاً)، ثم قال: إن العبدَ المؤمنَ إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا، وإقبالٍ من الآخرةِ، نزل إليه ملائكةٌ من السماءِ، بيضُ الوجوهِ، كأنَّ وجوهَهم الشمسُ، معهم كَفَنٌ من أكفانِ الجنةِ، وحنُوطٌ من حَنُوطِ الجنةِ، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجئ ملكُ الموتِ عليه السلام، حتى يجلسَ عند رأسِه فيقولُ: أيَّتُهُا النفسُ الطيبةُ (وفي رواية: المطمئنّة)، أخرجي إلى مغفرةٍ من اللهِ ورضوانٍ. قال: فتخرُجُ تسيلُ كما تسيل القطرةُ منْ في السِّقاءِ، فيأخذها، (وفي رواية: حتى إذا خَرَجَت روحُه صلّى عليه كلُّ ملكٍ بين السماء والأرضِ، وكُلُّ ملك في السماءِ، وفتحت له أبوابُ السماء، ليس من أهلِ باب إلا وهُم يدعون الله أن يُعرَج بروحه من قِبَلِهم)، فإذا أخذها لم يَدَعُوها في يدهِ طرفة عين حتى يأخُذُوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، فذلك قولُه تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (61)﴾ [الأنعام: 61]، ويخرجُ منها كأطيبِ نفحةِ مسكٍ وجُدت على وجه الأرض، قال: فيصعدُون بها فلا يمرُّون – يعني – بها على ملأٍ من الملائكةِ إلاّ قالوا: ما هذا الروحُ الطيّب؟ فيقولون: فلانُ ابنُ فلان – بأحسن أسمائه التي كانوا يُسمونه بها في

---

[1] أخرجه أحمد بسند رجاله ثقات.

[2] أبو داود عن أبي الدرداء، أخرجه ابن عساكر (268/56) .

الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماءِ الدنيا، فيستفتحون له فيُفتحُ لهم، فيشيعُه من كل سماءٍ مقرَّبوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة فيقولُ الله عزّ وجل: اكتُبوا كتاب عبدي في علّيين، ثم يقال: أعيدوهُ إلى الأرضِ، فإنّي (وعدتهم إني) منها خلقتُهم، وفيها أُعيدُهم ومنها أُخرجهم تارةً أخرى، قال: فيُردُّ إلى الأرض، وتُعادُ روحُه في جسدهِ. قال: فإنّه يسمعُ خَفقَ نعالِ أصحابهِ إذا ولَّوا عنه مدبرين، فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانِه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربّي الله، فيقولان له: ما دينُك؟ فيقولُ: ديني الإسلامُ، فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بُعث فيكم؟ فيقولُ: هو رسولُ الله ﷺ، فيقولان له: وما عَمَلُك؟ فيقول؟ قرأتُ كتابَ الله، فآمنتُ به، وصدَّقت، فينتهرُه فيقولُ: منْ ربك؟ ما دينُك؟ منْ نبيُّك؟ وهي آخرُ فتنةٍ تُعرضُ على المؤمنِ، فلذلك حين يقولُ الله عزّ وجلّ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [إبراهيم: 27]، فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمدٌ ﷺ، فيُنادي مُنادٍ في السماء أنْ صدقَ عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنةِ، قال: فيأتيه من رُوحِها وطِيبِها، ويُفسحُ له في قبرهِ مدَّ بصرِه، قال: ويأتيه (وفي رواية: يُمثّل له) رجل حسنُ الوجه، حسنُ الثيابِ، طيّبُ الريحِ، فيقولُ: أبشِرُ بالذي يَسُركَ، أبشِر برضوانٍ من اللهِ، وجناتٍ فيها نعيمٌ مقيمٌ، هذا يومُك الذي كنت تُوعدُ، فيقولُ له: وأنتَ فبشرك الله بخيرٍ منْ أنتَ؟ فوجهُك الوجهُ يجئ بالخيرِ، فيقولُ: أنا عملُك الصالحُ فواللهِ ما علمتُك إلا كنت سريعاً في طاعةِ الله، بطيئاً في معصيةِ اللهِ، فجزاك الله خيراً، ثم يُفتحُ له بابٌ من الجنةِ، وبابٌ من النّار، فيُقال: هذا منزلُك لو عصيتَ الله، أبدلك الله به هذا، فإذا رأى ما في الجنةِ قال: ربِّ عجّل قيام الساعةِ، كيما أرجعُ إلى أهلي ومالي، فيُقالُ له: اسكُن. قال: وإن العبد الكافر (وفي رواية: الفاجر) إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا، وإقبالٍ من الآخرةِ، نَزَلَ إليه من السماء ملائكةٌ غلاظٌ شِدادٌ، سُودُ الوجوهِ، معهم المسوحُ من النار، فيجلِسون منه مدَّ البصر، ثم يجئُ ملكُ الموتِ حتى يجلسَ عند رأسِه، فيقولُ: أيّتُها النفسُ الخبيثةُ اخرُجي إلى سخطٍ من الله وغضبٍ، قال: فتفرّقُ في جسدهِ فينتزعُها كما يُنتزع السُفودُ (الكثيرُ الشُعب) من الصُّوفِ المبلولِ، فتُقطَّعُ معها العروقُ والعصبُ، فيلعنهُ كلُّ ملكٍ بين السماءِ والأرضِ، وكُلُّ مَلَكٍ في السماء، وتُغلقُ أبوابُ السماء، ليس من أهلِ بابٍ إلاّ وهمُ

يـدعون الله ألاّ تَعـرجَ روحُـه مِـنْ قِـبَلهم، فيأخـذها، فـإذا أخـذها لم يـدعُوها في يـدهِ طرفـةَ عـينٍ حـتى يجعلُوهـا في تلـك المسُـوحِ، وَيُخْـرُجُ منهـا كـأنتنِ ريـحٍ جيفـةٍ وُجـدت علـى وجـهِ الأرض، فيصـعدُون بهـا، فـلا يمُـرُّون بهـا علـى مـلأ مـن الملائكـةِ إلاّ قـالوا: مـا هـذا الـروحُ الخبيـثُ؟ فيقولـون: فـلانُ ابـنُ فـلان – بأقـبحِ أسمائِـه الـتي كـان يُسـمى بهـا في الدنيـا، حـتى ينتهـي بـه إلى السـماءِ الـدنيا، فيُسـتفتح بـه، فـلا يُفـتحُ لـه، ثم قـرأ رسـولُ الله ﷺ ﴿لَا تُفَـتَّحُ لَهُـمْ أَبْـوَابُ السَّـمَاءِ وَلَا يَـدْخُلُونَ الْجَنَّـةَ حَـتَّى يَلِـجَ الْجَمَـلُ فِي سَـمِّ الْخِيَـاطِ﴾ [الأعـراف: 40] فيقـولُ اللهُ عـزّ وجـلّ: اكتُبـوا كتابـةَ في سـجِّين، في الأرض السُّـفلى، ثم يُقـال: أعيـدُوا عبـدي إلى الأرضِ فـأنّي وعـدتُّهم أنّي منهـا خلقـتُهم، وفيهـا أعيـدُهم، ومنهـا أُخـرجهم تارةً أخـرى، فتُطـرح روحُـه مـن السـماء طرحـاً حـتى تقـعَ في جسـدِه ثم قـرأ: ﴿وَمَـنْ يُشْـرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَـا خَـرَّ مِـنَ السَّـمَاءِ فَتَخْطَفُـهُ الطَّيْـرُ أَوْ تَهْـوِي بِـهِ الـرِّيحُ فِي مَكَـانٍ سَـحِيقٍ (31)﴾ [الحـج: 31] فتُعـادُ روحُـه في جسـدِه، قـال فإنـه ليسـمعُ خفـقَ نِعـالِ أصـحابهِ إذا ولَّـوا عنـه. ويأتيـه ملكـانِ شـديدا الانتهـارِ، فينتهرانـهِ، ويُجلسـانهِ، فيقـوُلانِ لـه: مَـنْ ربُّـك؟ فيقـول: هـاهِ هـاهِ لا أدري، فيقُـولان لـه: مـا دينُـك؟ فيقـولُ: هـاهِ هـاهِ لا أدري، فيقـولانِ: مـا تقـولُ في هـذا الرجـلِ الـذي بُعِـثَ فـيكم؟ فـلا يهتـدي لاسمـه، فيُقـال: محمـدٌ! فيقـولُ: هـاهِ هـاهِ لا أدري سمعـتُ النـاسَ يقولـون ذاك، قـال: فيُقـال لا دريـت، ولا تلـوت، فيُنـادي مُنـادٍ مـن السـماءِ أنْ: كـذبَ، فأفرشـوا لـه مـن النـارِ، وافتحُـوا لـه باباً إلى النـار، فيأتيـهِ مِـنْ حرّهـا وسمُومِهـا، ويُضَـيَّقُ عليـه قـبرهُ حـتى تختلـفَ فيـه أضـلاعُهُ، ويأتيـهِ (وفي روايـة: ويُمثـل لـه) رجـلٌ قبـيحُ الوجـهِ، قبـيحُ الثيـاب، مُنـتِنُ الـرّيحِ، فيقـولُ: أبشِـر بالـذي يسـوؤك، هـذا يومُـك الـذين كُنـتَ تُوعـدُ، فيقـولُ: وأنـت فبشَّـرك اللهُ بالشـرِّ مـن أنـت؟ فوجهُـك الوجـهُ يجـئ بالشَّـرِّ! فيقـولُ: أنا عملُـك الخبيـثُ، فـواللهِ مـا علمـتُ إلاّ كنـتَ بطيئـاً عـن طاعـةِ الله، سـريعاً إلى معصـيةِ اللهِ، فجـزاكَ الله شَـرَّاً، ثم يُقـيَّضُ لـه أعمـى أصـمُّ أبكـمُ في يـده مرزبّـةً! لـو ضُـرب بهـا جبـلُ كـان تـراباً، فيضـربهُ ضـربةً حـتى يَصـيرَ بهـا تـراباً، ثم يعيـدهُ الله كمـا كـان، فيضـربُهُ ضـربةً أخـرى، فيصـيحُ صـيحةً يسـمعهُ كـلُّ شـيء إلاّ الثقلـينِ، ثم يُفـتح لـه بابٌ من النار، ويُمهَّدُ من فُرُشِ النارِ، فيقول: رَبِّ لا تُقمِ الساعة". [1]

[1] رواه أحمد وأبو داود والحاكم وهو في صحيح الجامع الصغير برقم (1672) والحديث بكامله في كتاب أحكام الجنائز للشيخ الألباني مع تخريج الزيادات الواردة فيه .

وفي رواية للطيالسي: «فيقول: أنا عملك الخبيث، والله ما علمتك إلا كنت بطيئاً عن طاعة الله، سريعاً إلى معصية الله» وفي رواية لأبي داود: «قال: ثُمَّ يُقَيَّضُ له أَعْمَى أَبْكَمُ معه مِرْزَبَّةٌ من حَدِيدٍ لو ضُرِبَ بها جَبَلٌ لَصَارَ تُرَاباً، قال: فَيَضْرِبُهُ بها ضربه يَسْمَعُهَا ما بين الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إلا الثَّقَلَيْنِ فَيَصِيرُ تُرَاباً قال: ثُمَّ تُعَادُ فِيهِ الرُّوحُ».

وفي حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ عند الترمذي قال في المؤمن: «... ثُمَّ يُفْسَحُ له في قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعاً في سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ له فيه، ثُمَّ يُقَالُ له: نَمْ، فيقول: أَرْجِعُ إلى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الذي لَا يُوقِظُهُ إلا أَحَبُّ أَهْلِهِ إليه، حتى يَبْعَثَهُ الله من مَضْجَعِهِ ذلك. وَإِنْ كان مُنَافِقاً... يُقَالُ لِلْأَرْضِ: الْتَئِمِي عليه فَتَلْتَئِمُ عليه فَتَخْتَلِفُ فيها أَضْلَاعُهُ، فلا يَزَالُ فيها مُعَذَّباً حتى يَبْعَثَهُ الله من مَضْجَعِهِ ذلك».

فتأمل هذا البيان العظيم فيما بعد الموت وردد لا إله إلا الله!

ثم إن النبي ﷺ بشرنا بعمل يجري أجره حتى بعد الموت لنسابق في الخيرات بيقين، فقال ﷺ: «أَرْبَعَةٌ تَجْرِي عَلَيْهِمْ أُجُورُهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ، مُرَابِطٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ عَمِلَ عَمَلا أُجْرِيَ لَهُ مِثْلُ مَا عَمِلَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَجْرُهَا لَهُ مَا جَرَتْ، وَرَجُلٌ تَرَكَ وَلَداً صَالِحاً فَهُوَ يَدْعُو لَهُ »[1].

وحثنا ﷺ على مواصلة العمل الصالح بمحاسبة النفس، حيث قال ﷺ: «الكَيِّس مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِما بَعْدَ الْموْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَه هَواهَا، وتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»[2].

ونهانا النبي ﷺ عن تمني الموت حيث ورد في صحيحي البخاري ومسلم عن أنس ﷺ أنه قال: قال ﷺ: «لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ مِنْ ضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ فَاعِلا فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْراً لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْراً لِي».

ومن ذلك الدعاء بقول: "اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا، واجعل الحياة زاداً لنا من كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر".

---

[1] رواه أحمد عن أبي أمامة الباهلي، صحيح لغيره.

[2] رواه التِّرْمِذيُّ وقالَ: حديثٌ حَسَنٌ.

لكن تمني الموت مباح لخوف الفتنة في الدين، كما في الحديث الذي رواه أبو داود عن النبي ﷺ: «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني غير مفتون». لذلك دعا عمر بن الخطاب ﷺ الله قائلاً -كما ورد في الموطأ-: "اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط".

قال تعالى ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (69)﴾ [النساء: 69]

وأعظم أمنية، تمني الموت لأجل الحياة والارتقاء في أعلى مراتب الجنة، مراتب الشهداء، فقد كان النبي ﷺ يتمنى القتل في سبيل الله ويكرر ذلك ويحث عليه لأنه السبيل لنيل مرتبة الشهداء وفضائلها والسبيل لحياة الخالدين في أعلى مراتب الجنّة.

قال ﷺ في الحديث الصحيح: «والَّذي نفسي بيدِه لولا أنْ أشُقَّ على المسلِمين ما قعَدْتُ خَلفَ سَريَّةٍ تغزو في سبيلِ اللهِ أبداً ولكنْ لا أجِدُ سَعةً فأحمِلُهم ولا يجِدون سَعةً فيخرُجون ويشُقُّ عليهم أنْ يتخلَّفوا بعدي والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِه لَودِدْتُ أنِّي أغزو في سبيلِ اللهِ فأُقتَلُ ثمَّ أحيا فأُقتَلُ». قال ذلك ثلاثاً.

ولما سُئل رسول الله ﷺ في الحديث في صحيح النسائي: "يا رسولَ اللهِ! ما بالُ المؤمنينَ يُفتَنونَ في قبورِهِم إلَّا الشَّهيدَ؟! قالَ: «كفَى ببارقةِ السُّيوفِ علَى رأسِهِ فتنةً».

وعلمتنا الأحاديث كيف تعامل النبي ﷺ وصحابته الكرام مع الموت، ففي الحديث الصحيح المتفق عليه، عن أسامة بن زيد بن حارثة -رضي الله عنهما- قال: أرسلت بنت النبي - ﷺ- إنَّ ابني قد احتُضِر فاشْهَدنَا، فأرسَل يُقرِئُ السَّلام، ويقول: «إنَّ لِلَّه ما أَخَذ ولَهُ ما أَعطَى، وكلُّ شَيءٍ عِنده بِأجَل مُسمَّى فَلتَصبِر ولتَحتَسِب». فأرسلت إليه تُقسِم عَليه لَيَأتِيَنَّها، فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال -ﷺ- فَرفع إلى رسول الله -ﷺ- الصَّبِي، فأَقعَدَه في حِجرِه ونَفسه تَقَعقَع، فَفَاضَت عينَاه فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: «هذه رَحمَة جَعلَها الله تعالى في قُلُوب عِباده» وفي رواية: «في قلوب من شاء من عباده، وإنَّما يَرحَم الله من عِبَاده الرُّحَماء».

وعن البراء بن عازب قال: كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على شفير القبر فبكى حتى بل الثرى، ثم قال ﷺ: «يا إخواني لمثل هذا فأعدوا»[1].

ويبقى الموت الحقيقة التي لا مفر منها مهما بلغ الإنسان من تقدم علمي وطبي:

إن الطبيب له علمٌ يدلُّ به ... إن كان للناس في الآجال تأخير
حتى إذا ما انتهت أيام رحلته ... حار الطبيب وخانته العقاقير

ويستأنس المؤمنون بحديث النبي ﷺ عن أن الموت راحة للمؤمن من نصب الدنيا وابتلاءاتها وراحة للمؤمن أيضا عند وفاة الكافر والظالم لزوال ظلمه وفساده، فعن أبي قتادة بن رِبْعِيٍّ الأنصاري رضي الله عنه: أنه كان يحدِّث: أن رسول الله ﷺ: مُرَّ عليه بجنازة فقال: «مُستريحٌ ومُسْتَرَاحٌ منه"، قالوا: يا رسول الله، ما المستريحُ والمستَراح منه؟ فقال: "العبد المؤمن يستريح من نصَبِ الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يَستريح منه العبادُ والبلاد والشجَرُ والدوابُّ»، متفق عليه.

ورَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ إِذَا انْصَرَفُوا أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولانِ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ (أَيِ الْكَامِلُ) فَيَقُولُ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَداً مِنَ الْجَنَّةِ فَيَرَاهُمَا جَمِيعاً وَأَمَّا الْكَافِرُ أَوِ الْمُنَافِقُ فَيَقُولُ لا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِيهِ، فَيُقَالُ لا دَرَيْتَ وَلا تَلَيْتَ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ بَيْنَ أُذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ». فاللهم نسألك حسن الخاتمة والجنة.

وعند الحديث عن الموت يجب أن نقف عند موت أقرب الناس للنبي ﷺ فقد شهد ﷺ

موت أبنائه جميعاً ما عدا فاطمة رضي الله عنها التي لحقت به بعد وفاته ﷺ بوقت قصير، وشهد موت زوجتيه –أمنا خديجة بنت خويلد وأمنا زينب بنت خزيمة رضي الله عنهما– وشهد

[1] رواه ابن ماجه، وحسنه النووي، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه وفي الصحيحة.

موت بعض أقاربه وأصحابه فكان كل موقف له ﷺ مع وفاة أحدهم، مدرسة جليلة في الصبر واليقين وصدق المحبة والإحسان.

ونكتفي هنا بذكر قصة موت ابنه إبراهيم من أم المؤمنين مارية ﵂، وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة 10 للهجرة، وكان عمره ستة عشر شهراً فقط. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين، وكان ظِئْراً لإبراهيم ابن النبي ﷺ، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبَّله وشمَّه، ثم دخل عليه بعد ذلك وإبراهيم يجودُ بنفسه، فجعلتْ عينا رسول الله ﷺ تذرفان! فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

فتأمل كيف حزن نبي الله بموت ابنه بتسليم لأمر الله في هذا المشهد المهيب، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ومن الصعب أن نجمع جميع الأحاديث النبوية التي ذكرت الموت في هذا المقام لكننا نكتفي بما عرضناه، ونستعد لعرض المزيد من التفاصيل التي جاء بها القرآن والسنة في صفحاتنا المقبلة لكل ما يتصل بالموت ومراحله وما بعده، فلولا هذان المصدران العظيمان لما تمكنا من معرفة حقيقة الموت وما بعدها ولا كيف يجب أن نتعامل معها ونستعد لها. فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله سبحانه وتعالى.

*******

## الموت عند السلف

كلما تأملنا في آثار الصحابة ﷺ والسلف الصالح التي تناولت حقيقة الموت والمواعظ المستخلصة منه، ندرك لماذا بلغت هممهم عنان السماء، وحفرت أعمالهم نماذج مشرقة في تاريخ الأمة المسلمة. ذلك أن قلوبهم بقيت معلّقة بذلك الموعد الأكيد، وجوارحهم تستعد له في كل حين.

ولنحلّق مع المعاني السامقة من هدي من سبق، نقتبس في هذه السطور بعض الآثار الجليلة لعباده الصالحين، والتي تعتبر وصايا حريّ بنا التمسك بها في زمن تفشت فيه قسوة القلوب وغلبت مقاصد الدنيا على مقاصد الآخرة، وانشغل الناس عن موعد الموت العظيم بسفاسف الأمور التافهة!

### الموت عند الصحابة الكرام ﷺ

قال خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ﷺ: "كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالمِوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ"، رواه البخاري. وقالت عائشة ﷺ: كنت عند أبي بكر حين حضرته الوفاة، فتمثلت بهذا البيت:

من لا يزال دمعه مقنعا  يوشك أن يكون مدفوقا

فقال: يا بنية! لا تقولي هكذا، ولكن قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19)﴾ [ق: 19]. ثم قال: في كم كفن النبي ﷺ؟ فقلت: في ثلاثة أثواب، فقال: كفنوني في ثوبي هاذين، واشتروا إليهما ثوبا جديدا؛ فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت، وإنما هي للمهنة (أو للمهلة)[1].

وأوصى عمر ﷺ فقال:

[1] صحيح الموارد.

"إني موصيك بوصية إن أنت حفظتها: إن لله حقا بالنهار لا يقبله بالليل، وإن لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلة، حتى تؤدي الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم في الدنيا الحق وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا، وأن الله ذكر أهل الجنة بصالح ما عملوا، وأنه تجاوز عن سيئاتهم، فيقول القائل: ألا أبلغ هؤلاء، وذكر أهل النار بأسوأ ما عملوا، وأنه رد عليهم صالح ما عملوا، فيقول قائل: أنا خير من هؤلاء، وذكر آية الرحمة وآية العذاب، ليكون المؤمن راغبا وراهبا، لا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقي بيده إلى التهلكة؛ فإن أنت حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت، وإن أنت ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت، ولن تعجزه"[1].

وعن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه دخل على عمر ﷺ حين طعن، فقال: "أبشر يا أمير المؤمنين، أسلمت مع رسول الله ﷺ حين كفر الناس، وقاتلت مع رسول الله ﷺ حين خذله الناس، وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنك راض، ولم يختلف في خلافتك رجلان، وقتلت شهيداً. فقال: أعد، فأعاد فقال: المغرور من غررتموه، لو أن ما على ظهرها من بيضاء وصفراء، لافتديت به من هول المطلع". [2]

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "كان رأس عمر على فخذي في مرضه الذي مات فيه". فقال: "ضع رأسي على الأرض". فقلت: "ما عليك كان على الأرض أو كان على فخذي؟!" فقال: "لا أم لك، ضعه على الأرض". فقال عبد الله: "فوضعته على الأرض". فقال: "ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي عز وجل"[3]، قالها ثلاثا وهو من العشر المبشرين بالجنة!

---

[1] ابن المبارك في الزهد والرقائق باب ذكر رحمة الله تبارك وتعالى وجل وعلا ، حديث رقم 901.

[2] صحيح ابن حبان.

[3] مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – ﷺ– لابن الجوزي، ص231.

وعن ابن أبي مليكة أن عمر بن الخطاب ﷺ قال لكعب الأحبار ﷺ: أخبرني عن الموت. فقال: يا أمير المؤمنين هو مثل شجرة كثيرة الشوك في جوف ابن آدم، وليس منه عرق ولا مفصل إلا فيه شوك، ورجل شديد الذراعين فهو يعالجها ينزعها، فأرسل عمر دموعه. [1]

وذاك أمير المؤمنين عثمان بن عفان – ﷺ – كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبل لحيته، وقال: "لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي، لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير". [2]

وقال ﷺ وأرضاه حين طعنه الغادرون والدماء تسيل على لحيته: "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. اللهم إن أستهديك وأستعينك على جميع أموري وأسألك الصبر على بليتي". وبعد استشهاده فتشوا خزائنه فوجدوا فيها صندوقاً مقفلاً. ففتحوه فوجدوا فيه ورقة مكتوباً عليها، هذه وصية عثمان: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن مُحَمَّداً عبده ورسوله وأن الجنة حق. وأن الله يبعث من في القبور ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد. عليها يحيا وعليها يموت وعليها يبعث إن شاء الله"[3].

وأما الخليفة الراشد الرابع، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، فعن إسماعيل بن أبي خالد عن عامر قال: لما ضرب علي تلك الضربة. قال علي ﷺ: ما فعل ضاربي؟. قالوا: قد أخذناه. قال: أطعموه من طعامي واسقوه من شرابي فإن أنا عشت رأيت فيه رأيي، وإن أنا مت فاضربوه ضربة ولا تزيدوه عليها. ثم أوصى الحسن ﷺ أن يغسله وقال: لا تغالي في الكفن فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لاتغالوا في الكفن فإنه يسلب سلباً سريعاً،

---

[1] موسوعة ابن أبي الدنيا (451/5).

[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (ج 1، ص 61).

[3] كتاب مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي ص93.

وأوصى: امشوا بي بين المشيتين لا تسرعوا بي، ولا تبطئوا فإن كان خيراً عجلتموني إليه، وإن كان شراً ألقيتموني عن أكتافكم. [1]

وروى أنه لما كانت الليلة التي أصيب فيها على رضى الله عنه أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل، فعاد الثانية وهو كذلك، ثم عاد الثالثة فقام يمشى وهو يقول:

أشدد حيازيمك للموت... فإن الموت لا قيك

ولا تجزع من الموت... وإن حل بناديك

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه عبد الرحمن بن ملجم فضربه. [2]

ومن آثار علي بن أبي طالب ﷺ: "إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتين: اتباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى: فيصد عن الحق، وأما طول الأمل: فينسي الآخرة، ألا وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة؟، ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، ولكل واحد منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل"[3].

وكان علي ﷺ يحض على القتال ويقول: "إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من موت على فراش"[4].

أما أبو الدرداء- ﷺ - فكان يقول: "إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي: يا أبا الدرداء، قد علمت، فكيف عملت فيما علمت؟"[5]، وكان يقول ﷺ: "لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاماً على شهوة، ولا شربتم شراباً على شهوة،

---

[1] المصدر السابق، ص 93-94.

[2] المصدر السابق.

[3] موسوعة ابن أبي الدنيا (313/3)، البخاري في صحيحه (6416).

[4] رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت.

[5] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (ج1، ص 214).

ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه، ولخرجتم إلى الصعدات تضربون صدوركم، وتبكون على أنفسكم، ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل" [1].

وحين جاءه الموت ﷺ قال: "ألا رجل يعمل لمثل مصرعي هذا؟ ألا رجل يعمل لمثل يومي هذا؟ ألا رجل يعمل لمثل ساعتي هذه؟ " ثم قبض رحمه الله. [2]

ومما روي عن أبي الدرداء ﷺ أنه قال: "ما أكثر عبد ذكر الموت، إلا قل فرحه وقل حسده"[3].

وخرج أبو الدرداء ﷺ إلى جنازة، وأتى أهل بيت الميت يبكون عليه، فقال: "مساكين، موتى غدٍ يبكون على ميت اليوم" [4].

وكان أبو هريرة – ﷺ – إذا رأى أحداً يحمل جنازة يقول لها: "امضوا، فإنا على الأثر" [5]

ولما حضرته الوفاة بكى ﷺ، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: "بعد المفازة وقلة الزاد وعقبة كؤود، المهبط منها إلى الجنة أو النار" [6].

ومما أوصى به معاذ بن جبل –ﷺ– ابنه: "يا بني إذا صليت فصلّ صلاة مودّع لا تظن أنك تعود إليها أبداً، واعلم يا بني أن المؤمن يموت بين حسنتين، حسنةٍ قدَّمها، وحسنةٍ أخّرها"[7].

وهذه كلمات أخرى لمعاذ بن جبل ﷺ، لما نزل به الموت، عن عمر بن قيس عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال لما حضره الموت قال: "انظروا أصبحنا؟ قال: فأتي فقيل: لم نصبح حتى أتي في بعض ذلك فقيل له: قد أصبحت. فقال: أعوذ بالله من ليلة صباحها النار،

---

[1] الزهد لأبي داود من خبر أبي الدرداء حديث رقم 201.

[2] المختار من مناقب الأخيار، (ج2، ص295).

[3] موسوعة ابن أبي الدنيا (514/5)

[4] موسوعة ابن أبي الدنيا (578/5)

[5] إحياء علوم الدين

[6] صفة الصفوة (694/1)

[7] صفة الصفوة (231/1)

مرحباً بالموت مرحباً، زائر مُغَيَّب، حبيب جاء على فاقة، اللهم إني قد كنت أخافك، وأنا اليوم أرجوك، إنك لتعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لِكَرْي الأنهار، ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حِلَق الذِكر"[1].

وعن الحسن بن أبي الحسن البصري رحمهما الله، قال: لما حضرت معاذاً الوفاة فجعل يبكي فقيل له: أتبكي وأنت صاحب رسول الله ﷺ وأنت وأنت؟! فقال: "ما أبكي جزعاً من الموت أن حل بي ولا دنيا تركتها بعدي، ولكن إنما هما القبضتان قبضة في النار وقبضة في الجنة فلا أدري في أي القبضتين أنا". [2]

وحينما حضرت الوفاة بلال بن رباح ﷺ قالت زوجته ﷺ: "وا حزناه".. فكشف الغطاء عن وجهه وهو في سكرات الموت.. وقال: "لا تقولي واحزناه وقولي وافرحاه ثم قال: غداً نلقى الأحبة.. مُحَمَّداً وصحبه".

وفي رواية عن أم ذر ﷺ قالت: لما حضرت أبا ذر الوفاة بكيت، فقال: ما يبكيك؟ فقلت: ما لي لا أبكي، وأنت تموت بفلاة من الأرض، وليس عندى ثوب يسعك كفنا، ولا يدان لي في تغييبك؟ قال: أبشري ولا تبكي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لنفر أنا فيهم: ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المسلمين، وليس أحد من أولئك النفر إلا وقد مات في قرية وجماعة، فأنا ذلك الرجل، فوالله ما كَذَبتُ ولا كُذِبت، فأبصري الطريق، فقلت: أنَّ وقد ذهب الحاج، وتقطعت الطرق، فقال: اذهبي فتبصَّرِي. قالت: فكنت أسند إلى الكثيب أتبصر، ثم أرجع فأمرضه، فبينا أنا وهو كذلك، إذ أنا برجال على رحالهم كأنهم الرخم تخب بهم رواحلهم، قالت: فأشرت إليهم، فأسرعوا إليَّ حتى وقفوا عليَّ فقالوا: يا أمة الله؛ ما لك؟ قلت: امرؤ من المسلمين يموت تكفنونه. قالوا: ومن هو؟ قلت:

---

[1] صفة الصفوة (234/1)

[2] شعب الإيمان (502/1)

أبو ذر. قالوا: صاحب رسول الله ﷺ؟ قلت: نعم، ففدوه بآبائهم وأمهاتهم، وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه، فقال لهم: أبشروا فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لنفر أنا فيهم: ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين. وليس من أولئك النفر رجل إلا وقد هلك في جماعة، والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبت، إنه لو كان عندي ثوب يسعني كفنا لي أو لامرأتي لم أكفن إلا في ثوب هو لي أو لها، فإني أنشدكم الله أن لا يكفنني رجل منكم كان أميراً، أو عريفاً، أو بريداً، أو نقيباً، وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد قارف بعض ما قال إلا فتى من الأنصار قال: أنا يا عم، أكفنك في ردائي هذا، وفي ثوبين من عيبتي من غزل أمي. قال: أنت فكفِّنِّي، فكفَّنَه الأنصاري، وقاموا عليه، ودفنوه في نفر كلهم إيمان"[1].

وبكى سلمان الفارسي- ﷺ - عند موته، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ "عَهِدَ إلينا عَهْداً فتَرَكْنا ما عَهِدَ إلينا: أنْ يكونَ بُلْغةُ أحَدِنا مِن الدُّنيا كزادِ الرَّاكِبِ"، قال: ثُمَّ نظَرْنا فيما تَرَكَ فإذا قِيمةُ ما تَرَكَ بِضْعةٌ وعِشرونَ دِرْهماً، أو بِضْعةٌ وثَلاثون دِرْهماً[2]. وقيل: إنما كان حوله إجانة (إناء يجمع فيه الماء) وجفنة (القصعة يوضع فيها الماء والطعام) ومطهرة (إناء يتطهر فيه).

ولما حضر عبد الله بن مسعود ﷺ الموت دعا ابنه فقال: "يا عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود إني أوصيك بخمس خصال فاحفظهن عني:
أظهر اليأس للناس فإن ذلك غنى فاضل، ودع مطلب الحاجات إلى الناس فإن ذلك فقر حاضر، ودع ما تعتذر منه من الأمور ولا تعمل به، وإن إستطعت ألا يأتي عليك يوم إلا وأنت خير منك بالأمس فافعل، وإذا صليت صلاة فصل صلاة مودع كأنك لا تصلي بعدها"[3].

---

[1] زاد المعاد (3/534-535)

[2] صحيح، أخرجه ابن ماجه بنحوه، وأحمد واللفظ له.

[3] كتاب وصايا العلماء عند حضور الموت لابن زبر الربعي - وصية عبد الله بن مسعود ﷺ – ص50.

ويروى عن عمرو بن العاص ﷺ، أنه نظر يوما إلى المقبرة فنزل وصلى ركعتين؛ فقيل له: هذا شيء لم تكن تصنعه؟ فقال: "ذكرتُ أهل القبور وما حيل بينهم وبينه، فأحببت أن أتقرَّب إلى الله بهما"[1].

وعن ابن شماسة المهري قال حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار فجعل ابنه يقول يا أبتاه أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا قال فأقبل بوجهه فقال إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّدا رسول الله إني كنت على أطباق ثلاث لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم مني ولا أحب إلي أن أكون قد استمكنت منه فقتلته فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت ابسط يمينك فلأبايعك فبسط يمينه قال فقبضت يدي قال ما لك يا عمرو قال قلت أردت أن أشترط قال تشترط بماذا قلت أن يغفر لي قال أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله وما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار فإذا دفنتموني فشنوا علي التراب شناً، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي"، صحيح مسلم.

ويروى أن عمرو بن العاص ﷺ لما نزل به الموت قال له ابنه: يا أبت قد كنت تقول: إني لأعجب من رجل ينزل به الموت ومعه عقله ولسانه كيف لا يصفه؟! فقال: "يا بني الموت أعظم من أن يوصف! ولكن سأصف لك منه شيئاً، والله لكأن على كتفي جبال رضوى وتهامة، وكأني أتنفس من سم إبرة! ولكأن في جوفي شوكة عوسج، ولكأن السماء أطبقت على الأرض وأنا بينهما"[2].

---

[1] إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، (ج 10، ص: 352).

[2] تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين للسمرقندي ص14.

ولما حضر الموت بالحسن بن علي رضي الله عنهما قال: "أخرجوا فراشي إلى صحن الدار" فأخرج فقال: "اللهم إني أحتسب نفسي عندك فإني لم أصب بمثلها!"[1].

ولما حضرت أبا موسى ﷺ الوفاة، دعا فتيانه وقال لهم: اذهبوا فاحفروا لي وأعمقوا ففعلوا.. فقال: اجلسوا بي فوالذي نفسي بيده إنها لإحدى المنزلتين إما ليوسعن قبري حتى تكون كل زاوية أربعين ذراعاً وليفتحن لي باب من أبواب الجنة، فلأنظرن إلى منزلي فيها وإلى أزواجي وإلى ما أعد الله عز وجل لي فيها من النعيم، ثم لأنا أهدى إلى منزلي في الجنة مني اليوم إلى أهلي، وليصيبني من روحها وريحانها حتى أبعث. وإن كانت الأخرى ليضيقن علي قبري حتى تختلف منه أضلاعي حتى يكون أضيق من كذا وكذا، وليفتحن لي باب من أبواب جهنم فلأنظرن إلى مقعدي وإلى ما أعد الله عز وجل فيها من السلاسل والأغلال والقرناء، ثم لأنا إلى مقعدي من جهنم لأهدى مني اليوم إلى منزلي ثم ليصيبني من سمومها وحميمها حتى أبعث"[2].

وتأمل عندما انتهت غزوة أحد، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه، قال: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع، وقال لي: "إن رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله: كيف تجدك؟ " قال: فجعلت أطوف بين القتلى فأصبته وهو في آخر رمق وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم، فقلت له: يا سعد، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: "خبرني كيف تجدك؟" قال: على رسول الله السلام، وعليك السلام قل له: يا رسول الله، أجدني أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شفر يطرف، قال: وفاضت نفسه رحمه الله[3].

---

[1] تاريخ مدينة دمشق، (ج 13، ص 285).

[2] الوصايا عند المنايا وصايا الأنبياء والصحابة والصالحين، ص64.

[3] في المستدرك على الصحيحين، حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قبل أن تفيض روحه: "ما آسى من الدنيا إلا على ثلاث: ظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، وألا أكون قاتلت هذه الفئة الباغية التي حلت بنا". (1)

وقيل لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "توفي فلان الأنصاري، قال: رحمه الله، قالوا: ترك مئة ألف، قال: لكن هي لم تتركه، وكيف تتركه وهنالك كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها"[2].

وعن كعب ﷺ قال: "من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وغمومها"[3].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أنه سئل عن نفْسَين اتفق موتهما في طرفة عين، واحد في المشرق، وواحد في المغرب، كيف قدرة ملك الموت عليهما؟ قال: ما قدرة ملك الموت على أهل المشارق والمغارب، والظلمات والهواء، والبحور، إلا كرجل بين يديه مائدة، يتناول من أيها شاء"[4].

وفي سير أعلام النبلاء، قيل لأبي مسعود الأنصاري ﷺ: ماذا قال حذيفة ﷺ عند موته؟ قال: لما كان عند السحر، قال: أعوذ بالله من صباح إلى النار – ثلاثا– ثم قال: اشتروا لي ثوبين أبيضين؛ فإنهما لن يتركا علي إلا قليلا حتى أبدل بهما خيراً منهما، أو أسلبهما سلباً قبيحاً". (5)

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد (185/4).

(2) منهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين للإمام الماوردي (ج2 ص 529).

(3) موسوعة ابن أبي الدنيا (451/5).

(4) موسوعة ابن أبي الدنيا (464/5).

(5) سير أعلام النبلاء (368/2)

ولما احتضر نافع بكى: فقيل ما يبكيك؟ قال ذكرت سعداً وضغطة القبر – أي حديث عائشة ﵂ أن النبي ﷺ قال: "إن للقبر ضغطة لو كان أحد ناجياً منها نجا سعد بن معاذ"[1].

## من آثار السلف الصالح

وقال السري بن عبد الله –رحمه الله–: "لما حضرت عمر بن عبد العزيز رحمه الله الوفاة؛ قال: أجلسوني. فأجسلوه. فقال: إلهي! أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ولكن أقول: لا إله إلا الله. ثم رفع رأسه؛ فأبد النظر – أي: مد بصره – وقال: إني لأرى حضرة ما هي بإنس ولا جن. ثم قبض من ساعته. [2]

وفي رواية أخرى عند وفاة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ﵁ قال لبنيه وكان مسلمة بن عبد الملك حاضراً: يا بني إني قد تركت لكم خيراً كثيراً لا تمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأو لكم حقاً. يا بني إني قد خيرت بين أمرين إما أن تستغنوا وأدخل النار أو تفتقروا وأدخل الجنة فأرى أن تفتقروا إلى ذلك أحب إلي. قوموا عصمكم الله... قوموا رزقكم الله... قوموا عني فإني أرى خلقاً ما يزدادون إلا كثرة ما هم بجن ولا إنس".. قال مسلمة: فقمنا وتركناه وتنحينا عنه وسمعنا قائلا يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83)﴾ [القصص: 83] ثم خفت الصوت، فقمنا فدخلنا، فإذا هو ميت مغمض مسجى. [3]

ومما يروى عن عمر بن عبد العزيز أنه نظر وهو في جنازة إلى قوم قد تلثموا من الغبار والشمس، وانحازوا إلى الظل، فبكى وقال:

من كان حين تصيبُ الشمس جبهتهُ ... أو الغبار يخاف الشين والشعثا

ويألف الظل كي تبقى بشاشتهُ ... فسوف يسكن يوماً راغماً جدثاً

في قعر مظلمةٍ غبراء موحشةٍ ... يطيل في قعرها تحت الثرى اللبثا

---

[1] السير: (5/ 99).

[2] المجالسة وجواهر العلم ، حلية الأولياء، سير أعلام النبلاء.

[3] سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص: 102.

تجهـــــزي بجهـــــاز تبلغـــــين بـــــه  يا نفـس قبـل الـردى لم تخلقـي عبثـا[1]

وقـد روي عـن عمـر بـن عبـد العزيـز قولـه: ألا تـرون أنكـم تجهـزون كـل يـوم غـادياً أو رائحـاً إلى الله، وتضـــعونه في صـــدع مـــن الأرض، قـــد توســـد الـــتراب، وخلـــف الأحبـــاب، وقطـــع الأسباب.[2]

وقـال عنبسـة بـن سـعيد رحمـه الله: دخلـت علـى عمـر بـن عبـد العزيـز رحمـه الله أودعـه، فلمـا ودَّعتـه وانصـرفت ناداني: "يا عنبسـة، مـرتين، فأقبلـت عليـه. فقـال: أكثـر مـن ذكـر المـوت، فإنـك لا تكـن في واسـع مـن الأمـر إلا ضـيَّقه عليـك، ولا تكـن في ضـيق مـن الأمـر إلا وسَّـعه عليك"[3].

وعـن عبـد الله بـن المبـارك رحمـه الله: أن عمـر بـن عبـد العزيـز رحمـه الله عُـزي علـى ابنـه عبـد الملك، فقال: "إن الموت أمرٌ كنّا وطّنّا أنفسنا عليه، فلما وقع لم نستنكره"[4].

وقـال عمـر بـن عبـد العزيـز رحمـه الله قولـه: لقـد نغـص هـذا المـوت علـى أهـل الـدنيا مـا هـم فيـه مـن غضـارة الـدنيا وزهرتهـا، فبينمـا هـم فيهـا كـذلك وعلـى ذلـك، أتاهـم حـادٍ مـن المـوت فـاخترمهم ممـا هـم فيـه، فالويـل والحسـرة هنالـك لمـن لم يحـذر المـوت، ويـذكره في الرخـاء، فيقـدم لنفسه خيراً يجده بعدما يفارق الدنيا وأهلها، ثم بكى عمر حتى غلبه البكاء، فقام[5].

وقـال الحسـن البصـري رحمـه الله: "فضـح المـوت الـدنيا، فلـم يـترك لـذي لُـبٍّ فرحـاً". ويـروى أنـه حضـر يومـاً مجلسـاً جمـع شـيوخاً وشـباباً، فقـال: "معشـر الشـيوخ، مـا يصـنع بالـزرع إذا طـاب؟! فقـالوا: يحصـد! ثم التفـت فقـال: معشـر الشـباب، كـم مِـن زرع لم يَبلـغ قـد أدركتـه الآفـة

[1] كتاب لطائف المعارف لابن رجب ص 321.

[2] إحياء علوم الدين، ص (458).

[3] موسوعة ابن أبي الدنيا (132/2)

[4] موسوعة ابن أبي الدنيا (410/5)

[5] موسوعة ابن أبي الدنيا (404/5)

فأهلكته، وأتت عليه الجائحة فأتلفته؟! ثم بكى وتلا ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25)﴾ [إبراهيم: 25]"[1]، ويروى أنه عند الموت حرك يديه وقال: هذه منزلة صبر واستسلام!. [2]

وكان الحسن البصري يشيع جنازة، فأخذ بيد رفيقه قائلاً: ماذا يفعل هذا الميت إذا عاد إلى الحياة؟! فقال: يكون أفضل مما كان قبل الموت. فقال الحسن: فإنْ لم يكن هو فكن أنتَ[3].

وفي سير أعلام النبلاء، نقل عن أبي حازم رحمه الله قوله: "انظُر كل عمل كرهت الموت لأجله فاترُكه، ولا يضرُّك متى متَّ".

ومما نقل عن ذي النون المصري رحمه الله، في الزهد الكبير للبيهقي. أنه دخل عليه رجل وعنده نفرٌ من المريدين فوجده يقول لهم: "تَوَسَّدُوا الموْتَ إِذَا نِمْتُمْ، وَاجْعَلُوهُ نُصْبَ أَعْيُنِكُمْ إِذَا قُمْتُمْ، كونوا كأنكم لا حاجة لكم إلى الدنيا، ولا بُدَّ لكم من الآخرة".

ومن وصايا داود الطائي رحمه الله – في صفة الصفوة–: قال الحارث بن إدريس: قلت لداود الطائي: أوصِني، فقال: "عسكر الموت ينتظرونك".

وقال أيضا: "لو أملت أن أعيش شهراً: لرأيتُني قد أتيتُ عظيماً!، وكيف أؤمل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلق في ساعات الليل والنهار!"[4].

وكان الأعمش رحمه الله يقول: "كنا نشهد الجنائز ولا نعرف مَنْ يُعَزِّي؛ لأن الحزن قد عمَّ الناس كلهم"[5].

---

[1] إحياء علوم الدين (404/4)

[2] كتاب وصايا العلماء لابن زبر، ص 78.

[3] الكشكول لبهاء الدين العاملي (230/2).

[4] موسوعة ابن أبي الدنيا (312/3)

[5] إحياء علوم الدين (210/2).

وحين دخل المزني على الإمام الشافعي رحمهما الله، في مرضه الذي توفي فيه فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟! فقال الشافعي: أصبحت من الدنيا راحلاً وللإخوان مفارقاً ولسوء عملي ملاقياً، ولكأس المنية شارباً وعلى الله وارداً ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرما[1]

أما عبد الله بن المبارك رحمه الله، الإمام المجاهد، فحينما جاءته الوفاة اشتدت عليه سكرات الموت ثم أفاق.. ورفع الغطاء عن وجهه وابتسم قائلا: "لمثل هذا فليعمل العاملون... لا إله إلا الله."... ثم فاضت روحه. وكان قد قال لنصر مولاه قبيل وفاته: "اجعل رأسي على التراب، فبكى نصر، فقال له: ما يبكيك؟ قال: أذكر ما كنت فيه من النعيم، وأنت هو ذا تموت فقيراً غريباً. فقال له: اسكت؛ فإني سألت الله عز وجل أن يحييني حياة الأغنياء، وأن يميتني ميتة الفقراء. ثم قال له: لقني ولا تعد علي، إلا أن أتكلم بكلام ثان. [2]

وذاك العالم العابد الفضيل بن عياض رحمه الله، الشهير بعابد الحرمين، لما حضرته الوفاة، غشي عليه ثم أفاق وقال: " وا بعد سفراه... وا قلة زاداه.!..". [3]

وأما الإمام العالم مُحَمَّد بن سيرين رحمه الله، فروي أنه لما حضرته الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: "أبكي لتفريطي في الأيام الخالية وقلة عملي للجنة العالية وما ينجيني من النار الحامية"[1].

---

[1] مصافحات الإمام مسلم والنسائي.
[2] المجالسة وجواهر العلم (253/2)
[3] إحياء علوم الدين (512/4)

وقال عبد الواحد بن زيد رحمه الله: "دخلنا على عطاء السليمي وهو في الموت فنظر إلي أتنفس فقال: ما لك؟ فقلت: من أجلك، فقال: "والله لوددت أن نفسي بقيت بين لهاتي وحنجرتي تتردد إلى يوم القيامة مخافة أن تخرج إلى النار!" [2].

وقال يحيى بن آدم رحمه الله: "لما حضرت مسعرا بن كادم الوفاة، دخل عليه سفيان الثوري، فوجده جزعاً، فقال له: لم تجزع؟ فوالله لوددت أني مت الساعة، فقال مسعر: أقعدوني، فأعاد عليه سفيان الكلام، فقال: إنك إذا لواثق بعملك يا سفيان، لكني والله لكأني على شاهق جبل، لا أدري أين أهبط، فبكى سفيان فقال: أنت أخوف لله عز وجل مني"[3].

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله: "مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند الموت، قيل: وما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله"[4].

وروي عن سعيد بن جبير رحمه الله أنه قال: "لو فارقَ ذِكر الموتِ قلبي، لخِشيتُ أن يفسد عليَّ قلبي"[5].

وقال مطرّف بن الشخير رحمه الله: "إن هذا الموت قد أفسد على أهل النعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيماً لا موتَ فيه". [6] وقال أيضا: "لو علمت متى أجلي لخشيت على ذهاب عقْلي، ولكن الله منّ على عباده بالغفلة عن الموت، ولولا الغفلة ما تهنَّأوا بعيشٍ، ولا قامت بينهم الأسواق"[7].

---

[1] العاقبة في ذكر الموت، ص 131.

[2] حلية الأولياء (224/6) ، ميزان الإعتدال (78/3)

[3] حلية الأولياء (212/7)

[4] مختصر منهاج القاصدين، ص 196.

[5] السير (تهذيبه) (506/2)

[6] صفة الصفوة (159/3)

[7] صفة الصفوة (159/2)

ونظر أبو مطيع رحمه الله يوماً إلى داره، فأعجبه حسنها، فبكى ثم قال: والله لولا الموت لكنت بكِ مسروراً، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا، ثم بكى بكاءً شديداً، حتى ارتفع صوته [1].

وقال مالك بن دينار رحمه الله: "عجباً لِمَن يعلم أن الموت مَصيره، والقبر مورده، كيف تقرُّ بالدنيا عينُه؟ وكيف يطيب فيها عيشه؟ ثم يبكي"[2]. وعنه أنه قال: كنا مع الحسن رحمه الله في جنازة، فسمع رجلاً يقول لآخر: من هذا الميت؟ فقال الحسن: هذا أنا وأنت رحمك الله، أنتم محبوسون على آخرنا حتى يلحق آخرنا بأولهم [3].

وعن عون بن عبد الله رحمه الله، قال: ما أنزل الموت كُنْه منزلته من عد غداً من أجله! كم من مستقبل يوماً لا يستكمله؟! وكم من مؤمل لغدٍ لا يدركه؟! إنكم لو رأيتم الأجل ومسيره، لأغضتم الأمل وغروره!". [4]

وعن وهب بن منبه، قال: قال عيسى ابن مريم – عليه السلام –: "بحق أقول لكم كما ينظر المريض إلى طيِّب الطعام فلا يلتذ به من شدة الوجع، كذلك صاحب الدنيا لا يلتذُّ العبادة، ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا، وبحق أقول لكم: إن الدابة إذا لم تُركب وتمتهن تعصَّبت وتغيَّر خُلقها، كذلك القلوب إذا لم تُرقَّق بذكر الموت وينصبها دأب العبادة، تقسو وتغلظ" [5].

قال أبو بكر بن أبي الدنيا: "أصبت رقعة في الجنازة فيها مكتوب: وهَبْتم همكم للدنيا، وتناسيتم سرعة حلول المنايا، أما والله ليحلن بكم من الموت يوم مظلم، ينسيكم طول

---

[1] موسوعة ابن أبي الدنيا (432/5)

[2] صفة الصفوة (198/3)

[3] موسوعة ابن أبي الدنيا (578/5)

[4] موسوعة ابن أبي الدنيا (519/5)

[5] موسوعة ابن أبي الدنيا (521/5)

معاشرة النعمة، ولتندمن ولا تنفعكم الندامة، الحذر! الحذر! الحذر! قبل بُغْتان المنايا، ومجاورة أهل البلى"[1].

وقال زياد النميري رحمه الله: "لو كان لي من الموت أجل أعرف مدته، لكنت حرياً بطول الحزن والكمد حتى يأتني وقته، فكيف وأنا لا أعلم متى يأتيني الموت صباحاً أو مساءً؟" ثم خنقته عبرته فقام [2].

وعن بكر بن عبد الله المزني رحمه الله أنه لقي أبا جميلة رحمه الله فقال: يا أبا جميلة، كيف أنت؟ قال: "أنا والله كرجل ماد عنقه والسيف عليها، ينتظر متى تضربَ عنُقه!". [3]

وكان عون بن عبد الله يقول: "كم من مستقبل يوماً لا يستكمله، ومنتظر غداً لا يبلغه، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمل وغروره[4]".

ونختم هذه الرحلة لبعض آثار من سبق، بمقولة للعلامة الفذّ ابن القيم رحمه الله حيث قال: "قصر الأمل: هو من أنفع الأمور للقلب، وبناؤه على أمرين: تيقن زوال الدنيا ومفارقتها، وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها، ثم يقايس بين الأمرين، ويوثر أَولاهما بالإيثار"[5].

وإنما جعلت الوصايا والآثار لتوارثها أمانة والاتعاظ بها عملاً، وهي كثيرة مهيبة في كتب الرقائق والمواعظ.

يقول الإمام علي بن أبي طالب ﷺ في أبيات:

---

[1] موسوعة ابن أبي الدنيا (558/5)

[2] الحلية (تهذيبه) (339/2).

[3] موسوعة ابن أبي الدنيا (312/3).

[4] البيهقي: الزهد الكبير، ص227.

[5] بتصرف. مدارج السالكين (2/ 32).

النّفس تبكي على الدّنيا وقد علمت ... أن السّعادة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلّا التي كان قبل الموت بانيها
فإن بناها بخيرٍ طاب مسكنه ... وإن بناها بشرٍّ خاب بانيها
أموالنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدّهر نبنيها
أين الملوك التي كانت مسلطنةً ... حتّى سقاها بكأس الموت ساقيها
فكم مدائن في الآفاق قد بُنيت ... أمست خراباً وأفنى الموت أهليها
لا تركننّ إلى الدّنيا وما فيها ... فالموت لا شكّ يفنينا ويفنيها
لكلّ نفس وإن كانت على ... وجل من المنيّة آمال تقوّيها
المرء يبسطها والدّهر يقبضها ... والنّفس تنشرها والموت يطويها
إنّ المكارم أخلاق مُطهّرة ... الدّين أولّها والعقل ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها والجود ... خامسها والفضل سادسها
والبرّ سابعها والشّكر ثامنها ... والصّبر تاسعها واللّين باقيها
والنّفس تعلم أنّي لا أصادقها ... ولست أرشد إلا حين أعصيها
واعمل لدار غداً رضوان خازنها ... والجار أحمد والرّحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزّعفران حشيش نابت فيها
أنهارها لبنٌ محمّضٌ ومن عسل ... والخمر يجري رحيقاً في مجاريها
والطّير تجري على الأغصان عاكفةً ... تسبّحُ الله جهراً في مغانيها
من يشتري الدّار في الفردوس يعمرها ... بركعةٍ في ظلام اللّيل يحييها

*******

## الاحتضار وسكرات الموت

عن أنس – ﷺ – قال: لما ثقل النبي –ﷺ– جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة – ﷺ –: واكرب أبتاه. فقال: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»، فلما مات، قالت: يا أبتاه، أجاب ربا دعاه! يا أبتاه، جنة الفردوس مأواه! يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه! فلما دفن قالت فاطمة – ﷺ –: أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله –ﷺ– التراب؟!؛ رواه البخاري.

حين تقف عند وصف السيدة فاطمة ﷺ في لحظات أبيها الأخيرة ﷺ وهي تقول: "واكرب أبتاه"، ثم تتأمل رد النبي ﷺ عليها: " ليس على أبيك كرب بعد اليوم"، تدرك أن لحظات الموت موقف جلل لم يستثن منه حتى الأنبياء! تصف لنا كيف كان وقعه الابنة البارة ﷺ بعد دفن الحبيب ﷺ فتقول: "يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب!".

وتأمل ما أخرجه البخاري عن عائشة ﷺ: إن رسول الله ﷺ كان بين يديه ركوة – أو علبة فيها ماء، يشك عمر – فجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه، ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات» ثم نصب يده فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قبض ومالت يده.

فهذا سيد الخلق أجمعين يمر بسكرات الموت لحظة الرحيل من الدنيا، ولشدة وقع هذه المرحلة قالت عائشة ﷺ: "مات النبي ﷺ وإنه لبين حاقنتي وذاقنتي، فلا أكره شدة الموت لأحد أبداً بعد النبي ﷺ"، رواه البخاري.
قال المباركفوري في تحفة الأحوذي: ".. لما رأيت شدة وفاته علمت أن ذلك ليس من المنذرات الدالة على سوء عاقبة المتوفى وأن هون الموت وسهولته ليس من المكرمات".

وهي عائشة ﷺ التي عاشت ألم وداع والدها أبي بكر الصديق ﷺ مرة ثانية وهو في سكرات الموت فقالت:

أعاذل ما يغني الحذار عن الفتى  إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فرد عليها ﷺ ببصيرته الفذة قائلا: "ليس كذلك يا بنية، ولكن قولي ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19)﴾ [ق: 19]، ثم قال ﷺ: "انظروا ثوبي هذين فاغسلوهما، ثم كفنوني فيهما إن الحي أحوج إلى الجديد من الميت". وإنه الصدّيق يُعلّم الأجيال أهمية العمل الصالح حتى في اللحظات الأخيرة من حياته، يلقننا روعة الجود في أشد المواقف وأصعبها على النفس! ولا عجب أن كان ﷺ نعم الصاحب ونعم الرفيق لسيد الخلق أجمعين.

وذاك عمر الفاروق ﷺ يقول: "لو أن لي طِلاع الأرض ذهباً، لافتديت بها من هول المِطلَع"[1]، ومما روي عنه ﷺ أنه قال لكعب الأحبار: "حدِّثنا عن الموت"، فقال كعب ﷺ: "نعم يا أمير المؤمنين، هو كغصن كثير الشوك أُدخِل في جوف رجل، فأخذتْ كلُّ شوكة بعِرْق، ثم جذَبه رجلٌ شديدُ الجذب، فأخذ ما أخذ، وأبقى ما أبقى"[2].

وأخرج ابن أبي الدنيا عن شداد ابن أوس ـ ﷺ ـ قال: "الموت أفظع هول في الدنيا والآخرة على المؤمنين، والموت أشد من نشر بالمناشير، وقرض بالمقاريض، وغلي في القدور، ولو أن الميت نُشر فأخبر أهل الدنيا بألم الموت، ما انتفعوا بعيش، ولا لذوا بنوم"[3].

وتأمل حال الحسن البصري بعد أن دخل على مريض يَعوده "فوجده في سكرات الموت، فنظر إلى كَرْبه، وشدَّةِ ما نزَل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم،

---

[1] صحيح ابن حبان.

[2] إرشاد العباد إلى سبيل الرشاد، ص 12.

[3] الموت، ص 69.

فقالوا له: الطعام يرحمك الله! فقال: يا أهلاه، عليكم بطعامكم وشرابكم، فوالله لقد رأيتُ مصرعاً لا أزال أعمل له حتى ألقاه"[1].

وهذه كانت بعض الآثار عن سكرات الموت للاعتبار والاتعاظ. وهي حقيقة عرفها السابقون الأولون وكل حيّ، إن للموت سكرات لا مناص منها، وسكرات الموت هي "كرباته وغمراته".

## تعريف سكرات الموت

السكرات جمع سَكْرة،... والسَّكْرَانُ: خلاف الصاحي، والسُّكْرُ: نقيض الصَّحْوِ، وقولهم: ذهب بين الصحوة والسكرة إنما هو بين أن يعقل ولا يعقل.

وسكرة الموت: شدّته، وسكرة الميت غشيته التي تدل الإنسان على أنه ميّت. [2]

وسكرات الموت شدائد الموت وأهواله وكربه التي تصيب المحتضر، بسبب نزع الروح[3].

والغمرات جمع غَمْرَة، وهي الشدة، وغَمْرةُ كل شيء: مُنْهَمَكه وشدّته.

قال الطبري: "والغمرات جمع غمرة، وغمرة كل شيء كثرته ومعظمه، وأصله الشيء الذي يغمر الأشياء، فيغطيها"[4].

وغمرات الموت سكراته التي تغمر المحتضر، أي تغطي عقله وتستره، فيصاب بالغمرة والإغماء. [5]

## سكرات الموت في القرآن الكريم

نجدها في قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: 93].

---

[1] "التذكرة" للقرطبي ص12.

[2] لسان العرب (170/2، 171).

[3] أحوال المحتضر لمحمد العلي مجلة الجامعة الإسلامية العدد 124- بتصرف – ص7.

[4] تفسير الطبري (182/7، 183).

[5] النهاية في غريب الحديث والأثر) لابن الأثير، ص 678.

قال السعدي: "ولما ذم الظالمين ذكر ما أعد لهم من العقوبة حال الاحتضار، ويوم القيامة فقال: (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت) أي: شدائده وأهواله الفظيعة، وكربه الشنيعة، لرأيت أمراً هائلاً، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها، وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب...".[1]

وفي قوله تعالى ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً (18) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (19)﴾ [الأحزاب: 18-19].

وفي قوله تعالى ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (20) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ (21)﴾ [مُحَمَّد: 20-21].

قال ابن تيمية رحمه الله: "من شدة الرعب الذي في قلوبهم يشبهون المغمى عليه وقت النزع؛ فإنه يخاف ويذهل عقله، ويشخص بصره، ولا يطرف، فكذلك هؤلاء؛ لأنهم يخافون القتل". [2]

وفي قوله تعالى ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19)﴾ [ق: 19].

قال ابن تيمية: ".. (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ) أي جاءت بما بعد الموت من ثواب وعقاب، وهو الحق الذي أخبرت به الرسل، ليس مراده أنها جاءت بالحق الذي هو الموت؛ فإن هذا مشهور لم ينازع فيه، ولم يقل أحد: إن الموت باطل حتى يقال جاءت بالحق"[1].

---

[1] تفسير السعدي، ص 227.

[2] مجموع فتاوى ابن تيمية (456/28)

وفي قوله تعالى ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (87)﴾ [الواقعة: 83-87].

وقال تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً (1) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً (2)﴾ [النازعات: 1-2].

قال ابن تيمية: "وأما (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً) فهي الملائكة القابضة للأرواح، وهذا يتضمن الجزاء، وهو من أعظم المقسم عليه"[2].

وقوله تعالى ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30)﴾ [القيامة: 26-30].

دلّت هذه الآية كما ورد في التفاسير، على سكرة الموت؛ فقوله (كَلا إِذَا بَلَغَتِ أي النفس التَّرَاقِيَ) فحشرج بها عند سكرات الموت، والتراقي جمع الترقوة، وهي العظام بين ثغرة النحر والعاتق، فدل ذلك على الإشراف على الموت، (وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ) أي: قال من حضره هل من طبيب يرقيه ويداويه، فيشفيه برقيته أو دوائه، (وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ) أي أيقن الذي بلغت روحه التراقي أنه مفارق الدنيا، حيث تتابعت عليه الشدائد، فلا يخرج من كرب إلا جاءه أشد منه، واجتمع فيه الحياة والموت، والتفت ساقاه. [3]

## درجات الإحساس بسكرات الموت

سكرات الموت قدر كل حيّ قال تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: 185]، إلا أنها درجات لا يتساوى فيها المؤمن والكافر.

---

[1] مجموع فتاوى ابن تيمية (265/4).

[2] مجموع فتاوى ابن تيمية (320/13).

[3] تفسير البغوي (424/4، 425)، (تفسير الطبري) (121/29).

ولاشك أنها لدى المؤمن على شدتها أخف منها لدى الكافر، كما ورد في حديث البراء بن عازب أن الرسول ﷺ قال: «ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة (وفي رواية: المطمئنة) اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِيّ السقاء، فيأخذها... ».[1]

أما عن الكافر والفاجر فقال ﷺ: «ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب قال: فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبلول، فتقطع معها العروق والعصب ».[2]

ولأن سكرات الموت تُكفّر عن المؤمن سيئاته، وترفع درجته في الجنة فقد تشتد على الصالحين. كما ذكر ذلك ابن حجر عن حديث (لا إله إلا الله إن للموت سكرات) حيث قال: " أن شدة الموت لا تدل على نقص في المرتبة، بل هي للمؤمن إما زيادة في حسناته، وإما تكفير لسيئاته". [3]

قال القرطبي: "قال علماؤنا رحمة الله عليهم: فإذا كان هذا الأمر قد أصاب الأنبياء والمرسلين والأولياء فما لنا عن ذكره مشغولين؟ وعن الاستعداد له متخلفين؟ قالوا وما جرى على الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين من شدائد الموت وسكراته فله فائدتان:
أحدهما: أن يعرف الخلق مقدار ألم الموت وأنه باطن، وقد يطلع الإنسان على بعض الموتى فلا يرى عليه حركة ولا قلقاً، ويرى سهولة خروج روحه، فيغلب على ظنه سهولة أمر الموت ولا يعرف ما الميت فيه، فلما ذكر الأنبياء الصادقون في خبرهم شدة ألمه مع كرامتهم على الله تعالى، وتهوينه على بعضهم قطع الخلق بشدة الموت الذي يعانيه ويقاسيه الميت مطلقاً لإخبار الصادقين عنه، ما خلا الشهيد قتيل الكفار....

---

[1] رواه أبو داود وأحمد والحاكم والبيهقي وقال إسناده صحيح، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين وصحح إسناده البيهقي، وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح.

[2] نفس الحديث السابق.

[3] فتح الباري (363/11)

الثانية: ربما خطر لبعض الناس أن هؤلاء أحباب الله وأنبياؤه ورسله، فكيف يقاسون هذه الشدائد العظيمة؟ وهو سبحانه قادر أن يخفف عنهم أجمعين. فالجواب: أن (أشد الناس بلاءً في الدنيا الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) كما قال نبينا عليه السلام... فأحب الله أن يبتليهم تكميلاً لفضائلهم لديه، ورفعة لدرجاتهم عنده، وليس ذلك في حقهم نقصاً ولا عذاباً، بل هو.. كمال رفعة، مع رضاهم بجميل ما يجري الله عليهم، فأراد الحق سبحانه أن يختم لهم بهذه الشدائد، مع إمكان التخفيف والتهوين عليهم، ليرفع منازلهم، ويعظم أجورهم قبل موتهم، كما ابتلى إبراهيم بالنار، وموسى بالخوف والأسفار وعيسى بالصحارى والقفار، ونبينا ﷺ بالفقر في الدنيا ومقاتلة الكفار، كل ذلك لرفعة في أحوالهم وكمال في درجاتهم.

ولا يفهم من هذا أن الله شدد عليهم أكثر مما شدد على العصاة المخلطين؛ فإن ذلك عقوبة لهم، ومؤاخذة على إجرامهم، فلا نسبة بينه وبين هذا" [1].

## سكرات الموت بلغة الطب

أجرى الباحثون الكثير من الدراسات للحظات ما قبل الموت، بهدف معرفة شعور الإنسان خلالها والتغيرات التي تطرأ على جسده، وأظهرت الخلاصات أن إقبال الموت يرافقه تباطؤ ضربات القلب والدورة الدموية. حيث يتلقى الدماغ وأعضاء الجسم كمية أكسجين أقل مما يحتاج إليه، فتضعف الوظائف الحيوية بما فيها وظيفة التنفس.

وفي هذه اللحظات الأخيرة، التي يتجهز لها كل مؤمن فيتعلق بإحسان الظن بالله ونطق الشهادتين، يصطدم بها الكافر فيقف مذهولا أمام ما يعيشه وتجاهله طيلة حياته، يصفه الأستاذ المشارك مارك بوجي[2]، مدير ما يعرف بـ" الرعاية التلطيفية" في مستشفى سانت فينسينت في ملبورن قائلا: "نشعر بقلق شديد بشأن معنى الموت وأعتقد أن هذا مجرد جزء من التجربة الإنسانية". "بعض الناس يدفعونها بعيداً حقاً ولا يفكرون في الأمر حتى يصبح أمامهم مباشرة".

---

[1] التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (1/48- 50).

[2] What happens as we die? By Sophie Aubrey August 20, 2019 The Sydney Morning Herald

ولاشك أن حالات الموت تختلف من شخص لآخر، فهناك من يموت بشكل مفاجئ، مثل حادث أو حرب، أو بسبب سكتة قلبية أو سكتة دماغية. أو أن يموت بشكل بطيء مثل أنواع السرطان. أو حتى بشكل مطول كما في الضعف. أو يمكن أن يأتي بعد سلسلة من النوبات الخطيرة، مثل قصور القلب.

ويعتبر الأطباء المريض قد دخل في مرحلة الاحتضار أو ما يسمى "الاحتضار النشط" حين يشاهدون الأعراض المستعصية لا تتجاوب مع العلاج الطبي مثل: ضيق التنفس، وتضاءل حواس الذوق والشم وفقدان الوزن، واحتباس السوائل، والتعب، والنعاس، والهذيان، وانخفاض عام في الدم ووظائف الجسد، كل هذا يرتبط بانخفاض في مستويات الطاقة بسبب تدهور وظائف الدماغ في الجسم وعمليات التمثيل الغذائي. ومع تباطؤ الدورة الدموية، يمكن أن تبدأ درجة حرارة الجسم في التأرجح، لذلك يمكن أن يكون الشخص بارداً عند اللمس في نقطة ما ثم ساخناً في وقت لاحق. وفي الواقع من المستحيل التنبؤ بموعد وفاة شخص ما بالضبط وإن أظهر كل أعراض الموت. يقول كين هيلمان، أستاذ العناية المركزة بجامعة نيو ساوث ويلز، إنه عندما يعالج شخصاً سيموت، فإن أحد الأسئلة الأولى التي تُطرح عليها حتماً هو كم من الوقت يجب أن يعيشه الشخص. فيقول: "هذا سؤال يصعب الإجابة عليه بدقة... إنه أمر لا يمكن التنبؤ به". "حتى عندما نتوقف عن العلاج، يمكن للجسم الاعتماد على احتياطيات لم نكن نعلم بوجودها. قد يعيشون يوماً آخر، أو يومين، أو أسبوعين. كل ما نعرفه هو، على المدى الطويل، أنهم سيذهبون بالتأكيد للموت قريباً جداً"[1].

والخلاصة أن لحظات الموت يفسرها الأطباء بموت القلب بشكل كامل ثم تبدأ الأعضاء الأخرى بالتلف نتيجة عدم وصول الأوكسجين إليها، ويبدأ الدماغ بالتحلل ومن ثم تتحلل الأعضاء الأخرى وتعلن الوفاة. وقد تطول مرحلة الموت لتصل إلى أيام وأسابيع حين يقع المقبل على الموت في غيبوبة.

[1] المصدر السابق.

## وفي اللحظات الأخيرة،

يُظهر بعض المحتضرين نمط التنفس غير المنتظم المعروف باسم "شيني – ستوكس" أي أخذ نفس واحد أو عدة أنفاس تتبعها وقفة طويلة بدون تنفس على الإطلاق، ثم نفس آخر. وهو أمر لا يحدث للجميع، لكنه يحدث في الساعات الأخيرة من الحياة ويشير إلى أن الموت هو حقاً في المقدمة وفي المنتصف.

ثم التغيرات في الدورة الدموية تجعل من نبضات قلب المحتضر أكثر خفوتاً بينما يمكن أن تصبح بشرته مرقطة أو شاحبة زرقاء رمادية اللون، خاصة على الركبتين والقدمين واليدين.

كما يمكن ملاحظة المزيد من التعرق، ويمكن أن تبدأ عيون الشخص في البروز أو الظهور بمظهر لامع. ثم بالتدريج، ينجرف المحتضر إلى حالة فقدان الوعي الكاملة.

تجدر الإشارة إلى رصد زيادة الشعور بالألم في معظم الأحيان لدى المحتضر، وقد تظهر الأعراض الدالة عليه كالعبوس أو الأنين أو التشنج.

ومما سجله الباحثون أن الكثير من المرضى يظهرون رؤيتهم لأشياء أو لأشخاص خلال لحظاتهم الأخيرة، يفسره الأطباء بالهذيان والهلوسة ما قبل الموت.

ولأن توقف الدماغ التدريجي هو آخر مرحلة في الحياة، فإنه يمكن لأي شخص أن يدخل لحظة من الوضوح حيث يقول شيئاً لعائلته ومن حوله قبل أن يموت بحسب التقارير الطبية. وفي الواقع تختلف لحظات الموت من شخص لآخر، فلا يمكن حصرها في نموذج بعينه.

## علامة نموذجية على أن الموت قد حدث للتو

غالبا يعتمد المعاين للميت على عدم وجود التنفس وعلى توقف ضربات القلب، ما يشير إلى عدم وجود نشاط للدماغ. أيضا من العلامات أن تكون جفون الشخص نصف مفتوحة، وقد يكون جلده شاحباً، وقد ينفتح فمه مع ارتخاء الفك. بينما بعض الموتى يظهر عليهم التقيؤ أو إفراز أمعائهم.

## خلاصة علمية مهمة

يقول أحد المختصين في الرعاية التلطيفية: في نهاية المطاف، يتعين علينا الإقرار بأننا لا نعرف سوى القليل للغاية، عما يحدث خلال اللحظات التي يفارق فيها المرء الحياة، رغم مرور نحو خمسة آلاف عام على ظهور علم الطب. فحتى الآن، كل ما نستطيع فعله كأطباء، هو إخبارك بكيف يمكن أن يموت الإنسان غرقاً أو بسبب الإصابة بأزمة قلبية، لكننا لا نزال عاجزين عن توضيح كيفية الوفاة، جراء إصابة المرء بالسرطان أو الالتهاب الرئوي مثلا، وأفضل ما يمكننا القيام به في هذا المضمار، يتمثل في وصف ما يحدث للمتوفى في تلك الحالة لا أكثر[1].

فسبحان الله جلّ جلاله القائل ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85)﴾ [الإسراء: 85]

## من تخفف عنهم سكرات الموت؟

ذكر ذلك في فضل الشهيد، روى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم ألم القرصة» [2] ولم يختص الله غير الشهيد بهذا الفضل، لما في فداء الدين بالنفس من أجر عظيم ومرتبة سامقة. فطوبى للشهداء.

## التوبة ممكنة ما لم يغرغر

وأما التوبة فهي لا تزال ممكنة ما لم يغرغر المرء، فقد روى أحمد والترمذي وغيرهما عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »[3].

ومعنى الغرغرة بلوغ الروح الحلقوم، والوصول إلى حد لا تتصور بعده الحياة. ولذلك لا يجب على المسلم أن يكل أو يمل من مجاهدة النفس والسعي للعمل الصالح إلى آخر رمق، تحدوه آية ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: 114].

---

[1] المصدر السابق.

[2] رواه الترمذي والنسائي والدارمي وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

[3] قال الترمذي: حديث حسن غريب.

فلا تنفك هذه الآية أن تكون قاعدة نجاة ووسيلة استدراك لكل مسلم ومسلمة، لا تغيبن عن ذهن لبيب. وإنها لعلاج للتقصير في هذا الزمان وكل زمان. فـ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: 43].

وإن كان من نصيحة يؤخذ بها في هذا المقام فقول ابن رجب في لطائف المعارف: "المؤمن لا ينبغي أن يصبح ويمسي إلا على توبة، فإنه لا يدري متى يفاجئه الموت صباحا أو مساء، أو تقبض روحه على طاعه أم على معصيه. فمن أصبح أو أمسى على غير توبة، فهو على خطر، لإنه يُخشى أن يلقى الله غير تائب، فيُحشَر في زمرة الظالمين، قال الله تعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11)﴾ [الحجرات: 11]"[1].

إلى هنا نكون قد لخصنا أهم المفاهيم عن الاحتضار وسكرات الموت، وفي هذه الأثناء يحضرني الحديث عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: " إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله". فقيل كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال ﷺ: "يوفقه لعمل صالح قبل الموت"[2].
اللهم وفقنا لصالح الأعمال وارزقنا حسن الخاتمة.

*******

[1] لطائف المعارف (358)

[2] قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح..

## ما يُسنّ عند الاحتضار والموت

عندما تحل فاجعة الموت، ويذهل المرء لفقدان حبيب أو قريب يعتصره الحزن والأسى، فينشغل عن آداب الوادع! وربما خاض ببدعة وجاهلية، أو استدرجه الشيطان لما لا تحمد عقباه!

إلا أن المتمسك بهدي النبي ﷺ والمعتبر من حقيقة الموت يدرك جيداً قيمة هذه اللحظات.

نسلط الضوء فيما يلي على أهم الوصايا التي يجب على المسلم الإحاطة بها، في التعامل مع لحظات الموت الأخيرة. وإن أول ما يجب الحرص عليه في هذه اللحظات، تلقين المحتضر (لا إله إلا الله) فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله» [1]. وذلك مصداقاً لقوله ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة »، أخرجه أبو داود وأحمد والحاكم. وفي رواية: "حرمه الله على النار».

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: "احضروا موتاكم وذكروهم، فإنهم يرون ما لا ترون، ولقنوهم شهادة أن لا إله إلا الله"[2].

وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال: "إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض، ومَصعد عمله من السماء، ثم تلا: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ [الدخان: 29][3].

---

[1] أخرجه مسلم وأصحاب السنن.

[2] موسوعة ابن أبي الدنيا (305/5).

[3] موسوعة ابن أبي الدنيا (487/5).

وعن الحسن رحمه الله، قال: "إذا احتضر المؤمن، حضره خمس مئة ملك، فيقبضون روحه، فيعرجون به إلى السماء الدنيا، فتلقاهم أرواح المؤمنين الماضية، فيريدون أن يستخبروه، فتقول لهم الملائكة: ارفقوا به، فإنه خرج من كرب عظيم، ثم يستخبرونه حتى يستخبر الرجل عن أخيه، وعن صاحبه، فيقول: هو كما عهدتَ، حتى يستخبروه عن إنسان قد مات قبله، فيقول: أوما أتى عليكم؟ فيقولون: أوقد هلك؟ فيقول: إي والله، فيقولون: نراه قد ذهب به إلى أمه الهاوية، فبئست الأم، وبئست المربّية"[1].

وعن الضحاك رحمه الله في قوله: "﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: 64]، قال: يعلم أين هو قبل أن يموت"[2].

والعبرة في تلقين الشهادة للمحتضر هي إقرار القلب، حتى إن لم يستطع قولها باللسان، كما أن تحريك اللسان بها دون القلب لا فائدة فيه. قال العلماء: وينبغي أن لا يلح عليه في ذلك، ولا يقول له: قل: لا إله إلا الله، خشية أن يضجر، فيتكلم بكلام غير لائق.

ولا ينبغي للمؤمن أن يقول في هذه اللحظات إلا الحسنى، فعن أم سلمة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيراً فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون»، قالت: فلما مات أبو سلمة أتيت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله: إن أبا سلمة قد مات فقال: «قولي: اللهم اغفر لي وله واعقبني منه عقبى حسنة»، قالت فقلت: فأعقبني الله من هو خير منه: رسول الله ﷺ، أخرجه مسلم وأحمد وأصحاب السنن.

وعنها ﵂ قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر» فضج ناس من أهله، فقال: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون»"، ثم قال: «اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته

---

[1] موسوعة ابن أبي الدنيا (479/5).

[2] موسوعة ابن أبي الدنيا (494./5)

في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره، ونور له فيه»، أخرجه مسلم وأحمد وأبو داود.

ويستحب حضور الصالحين عند موت الميت للدعاء له ولمن يخلفه فيجتمع دعاؤهم وتأمين الملائكة فينتفعون به. وصدق بعض الزُّهاد حيث سئل: "ما أبلغ العظات؟ فقال: النظر إلى الأموات".

ومن أخطر ما قد يقع فيه المقبل على الموت ما قاله الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- في الجواب الكافي: "ثم أمرٌ أخوف من ذلك وأدهى وأمر، وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار، والانتقال إلى الله تعالى! فربما تعذر عليه النطق بالشهادة كما شاهد الناس كثيراً من المحتضرين ممن أصابهم ذلك". ثم ذكر -رحمه الله- صوراً لبعضهم، منها: "قيل لبعضهم: قل: لا إله إلا الله، فجعل يهذي بالغناء". وفسر ذلك ابن كثير، بأن الذنوب والمعاصي والشهوات تخذل صاحبها عند الموت، مع خذلان الشيطان له، فيجتمع عليه الخذلان مع ضعف الإيمان، فيقع في سوء الخاتمة، قال تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً (29)﴾ [الفرقان: 29].

ويستحب أن يحسن المؤمن الظن بربه؛ لما رواه مسلم عن جابر قال: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول قبل موته بثلاث ليال: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله".

وعن وائلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء»، أخرجه أحمد.

كما يستحب للميت الوصية قبل موته، والأفضل أن يكتبها قبل ذلك؛ بتقوى وخشية من الله، روى الإمامان الترمذي وأحمد -رحمهما الله تعالى- أن النبي -ﷺ- قال: «إن الرجل

ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة، ثم يحضرهما الموت، فيضاران في الوصية فتجب لهما النار».

كما يتوجب توجيه الميت إلى القبلة مضطجعاً على شقه الأيمن؛ لما رواه البيهقي والحاكم وصححه عن أبي قتادة: أن النبي -ﷺ- لما قدم المدينة، سأل عن البراء بن معرور، فقالوا: توفي، وأوصى بثلث ماله لك، وأن يوجه للقبلة لما احتضر. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «أصاب الفطرة، وقد رددت ثلث ماله على ولده».

ومن السنن في وداع الميت، تغميض عينيه إذا مات؛ لما رواه الإمام مسلم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- دخل على أبي سلمة، وقد شق بصره فأغمضه ثم قال: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر».

ومن ذلك، تسجيته صيانة له عن الانكشاف، وستراً لصورته المتغيرة عن الأعين؛ لما روى الإمام البخاري عن عائشة -رضي الله عنها-: أن النبي -ﷺ- حين توفي سُجِّي ببرد حبرة.

ويجوز تقبيل الميت؛ فقد قبل رسول الله -ﷺ- عثمان بن مظعون وهو ميت، وأكب أبو بكر على رسول الله -ﷺ- بعد موته فقبله بين عينيه وقال: "يا نبياه، يا صفياه"!

وما أن يثبت موت الميت وجب المبادرة بتجهيزه بغسله والصلاة عليه ودفنه؛ لما روى أحمد والترمذي عن علي -رضي الله عنه-: أن النبي -ﷺ- قال له: «يا علي: ثلاث لا تؤخرها: الصلاة إذا أتت، والجنازة إذا حضرت، والأيم -من لا زوج لها- إذا وجدت كفؤاً».

ومن أهم ما يكرم به الميّت، قضاء دينه؛ لما رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وحسنه، عن أبي هريرة أن النبي -ﷺ- قال: «نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه». وهذا فيمن مات وترك ما يقضي منه دينه، أما من لا مال له ومات عازماً على القضاء، فقد ثبت أن الله

تعالى يقضي عنه، ومثله من مات وله مال وكان محباً للقضاء ولم يقض من ماله ورثته، فعند البخاري من حديث أبي هريرة أن النبي -ﷺ- قال: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله».

كما يُنهى عن النياحة والصراخ على الميت؛ لأنه يعذب في قبره بذلك؛ لما روى الإمامان أحمد ومسلم -رحمهما الله تعالى- أن النبي -ﷺ- قال: «الميت يعذب في قبره بما نيح عليه». قال الشوكاني -رحمه الله-: "قال ابن المرابط: إذا علم المرء ما جاء في النهي عن النوح، وأن أهله من شأنهم أن يفعلوا ذلك ولم يعلمهم بتحريمه ولا زجرهم عن تعاطيه، فإذا عذب على ذلك عذب بفعل نفسه لا بفعل غيره"[1].

ويستحب تعجيل دفن الميت، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن عليٍّ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يا علي لا تؤخرهنَّ: الصلاة إذا أتت، والجنازة إذا حضرت، والأيم إذا وجدت كفؤاً».

وجاء في صحيح مسلم وغيره عن عقبة بن عامر ﷺ قال: "ثلاث ساعات كان رسول الله ﷺ ينهانا أن نصلي فيهنَّ، وأن نقبر فيها موتانا: حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع، وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تميل الشمس، وحين تضيف الشمس للغروب حتى تغرب".

وفي الفقه تفاصيل مهمة لغسل الميت ودفنه وفق السنة، ليس المقام لعرضها هنا، لكننا نسلط الضوء على هذه الحقيقة من باب التذكير بها والحثّ على الاعتبار منها وكيف أن الإحسان فيها مطلوب لآخر لحظة.

فعن جابر بن عبد الله ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إذا كفن أحدكم أخاه فليحسن كفنه إن استطاع»، أخرجه مسلم. ثم إن من السنة تعجيل دفن الميت لما روى البخاري ومسلم أن

[1] فتح الباري شرح صحيح البخاري الجزء 3، ص 387.

النبي ﷺ قال: «أسرعوا بالجنازة، فإن تك صالحة فخير تقدمونها عليه، وإن يكن سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم».

ولفهم هذا الحديث يكفي تدبر الحديث الذي روي عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول: «إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدموني قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها أين تذهبون بها يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعه لصعق»، أخرجه البخاري. وصعق: أي مات.

وتأمل كيف كان ينظر السلف الصالح للجنائز، قيل لسفيان بن عيينة رحمه الله: لأي شيء كان يُستحب خفض الصوت عند الجنائز؟ قال: شبهوه بالحشر إلى الله، أما سمعته يقول: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً (108)﴾ [طه: 108]. [1]

ومما وجب التنبيه عليه، ما نشاهده من إثقال كاهل أهل الميت في زماننا بتوزيع الأطعمة على المعزين، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال لأهله، لما جاء نعي جعفر بن أبي طالب يوم مؤتة، «ابعثوا لآل جعفر طعاماً، فقد أتاهم ما يشغلهم»[2] بل ذهب بعض أهل العلم لاعتبار انشغال أهل الميت بصناعة الطعام وتوزيعه على الناس من جملة النياحة، قال جرير بن عبد الله البجلي: "كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنيعة الطعام بعد دفنه من النياحة" [3].
وقال ابن قدامة- رحمه الله – في ذلك: "وجملته أنه يستحب إصلاح طعام لأهل الميت، يبعث به إليهم، إعانة لهم، وجبرا لقلوبهم؛ فإنهم ربما اشتغلوا بمصيبتهم وبمن يأتي إليهم عن إصلاح طعام لأنفسهم"[4].

---

[1] موسوعة ابن أبي الدنيا 67/6.

[2] أخرجه الإمام أحمد، وأخرجه الترمذي في كتاب الجنائز: باب ما جاء في الطعام يصنع لأهل الميت (314/3 برقم 998) وقال الترمذي حديث حسن صحيح، وهذا اللفظ له، وأخرجه أبو داود في كتاب الجنائز: باب صنعة الطعام لأهل الميت (253/3- 254 برقم 3132)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الجنائز: باب ما جاء في الطعام يبعث إلى أهل الميت (514/1 برقم 1610)، والحاكم وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في أحكام الجنائز (ص:211).

[3] صحيح، أخرجه ابن ماجه، وأحمد واللفظ له.

[4] المغني (496/3 رقم المسألة387).

لكنه أضاف موضحاً حالة الاستثناء: "وإن دعت الحاجة إلى ذلك جاز؛ فإنه ربما جاءهم من يحضر ميتهم من القرى والأماكن البعيدة، ويبيت عندهم، فلا يمكنهم أن لا يضيفوه".[1]

وعن زيد بن أسلم رحمه الله قال: "إذا بقي على المؤمن من ذنوبه شيء لم يبلغها بعمله شُدد عليه الموت، ليبلغ بسكرات الموت وشدائده درجته من الجنة، وإن الكافر إذا كان قد عمل معروفاً في الدنيا يهون عليه الموت، ليستكمل ثواب معروفه في الدنيا، ثم يصير إلى النار".[2]

فاستحضر أيها المؤمن هذه المعاني عند مشاهدة الموت ولعل عزاءك في مقام الوداع للميت ما ورد في تفسير ابن عباس لقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)﴾ [البقرة: 156-157]. قال: أخبر الله عز وجل: أن المؤمن إذا سلم لأمر الله ورجع واسترجع عند المصيبة كتب له ثلاث خصال من الخير: الصلاة من الله، والرحمة، وتحقيق سبيل الهدى"[3].

وفي هذا المقام، يأتي قول ابن مسعود ﷺ كالبسلم، حيث يقول: "إذا جاء ملَكُ الموت يَقبِضُ روحَ المؤمن، قال له: إنَّ ربَّكَ يُقْرِئُكَ السَّلام"[4].

فاللهم خاتمة المؤمنين الفائزين.

*******

[1] المغني (497/3).

[2] موسوعة ابن أبي الدنيا (450/5).

[3] تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور.

[4] جامع العلوم والحكم – ص692.

## القبر أول منازل الآخرة وبداية حياة البرزخ

لابد من التفكير في أول منازل الآخرة، ذلك القبر الصغير الموحش المظلم البارد، الذي يقبع فيه الميت وحيداً ضعيفاً لا يملك إلا ما حمله من عمل وأمل!

ولقد أدرك ذلك الصحابة ﷺ حتى المبشر منهم بالجنة، فكانت مجرد رؤية القبر تبعث في القلب الوجل، فعن هانئ بن عثمان قال: كان عثمان ﷺ إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فقيل له: تذكر الجنة والنار ولا تبكي، وتبكي من هذا؟ قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن القبر أول منازل الآخرة: فإن نجا منه أحد فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه» أخرجه ابن ماجه.

ولقد كان عمر ﷺ يدعو اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، وموتة في بلد رسولك، لما علمه من فضل المدينة وفضل الشهادة، فتاقت نفسه للجمع بينهما، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها، فإني أشفع لمن مات بها» أخرجه الترمذي.

وهكذا مع الموت يخرج العبد من دار الدنيا، إلى دار البرزخ بانتظار دار الآخرة.
والبرزخ في كلام العرب، هو: الحاجز والحد بين الشيئين، قال تعالى ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً (53)﴾ [الفرقان: 53] أي: حاجزاً.
ولذلك البرزخ هو الدار التي تعقب الموت إلى البعث. قال تعالى ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100)﴾ [المؤمنون: 100].
قال مجاهد في تفسير الطبري: "البرزخ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة".
وقال مُحَمَّد بن كعب في تفسير الطبري: "البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة، ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون، ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم بالجنة أو النار".

وقيل: البرزخ، المقابر، لا هم في الدنيا، ولا هم في الآخرة، فهم مقيمون ينتظرون: ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21)﴾ [النحل: 21][1]

وهكذا تبدأ حياة البرزخ منذ لحظة الموت.

ومن يتأمل أحاديث النبي ﷺ عن استقبال القبر لصاحبه يحسب ألف حساب لتلك اللحظات العظيمة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن للقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ» أخرجه أحمد. في إشارة إلى ضمة القبر.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال في سعد بن معاذ: "هذا الذي تحرك له عرش الرحمن وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة لقد ضُم ضمة ثم فرج عنه" أخرجه النسائي.

ولا يخفى على مؤمن ضرورة تنبيه أهله وأحبته على اتباع السنة عند موته، فينهاهم عن النواح عليه، فقد قال الإمام البخاري رحمه الله: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته لقول الله تعالى ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾ [التحريم: 6]، وقال النبي ﷺ: «كلكم راع ومسؤول عن رعيته»، متفق عليه.

فإذا لم يكن من سنته، فهو كما قالت عائشة رضي الله عنها: "لا تزر وازرة وزر أخرى. وهو كقوله ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ [فاطر: 18]. ومعنى من سنته: أي من عادته كأن يوصي بالبكاء عليه، أو يعلم بأن أهله سيبكون عليه ولا ينهاهم.

[1] تفسير القرآن العظيم (494/5).

وعن ابن أبي موسى قال: أغمي على أبي موسى وأقبلت امرأته تصيح برنة، قال ثم أفاق، قال: ألم تعلمي – وكان يحدثها – أن رسول الله ﷺ قال: «أنا بريء ممن حلق وسلق وخرق»، أخرجه مسلم.
ومن يحسب حساب قبره لابد أن يعظ أهله.

ثم إن لحظات الدفن تبعث بكل هذه المعاني لقلب المؤمن ليزداد خشية وتبتلاً، فيستدرك نفسه ويدعو لمن ودّع عند القبر.

ومما ورد من أحاديث عن القبر، عذابه، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « العبد إذا وضع في قبره، وتولى وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان، فأقعداه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم؟ فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة، قال النبي ﷺ: فيراهما جميعا»[1]

قال قتادة: وذُكر لنا أنه يفسح له في قبره أربعون ذراعاً. قال مسلم سبعون ذراعاً. ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون. ثم رجع إلى حديث أنس قال: «وأما الكافر – أو المنافق – فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين» أخرجه البخاري.
معنى ولا تليت (الأصل ولا تلوت) أي: لم تدر، ولم تتل القرآن.

ولذلك جاء في الدعاء بعد التشهد الأخير قبل السلام في الصلاة: "اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب جهنم ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال".

فأنت تردده كل يوم في كل صلاة، لتنجو بإذن الله من هذا العذاب في القبر.

[1] السنن الكبرى للبيهقي، حديث ثابت، وروي من وجه آخر في صحيح البخاري.

عن أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال» أخرجه البخاري.

وروي عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: "إن الميت يصير إلى القبر فيجلس الرجل الصالح في قبره غير فزع ولا مشغوف، ثم يقال له: فيم كنت؟ فيقول: كنت في الإسلام! فيقال: ما هذا الرجل؟ فيقول: مُحَمَّد رسول الله، جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه. فيقال له: هل رأيت الله؟ فيقول: لا، ما ينبغي لأحد أن يرى الله! فيفرج له فرجة قبل النار فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً، فيقال له: انظر إلى ما وقاك الله، ثم يفرج له فرجة قبل الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك. ويقال له: على اليقين كنت، وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء الله تعالى. ويُجلس الرجل السوء في قبره فزعاً مرعوباً فيقال له: فيم كنت؟ فيقول: لا أدري، فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: سمعت الناس يقولون قولاً فقلته، فيفرج له فرجة قبل الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيه. فيقال له: انظر إلى ما صرفه الله عنك، ثم يفرج له فرجة قبل النار فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً، فيقال: هذا مقعدك، على الشك كنت، وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء الله تعالى". أخرجه ابن ماجه.

ومن يتدبر حديث البراء عن أحوال الموتى لابد أن يعمل لتلك المرحلة، فعن البراء بن عازب ﷺ قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ مستقبل القبلة، وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير وفي يده عود ينكت في الأرض، فجعل ينظر إلى السماء وينظر إلى الأرض وجعل يرفع بصره ويخفضه ثلاثاً، فقال: "استعيذوا بالله من عذاب القبر" مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: "اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثاً"، ثم قال: "إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس ومعهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة – وفي رواية المطمئنة – اخرجي إلى

مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء، فيأخذها – وفي رواية: حتى إذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يعرج بروحه من قبلهم – فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط – فذلك قوله تعالى ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (61)﴾ [الأنعام: 61] ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون – يعني – بها على ملك من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (19) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (20) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (21)﴾ [المطففين: 19-21] فيكتب كتابه في عليين، ثم يقال: أعيدوه إلى الأرض فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فيرد إلى الأرض وتعاد روحه في جسده، قال: فإنه يسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه مدبرين فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه فيقولان له من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما أعلمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينتهره فيقول: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن، فذلك حين يقول الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [إبراهيم: 27]، فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبي مُحَمَّد ﷺ. فينادي مناد في السماء، أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره، قال: ويأتيه – وفي رواية: يمثل له – رجل حسن الوجه حسن الثياب، طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك أبشر برضوان من الله، وجنات فيها نعيم مقيم هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول له: وأنت فبشرك الله بخير، من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فو الله ما علمتك إلا

كنت سريعاً في إطاعة الله، بطيئاً في معصية الله، فجزاك الله خيراً ثم يفتح له باب من الجنة وباب من النار فيقال: هذا منزلك لو عصيت الله، أبدلك الله به هذا! فإذا رأى ما في الجنة قال: رب عجل قيام الساعة، كيما أرجع إلى أهلي ومالي، فيقال له: اسكن.

قال: وإن العبد الكافر – وفي رواية الفاجر – إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة غلاظ شداد، سود الوجوه، معهم المسوح من النار، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود – الكثير الشعب – من الصوف المبلول فتقطع معها العروق والعصب، فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء، وتغلق أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن لا تعرج روحه من قبلهم»، فيأخذها، فإذا أخذها، لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40]. فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، ثم يقال: أعيدوا عبدي إلى الأرض فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى – فتطرح روحه من السماء طرحاً حتى تقع في جسده ثم قرأ ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31)﴾ [الحج: 31] فتعاد روحه في جسده قال: فإنه يسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه.

ويأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه فيقولان له من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فلا يهتدي لاسمه، فيقال: مُحَمَّد! فيقول: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون ذاك! فيقال: لا دريت ولا تلوت، فينادي مناد من السماء أن كذب، فأفرشوا له من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف

فيه أضلاعه ويأتيه – وفي رواية: ويمثل له – رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: وأنت فبشرك الله بالشر، من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث. فو الله ما علمت إلا كنت بطيئاً عن طاعة الله، سريعاً إلى معصية الله، فجزاك الله شراً ثم يقيض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة لو ضرب بها جبلاً كان تراباً، فيضربه ضربة حتى يصير بها تراباً ثم يعيده الله كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين ثم يفتح له باب من النار ويمهد من فرش النار فيقول رب لا تقم الساعة»[1].

وذكرت لنا الأحاديث أسباب عذاب القبر لنحذر منها ونتعظ، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «أكثر عذاب القبر من البول»، أخرجه ابن أبي شيبة، **و**عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي ﷺ على قبرين فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير وإنه لكبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله»، أخرجه البخاري ومسلم.

ومن المعذبين في البرزخ قارون، فإن النبي ﷺ أخبرنا قال: «بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء، خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»، رواه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري.

وينال عذاب القبر كل مستحق له سواء أقبر أم لم يقبر فحتى إن أكلته السباع أو أحرق حتى صار رماداً نسف في الهواء أوصُلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى القبور. [2]

---

[1] الحديث بطوله أخرجه أبو داود والحاكم والطيالسي والآجري وأحمد والسياق له.

[2] المختصر الصحيح عن الموت والقبر والحشر جمع وترتيب عبد الكريم محمد نجيب

كما ذكرت لنا الأحاديث السبيل للنجاة من عذاب القبر، وبالاستناد إليها ينجو من هذا العذاب خمسة من الناس وهم: المرابط، والشهيد، والذي يقرأ سورة الملك كل ليلة، والذي يموت بمرض البطن كالإسهال ونحوه، والذي يموت يوم أو ليلة الجمعة.

فقد ورد عنه ﷺ؛ أنه قال: «كلُّ ميتٍ يُختَم على عمله، إلاَّ الذي مات مُرابِطًا في سبيل الله، فإنه يُنمَى له عملُه إلى يوم القيامة، ويأمَن فتنةَ القبر»؛ أخرجه الترمذي وأبو داود.

وعن المقدام بن معديكرب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لِلشهيدِ عند الله ستُّ خصال: يغفر له في أوَّل دفعة مِن دمه، ويرى مقعده مِن الجَنَّة، ويُجَار مِن عذاب القبر، ويأمن مِن الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاجُ الوقار؛ الياقوتة منه خيرٌ مِن الدنيا وما فيها، ويُزَوَّج اثنتين وسبعين زوجة مِن الحور العين، ويشفع في سبعين مِن أقاربه»؛ أخرجه الترمذي.

وعن ابن عباس ﷺ قال: ضَرَبَ رجلٌ مِن أصحاب رسول الله ﷺ خباءه على قبرٍ وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا بقبر إنسانٍ يَقرأ سورة المُلْك حتى ختمها، فأتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ضربتُ خبائي على قبرٍ وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة المُلْك حتى ختمها، فقال النبي ﷺ: «هي المانعة، هي المنجية؛ تنجيه من عذاب القبر»؛ أخرجه الترمذي.

ثم ما رواه الإمام أحمد وغيره؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ما مِن مسلمٍ يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه اللهُ تعالى فتنة القبر»[1]؛

وما أخبر به مُحَمَّد بن عبد الأعلى قال: حدثنا خالد، عن شعبة، قال: أخبرني جامِع بن شداد، قال: سمعتُ عبد الله بن يسار قال: "كنتُ جالسًا وسليمان بن صُرَد وخالد بن عُرْفُطَة، فذكروا أن رجلًا تُوفِّي مات ببطنه، فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهداء جنازته، فقال

[1] قال الألباني: حسن، انظر حديث رقم: 5773 في "صحيح الجامع".

أحدهما للآخر: ألم يقُل رسولُ الله ﷺ: «مَن يقتله بطنُه فلن يُعذَّب في قبره»، فقال الآخَر: بلى"؛ قال الألباني: صحيح.

ومما علم النبي ﷺ أمته أن يقولوا: «سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية»، أخرجه مسلم والنسائي. ذلك أن الموتى يسمعون حديث الأحياء لكنهم لا يستطيعون الرد عليهم.

ولقد نهى النبي تخصيص القبور ببناء وهو مما ابتدع فيه الناس كثيراً في زماننا، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه» أخرجه مسلم.

فالقبور منازل الآخرة، وزينتها عمل الميت في الدنيا لا المباهاة بالبناء عليها.

ولقد أدرك ذلك السلف الصالح، قال يزيد الرقاشي رحمه الله: "بلغني أن الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله، فأنطقها الله تعالى، فقالت: أيها العبد المنفرد في حفرته! انقطع عنك الأخلاء والأهلون، فلا أنيس لك اليوم غيرنا، ثم يبكي، ويقول: طوبى لمن كان أنيسه صالحاً، طوبى لمن كان أنيسه صالحاً، والويل لمن كان أنيسه وبالاً"[1].

وعن مُحَمَّد بن كعب القرظي قال: "أتيت عمر بن عبد العزيز رحمه الله وهو خليفة، فلما دخلت عليه أدمت النظر إليه، فقال: إنك لتنظر إلي نظراً ما كنت تنظره إلي بالمدينة–لما كان والياً عليها– قلت: أجل يا أمير المؤمنين، أعجبني ما كَلَّ من جسمك، وتغير من لونك، ورث من شعرك، فقال: كيف لو رأيتني بعد ثلاث في القبر، وقد سقطت حدقتي على وجنتي، وخرج الصديد والدود من منخري وفمي، كنت أشد لي نكرة". [2]

---

[1] موسوعة ابن أبي الدنيا (476/5).

[2] موسوعة ابن أبي الدنيا (80/6).

وعن الحسن رحمه الله قال: "يومان وليليتان لم تسمع الخلائق بمثلهن قط، ليلة تبيت مع أهل القبور لم تبت قبلها، وليلة صبيحتها يوم القيامة، ويوما يأتيك البشير من الله إما بالجنة وإما بالنار، ويوما تُعطى كتابك إما بيمينك وإما بشمالك". [1]

وقال بشر بن الحارث رحمه الله: "نعم المنزل القبر لمن أطاع الله". [2]

قال مسروق: "ما من بيت خير للمؤمن من لحد قد استراح فيه من هموم الدنيا، وأمِنَ من عذاب الله"[3].

قال ابن تيمية: "الميت يسمع كلام زائره في الجملة، وتُعاد روحه إلى البدن في ذلك الوقت، ولا يجب أن يكون السمع له دائما، بل قد يسمع في حال دون حال، كما قد يعرض للحي"[4].

وقال ابن القيم: "تواترت الآثار عن السلف بأن الميت يعرف بزيارة الحيِّ له ويستبشر به، وهم مُجمعون على هذا". [5]

وقال أيضا: "من أعظم الفقه: أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى"[6].

---

[1] موسوعة ابن أبي الدنيا (81/6).

[2] موسوعة ابن أبي الدنيا (87/6).

[3] موسوعة ابن أبي الدنيا (551/4).

(4) مجموع الفتاوى.

(5) الروح

[6] الجواب الكافي ص167.

إلى هنا نكون قد أحطنا علماً بما ينتظرنا في القبر، رجاء أن يبعث على العمل والجد، ولنتأمل قول الحافظ عبد الحق الإشبيلي وهو من أهل الحديث حيث قال في الموت:

إن في المـــــوت والمعـــــاد لشـــــغلا وادكـــــارا لـــــذي النهـــــى وبلاغـــــا

فـــــاغتنم خطتـــــين قبـــــل المنـــــايا صـــــحة الجســـــم يا أخـــــي والفراغـــــا

*******

## أمنية رسول الله ﷺ

لابد أن يقف المؤمن بإجلال أمام أمنية النبي ﷺ، أمنية رددها ثلاث مرات لتعي القلوب أهميتها وعظيم فضلها. فلم تكن أمنية خير الأنام شيئاً من زخرف الدنيا ونعيمها، ولا من أماني الخلود والحياة، إنما تمنى ما يخشاه الناس ويهابونه ويجبنون منه، إنه الموت في سبيل الله، قال ﷺ: «والذي نفس مُحَمَّد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس مُحَمَّد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل». رواه البخاري ومسلم.

وذلك لما في القتل في سبيل الله من صدق بالغ ومرتبة سامقة فريدة يجدر بالمؤمنين التسابق عليها.

ولنا أن نتأمل كيف تسابق الصحابة في ذلك، فدانت لهم الأرض طوعا أو كراهية!

قال ابن القيم رحمه الله في كتاب الفروسية: "جمع الصحابة رضي الله عنهم إلى فروسية الخيل، فروسية الإيمان واليقين والتنافس في الشهادة وبذل نفوسهم في محبة الله ومرضاته فلم تصمد أمامهم أمة من الأمم، ولم يحاربوا أمة إلا قهروها".

وكيف لا يكون الموت في سبيل الله أسمى أماني الجيل المتفرد، وقد بشرهم النبي ﷺ بعظيم الفضل الذي ينتظرهم، ففي معركة أُحد لما قُتل عبد الله بن عمرو بن حرام قال رسول الله ﷺ: «يا جابر ألا أخبرك ما قال الله عز وجل لأبيك؟" قلت: بلى. قال: «ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وكلّم أباك كفاحاً، فقال: يا عبدي تمنّ عليّ أعطك. قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية! قال: إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون. قال: يا رب فأبلغ من ورائي، فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169)﴾ [آل عمران: 169]». رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه.

وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ فقال: « لما أصيب إخوانكم بأُحد جعل الله عز وجل أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن منقلبهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون بما صنع الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب. فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات على رسوله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169)﴾ [آل عمران: 169]». رواه الإمام أحمد وأبو داود.

وينسب للخليفة الراشد أبي بكر الصديق ﷺ قوله لخالد بن الوليد ﷺ: "احرص على الموت توهب لك الحياة".

ثم دعونا نطلع على هذا الفضل الذي تسابق له السابقون الأولون، فإن للشهيد فضائل كثيرة، منها: ما صح عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله سبع خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويشفع في سبعين إنساناً من أهل بيته». رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يجد الشهيد من مس القتل، إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة ». قال الألباني: حسن صحيح.

قال ابن القيم رحمه الله: "لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصة، فليس في قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبنى آدم؛ فمن عد مصيبة هذا القتل أعظم من مصيبة الموت على الفراش: فهو جاهل، بل موت الشهيد من أيسر الميتات، وأفضلها وأعلاها"[1].

[1] إغاثة اللهفان (2/ 194)

وقال المناوي رحمه الله: "يعني أنه تعالى يهون عليه الموت ويكفيه سكراته وكربه، بل رب شهيد يتلذذ ببذل نفسه في سبيل الله طيبة بها نفسه؛ كقول خبيب الأنصاري حين قتل:

ولست أبالي حين أقتل مسلما  علي أي شق كان لله مصرعي". [1]

وقال أيضا: "وهذه تسلية لهم عن هذا الحادث العظيم والخطب الجسيم، وتهييج الصبر على وقع السيوف واقتحام الحتوف". [2]

وقال ابن علان رحمه الله: "ما يجد الشهيد من مس القتل وألمه إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة، أي: قرصة نحو النملة من كل مؤلم ألماً خفيفاً، سريع الانقضاء لا يعقب علة، ولا سقماً. قال العاقولي: القرص الأخذ بأطراف الأصابع، وأدخل عليها أداة الحصر؛ دفعاً لما يتوهم أن ألمه أعظم من ألمها"[3].

فهل بعد وصف هذا الفضل من وصف! وهل يخشى مقبل على الموت وهو يحمل الشوق لهذه الخاتمة! فحتى عذاب القبر ينجو منه الشهيد، وقد سُئل رسول الله ﷺ: ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة ». رواه النسائي.

ولأنه امتحان صدق سبيله الجهاد في سبيل الله ذكره القرآن في آيات عديدة، قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15)﴾ [الحجرات: 15]. وشهد الله تعالى للأنصار والمهاجرين

---

[1] فيض القدير (4/ 182)

[2] فيض القدير (4/ 182) .

[3] دليل الفالحين (7/ 124)

بصدق الإيمان قال سبحانه ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (74)﴾ [الأنفال: 74].

وتأمل كيف ربط النبي ﷺ التخلف عن الجهاد بالنفاق فقال: «من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من نفاق » رواه مسلم. مجرد الحديث عنه ينجيك من النفاق!

ومن رحمة الله أن جعل الشهادة في سبيله ترتبط بصدق الطلب وإن تعذر السعي إليه، فعن سهل بن حنيف ﷺ أن النبي ﷺ قال: «من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه» أخرجه مسلم، وعن أنس بن مالك رضي الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من طلب الشهادة صادقاً أُعطيها، وإن لم تصبه» أخرجه مسلم.

ولأن الموت مصير محتوم لا يستثنى منه مخلوق، كان ضرورياً استذكاره والاستعداد له قال ابن مسعود ﷺ: "ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله"[1]. ولا مفر من قدر الله ولا بد من المسابقة لنيل رضا الله سبحانه، قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)﴾ [الجمعة: 8].

ولذلك كان الموت رفيق مجالس السلف الصالح، فقد سئل الحسن البصري رحمه الله: "يا أبا سعيد! كيف نصنع؟ نجالس أقواماً يخوفونا حتى تكاد قلوبنا تطير، فقال: والله إن تخالط أقواماً يخوفونك حتى يدركك أمن خيرٌ من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى يدركك الخوف"[2]، وقال رحمه الله: "كان من كان قبلكم يقربون هذا الأمر.. كان أحدهم يأخذ ماءً لوضوئه، ثم يتنحى لحاجته مخافة أن يأتيه أمر الله وهو على غير طهارة، فإذا فرغ من حاجته توضأ"[3].

---

[1] صحيح، أخرجه وكيع في الزهد (ص311) ومن طريقه أحمد بن حنبل في الزهد (ص128).

[2] إحياء علوم الدين، الجزء 4، ص162.

[3] كتاب الزهد لابن المبارك.

ولكن هذا التذكير الذي يبعث الخوف في القلوب والخشية، يقابله تذكير يبعث للمسابقة بشوق للقاء الله جل في علاه، إنه لقاء الشهيد بربه سبحانه. وشتان بين المقامين.

**أنواع الشهداء**

والشهيد على ثلاثة أقسام:

الأول: شهيد الدنيا والآخرة.

والثاني: شهيد الدنيا.

والثالث: شهيد الآخرة.

**أما شهيد الدنيا والآخرة** فهو الذي يقتل في قتال مع الكفار مقبلاً غير مدبر لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، دون غرض من أغراض الدنيا. وهو قمة مراتب الشهادة، ولا يمكن لأي نوع آخر من الشهداء أن يصل إلى هذا المقام ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (171)﴾ [آل عمران: 169-171].

ويدخل في ذلك الموت غازياً ومهاجراً في سبيل الله؛ لقوله ﷺ: «ما تعدون الشهيد فيكم؟» قالوا: يا رسول الله! من قتل في سبيل الله فهو شهيد»، قال: «إن شهداء أمتي إذن لقليل، قالوا: فمن هم يا رسول الله؟ قال: «من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد »[1] (الحديث)[2]. قال تعالى ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

[1] صحيح مسلم.

[2] الحديث في صحيح مسلم (ما تعدون الشهيد فيكم؟ قالوا: يا رسول الله، من قتل في سبيل الله فهو شهيد، قال: إن شهداء أمتي إذن لقليل، قالوا: فمن هم يا رسول الله؟ قال: من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات في البطن فهو شهيد. قال ابن مقسم: أشهد على أبيك في هذا الحديث أنه قال: والغريق شهيد. وفي رواية: قال عبيد الله بن مقسم: أشهد على أخيك أنه زاد في هذا الحديث: ومن غرق فهو شهيد).

يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (100)﴾ [النساء: 100].

والموت في الرباط في سبيل الله من أعظم الميتات وأطيبها، قال ﷺ: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتان» رواه مسلم.

**أما شهيد الدنيا** فهو من قتل في قتال مع الكفار وقد غل في الغنيمة، أو قاتل رياء، أو عصبية عن قومه، أو لأي غرض من أغراض الدنيا، ولم يكن قصده إعلاء كلمة الله، فهذا وإن طبقت عليه أحكام الشهيد في الظاهر من دفنه في ثيابه ونحو ذلك لكنه ليس له في الآخرة من خلاق، ونحن نعامل الناس على حسب الظاهر في الدنيا، والله الذي يعلم الحقائق هو الذي يتولى حسابهم يوم القيامة [1].

**وأما شهيد الآخرة** الذي يكون له أجر شهيد في الآخرة لكنه في الدنيا يطبق عليه ما يطبق على الميت العادي، فهذه أصناف منهم المقتول ظلماً من غير قتال، وكالميت بأنواع من الأمراض ونحو ذلك، وكالغريق في البحر الذي ركبه وكان الغالب فيه السلامة بخلاف من ركبه وكان الغالب عدم السلامة أو ركبه لإتيان معصية من المعاصي ونحو ذلك[2].

ويدخل في ذلك الموت بالطاعون، قال ﷺ: «الطاعون شهادة لكل مسلم»، صحيح البخاري، وقال أيضاً لما سئل عن الطاعون: «إنه كان عذاباً يبعثه الله على من يشاء، فجعله الله رحمة للمؤمنين، فليس من عبد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابراً يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد» صحيح البخاري، وفي المسند من حديث عتبة بن عبد السلمي عن النبي ﷺ قال: «يأتي الشهداء والمتوفون بالطاعون فيقول

---

[1] أنواع الشهداء للشيخ محمد صالح المنجد.

[2] المصدر السابق.

أصحاب الطاعون: نحن شهداء، فيقال: انظروا فإن كانت جراحهم كجراح الشهداء تسيل دماً ريح المسك فهم شهداء، فيجدونهم كذلك».

وكذلك من أنواع شهداء الآخرة: من مات بداء البطن؛ لقوله ﷺ: «إن شهداء أمتي إذن لقليل»، ثم ذكر أنواعاً، «ومن مات في البطن فهو شهيد»، وفي صحيح النسائي، عن عبد الله بن يسار قال: كنت جالساً وسليمان بن صرد وخالد بن عرفطة، فذكروا: أن رجلاً توفي مات ببطنه، فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهداء جنازته، فقال أحدهما للآخر: ألم يقل رسول الله ﷺ: من يقتله بطنه فلن يعذب في قبره؟ فقال الآخر: بلى، وفي رواية: "صدقت..".

وأمراض البطن كثيرة ومنها الكوليرا.

ويدخل في ذلك الموت بالغرق والهدم؛ كما في الحديث، والغرق الذي مات غريقاً، وصاحب الهدم الذي انهدم عليه بيته، أي انهدم السكن الذي يسكن فيه، أو وقع عليه جدار أو حائط، وكثير من الذين يموتون في الزلازل كذلك، والميت بالهدم شهيد بإذن الله.

ومن أنواع شهداء الآخرة: موت المرأة في نفاسها بسبب ولدها؛ فقد أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عُبادة بن الصامت - رضي الله عنه -: أن رسول الله -ﷺ- عاد عبدَ الله بنَ رواحة، قال: فما تحوَّز له (يعني: فما تنحى) عن فراشه، فقال: «أتدري مَن شهداء أُمَّتي؟» قالوا: قتل المسلم شهادة، قال: «إن شهداء أُمَّتي إذاً لقليل، قَتل المسلم شهادة، والطاعون شهادة، والمرأة يَقتلها وَلدُها جَمْعاءَ (وهي التى ماتت في حملها) شَهادةٌ، يجرُّها ولدُها بسُرَرِه (يعني: بحبل المشيمة أو الحبل السري الذي يُقْطَع منه إلى الجَنَّة)». ولا يدخل في ذلك الزانية التي ماتت بحملها.

وكذلك من شهداء الآخرة: الموت بذات الجنب، كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: «وصاحب ذات الجنب شهيد» وهو ورم في الجانب يموت بسببه الإنسان، ولعل من يموت

بمرض السرطان أن يكون من شهداء الآخرة الذين لهم أجر شهيد بحسب هذا الحديث والله أعلم.

وكذلك من أنواع شهداء الآخرة: الموت بداء السل، لقوله ﷺ: «القتل في سبيل الله شهادة، والنفساء شهادة» قال في الحديث: «والسل شهادة، والبطن شهادة»، فالذي يموت بالسل إذن شهيد إن شاء الله.

وكذلك الموت في سبيل الدفاع عن المال المراد غصبه، قال ﷺ في الحديث الصحيح: «من قتل دون ماله فهو شهيد»، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي، قال: «فلا تعطه مالك»، قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: «قاتله»[1] قال: أرأيت إن قتلني، قال: «فأنت شهيد»، قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: «هو في النار». رواه مسلم.

وعن مخارق قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يأتيني فيريد مالي؟ قال: «ذكره بالله قال: فإن لم يذكر؟ قال: «فاستعن عليه من حولك من المسلمين»، قال: فإن لم يكن حولي أحد من المسلمين، قال: «فاستعن عليه السلطان» قال: فإن نأى السلطان عني وعجل علي؟ (أي لم يكن وقت للاستنجاد)، قال: «قاتل دون مالك حتى تكون من شهداء الآخرة أو تمنع مالك». صحيح النسائي.

ومن الشهداء أيضاً: الموت في سبيل الدفاع عن الدين والنفس، قال ﷺ: « من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد»، أي الذي يقتل دفاعاً عن ماله أو دفاعا عن عرضه فهو شهيد، ومن قتل لأجل دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، وعن سويد بن مقرن رضي الله عنه،

[1] وليس الأمر للوجوب.

قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل دون مظلمته فهو شهيد» رواه النسائي، وقال الله عليه وسلم قال: «ما من مسلم يظلم بمظلمة فيقاتل فيقتل إلا قتل شهيداً» رواه أحمد.

وإن من أعظم أنواع الشهادة أيضاً: الموت بالحرق، لقوله ﷺ: «الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله»، وقال: «والحرق شهيد» فموت المسلم حرقا نحسبه من أنواع الشهداء.

وأما من مات على عمل صالح قبض عليه فإنه من علامات حسن خاتمته، قال ﷺ: «من قال لا إله إلا الله ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة، ومن صام يوماً ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة، ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة »[1]

مع التنبيه إلى أن الأحاديث قطعاً في حق المسلم، والمسلمون فيهم الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات، والله أعلم بمن يموت شهيداً، ولا يدخل في ذلك الكافر والمشرك كما يفعل بعض الجهلة من عبيد الوطنية والقومية.

## أحكام الشهداء

للشهيد أحكام تختلف عن بقية الموتى، قال العلماء: لا يغسل الشهيد، -الذي قتل في معركة مع الكفار- سواء كان مكلفاً أو غير مكلف إلا إن كان جنباً أو امرأة حائضاً أو نفساء طهرت من حيضها أو نفاسها. أما إن سقط من دابته، أو وجد ميتاً، أو سقط من شاهق في القتال، أو رفسته دابة في القتال، أو عاد إليه سهمه الذي أطلقه بالخطأ، فالصحيح أنه يغسل إذا لم يكن ذلك من فعل العدو، لكن إن قتله العدو فلا يغسل ويبقى أثر الشهادة عليه[2].

[1] في مسند أحمد صحيح لغيره، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

[2] أنواع الشهداء للشيخ محمد صالح المنجد.

كذلك من قتل مظلوماً بأي سلاح قتل كقتيل اللصوص ونحوه يلحق بشهيد المعركة في أصح الروايتين في مذهب الإمام أحمد رحمه الله، وقال بعض العلماء بتغسيله، وكذلك الغريق والمبطون والمرأة التي ماتت في الولادة فإنهم شهداء في الآخرة يغسلون باتفاق الفقهاء[1].

وأما الميت المحترق فقد ذهب العلماء إلى أن من احترق بالنار يغسل كغيره من الموتى إن أمكن تغسيله؛ لأن الذي لا يغسل إنما هو شهيد المعركة ولو قتل في المعركة محترقاً أو أحرق العدو حصناً للمسلمين ونحو ذلك كان شهيداً لا يغسل، أما المحترق خارج المعركة فهو من شهداء الآخرة لا تجري عليه أحكام شهداء الدنيا فإنه يغسل، فإن خيف تقطعه بالغسل يصب عليه الماء صباً ولا يمس، فإن خيف تقطعه بصب الماء لم يغسل ولكن ييمم إن أمكن كالحي الذي يؤذيه الماء، وإن تعذر غسل بعضه دون بعض غسل ما أمكن غسله ويييمم الباقي كالحي سواء، ويصلى على المحترق صلاة الجنازة؛ لأنه لا وجه لترك الصلاة عليه فإنه يصلى عليه ولو صار رماداً يجمع رماده ويصلى عليه، وقال بعض أهل العلم بعدم الصلاة عليه واشترطوا حضوره أو حضور أكثره فإنه إذا صار رماداً لا يصلى عليه، ومذهب الإمام أحمد رحمه الله الصلاة عليه وإن صار رماداً. [2]

أي أن الذي يموت محترقاً له أجر شهيد، ويغسل إن أمكن وإلا ييمم ويصلى عليه.

## أجساد الأنبياء والشهداء لا تبلى وهم أحياء

عن أوس بن أوس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه قبض، وفيه النفخة وفيه الصعقة. فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي» قالوا: يا رسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ يقولون: بليت، فقال: «إن الله عز وجل حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» أخرجه أبو داود وابن ماجه.

---

[1] المصدر السابق.

[2] المصدر السابق.

وإن معاوية ﷺ لما أجرى العين التي استنبطها بالمدينة في وسط المقبرة وأمر الناس بتحويل موتاهم في أيام خلافته، وذلك بعد أُحد بنحو خمسين سنة فوُجدوا على حالهم حتى أن الكلّ رأوا المسحاة وقد أصابت قدم حمزة ﷺ فسال منه الدم وأن جابر بن عبد الله أخرج أباه عبد الله بن حرام كأنما دُفن بالأمس وهذا أشهر في الشهداء من أن يحتاج فيه إلى إكثار. [1]

والمسلم لا يدري كيف ستكون خاتمته لكنه يطمح في مراتب الشهداء والصالحين، والعاقل في عمل وبذل، غير غافل قد أبصر بعينيه وقلبه موعد الموت، يحدوه حديث رسول الله ﷺ: "من شاب شيبةً في الإسلام، كانت له نوراً يوم القيامة"[2].

وخلاصة القول، من يتأمل كيف تعامل الإسلام مع الميت منذ أن تفارق روحه جسده إلى أن يدفن، باحترام وحفظ لحقوقه، لهو من أجمل ما تميزت به الشريعة الإسلامية.
ثم من يتأمل بساطة الشعائر الجنائزية بغسل وماء وكفن، ثم بصلاة لا ركوع فيها ولا سجود، وآخراً دعاء ودفن بلا بهرجة فيه ولا مغالاة. يتعظ ويعتبر ويدرك أن الدنيا دار فناء لا يليق بالمسلم إلا أن يبذل جهده فيها للنجاة قبل موعده مع القبر.
أما تأمل أحكام الشهيد في الموت فلا يملك المسلم أمامها إلا سؤال الله خاتمة الشهادة، فاللهم مراتب الصديقين والشهداء.

*******

[1] التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، ص 133.

[2] رواه الترمذي والنسائي، ورواه النسائي في "السنن الكبرى، والإمام أحمد في "المسند" بلفظ: شَيْبَةً فِي سَبِيلِ اللهِ .

## حسن الخاتمة وسوء الخاتمة

حسن الخاتمة غاية كل مسلم، وعلى كل عاقل أن يجعل الخوف من سوء الخاتمة بين عينيه وفي ذهنه باستمرار، ليزجز النفس ويقيمها على الاستقامة.

ولكل من الخاتمتين أمارات تعرف بها، منها ما صحَّ عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده خيراً استعمله ». قالوا: كيف يستعمله؟ قال: « يوفقه لعمل صالح قبل موته». رواه أحمد والترمذي والحاكم.

قال ابن رجب الحنبلي في "شرح حديث الخواتيم": "الخاتمة الحسنة لا تقع إلَّا لِمن كانت سريرتُه حسنة؛ لأنَّ لحظة الموت لا يمكن تصنُّعها، فلا يَخرج حينئذٍ إلَّا مكنون القلب".

ويشهد بحسن الخاتمة للميت إذا نطق بالشهادة عند الموت أو قتل شهيداً في ساحة القتال أو الرباط. ويذهب بعضهم إلى اعتبار التبسم من علامات حسن الخاتمة إلا أنه لا يوجد نص صحيح صريح يجزم بذلك لكل ميّت. ومع ذلك فهو لا يتعارض مع كون المحتضر – إن كان صالحا– فإنه يرى ملائكة الرحمة بيض الوجوه معهم أكفان من الجنة وحنوط من الجنة، ثم يأتي ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول: "أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان". كما رواه أحمد عن البراء ﷺ. فقد يبتسم المحتضر لذلك.

ومما يدل عليه أيضاً ما رواه أحمد عن طلحة بن عبيد الله عندما زاره عمر وهو ثقيل وفيه: إني سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً ما منعني أن أسأل عنه إلا القدرة عليه حتى مات، سمعته يقول: «إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند موته إلا أشرق لها لونه ونفس الله عنه كربته »، قال: فقال عمر: إني لأعلم ما هي، قال: وما هي؟ قال: تعلم كلمة أعظم من كلمة أمر بها عمه عند الموت: لا إله إلا الله؟ قال طلحة: صدقت هي والله.

ومحل الشاهد من الحديث قوله: أشرق لها لونه. ولكن هذا مع النطق بالشهادة.
قال النبي ﷺ: « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»[1]

وعلامات حسن الخاتمة لا تعني الجزم للميت بالجنة، وإنما يستبشر له بذلك، وغياب أي علامات لا يعني سوء الخاتمة. بل العبرة بصلاح سيرته في الدنيا. فتبسم طاغية عند الموت، مشهود له بالفجور والعدوان في حياته، لا يعني حسن خاتمته.

وإذا كان العبد معروفاً بالصلاح والتقوى في حياته، ثم أشرق وجهه وابيض بعد موته كان ذلك مما يستبشر به ويستأنس. كما أن حسن ثناء الناس عليه بعد موته ودعائهم له من علامات صلاحه، وكذا حسن الصحبة التي كان عليها في حياته هي من علامات صلاحه.

وعن علامات حسن الخاتمة الموت برشح الجبين، أي: أن يكون على جبينه عرق عند الموت، لما رواه بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «موت المؤمن بعرق الجبين» [2]

ومنها الموت ليلة الجمعة أو نهارها قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر»[3].

ومنها الموت بأحد أشكال الموت شهيداً كالموت بالطاعون والموت بداء البطن والموت بسبب الهدم والغرق وموت المرأة في نفاسها بسبب ولدها أو وهي حامل به، والموت بالحرق وذات الجنب والسل والموت دفاعاً عن الدين أو المال أو النفس. ومن علامات

---

[1] رواه أبو داوود وصححه الألباني في صحيح أبي داوود.
[2] رواه أحمد والترمذي والنسائي وصححه الألباني في صحيح الترمذي .
[3] رواه أحمد والترمذي، قال الألباني : الحديث بمجموع طرقه حسن أو صحيح .

حسن الخاتمة الموت على عمل صالح، قال ﷺ: «من قال لا إله إلا الله ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة، ومن تصدق بصدقة ختم له بها دخل الجنة ». [1]

وهذه العلامات هي من البشائر الحسنة التي تدل على حسن الخاتمة، ولكننا لا نستطيع أن نجزم لشخص بذاته أنه من أهل الجنة إلا من شهد له النبي ﷺ بالجنة كالمبشرين العشرة بالجنة.

وأسباب حسن الخاتمة كثيرة متعددة، منها: الاستقامة على طاعة الله ومجاهدة النفس على ذلك، وحسن الظن بالله سبحانه، والحرص على الصدق في القول والعمل، والتقوى، والتوبة، وصحبة أهل الخير والصلاح والعمل الخفي الذي لا يظهر للناس إلا بعد موت صاحبه، وذكر الموت وقصر الأمل، والإقبال على الآخرة، وعدم التعلق بالدنيا.

روى البخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه».

قالت عائشة أو بعض أزواجه ﷺ: إنا لنكره الموت؟ قال: « ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه كره لقاء الله وكره الله لقاءه».

وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك ﷺ قال: "مروا بجنازة فأثنوا عليها خيرا فقال النبي ﷺ: «وجبت»، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرا فقال: «وجبت»، فقال عمر بن الخطاب ﷺ: ما وجبت؟ قال «هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض».

[1] رواه الإمام أحمد وصححه الألباني في كتاب الجنائز ص43.

وروى عنه الدارقطني بسند صحيح؛ قال: " سمعتُ أبا عليٍّ الصَّوَّافَ يقولُ: سمعتُ عبدَ اللهِ بنَ أحمدَ، يقولُ: سمعتُ أبي رحمه اللهُ، يقولُ: "قولوا لأهلِ البدعِ: بيننا وبينكم يومُ الجنائزِ". وسمعتُ أبا سهلِ بنَ زيادٍ يَذكرُ ذلك". [1]

ويحضرني في هذا المقام ما رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: حدثني أبو معمر، ثنا جرير، عن شيبة بن نعامة، قال: كان علي بن الحسين يبخل، فلما مات وجدوه يقوت مائة أهل بيت بالمدينة، قال جرير في الحديث - أو من قبله -: إنه حين مات وجدوا بظهره آثاراً مما كان يحمل بالليل الجرب إلى المساكين. [2]

وعن مُحَمَّد بن إسحاق، قال: كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم؟ فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به في الليل[3].

فتأمل كيف قد يساء الظن بصالح فيتهم بالبخل بينما أخفى صدقاته لله حتى ظهر أثرها على ظهره عند الموت!

ومما يدل على سوء الخاتمة – نعوذ بالله منها- موت العبد وهو سيء الظن بالله تعالى، وقد روى مسلم عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ ».

أو أن يموت على عمل غير صالح أو معصية الله، كترك الصلاة أو شرب الخمر أو الزنا أو السرقة أو النميمة وغيره من معاصي؛ روى البخاري عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ عن النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم قال: « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ»، نسأل الله أن يحسن خواتيمنا.

---

[1] سؤالات السلمي للدارقطني، ص 361.

[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الجزء 3، ص 136.

[3] المصدر السابق.

كذلك أن تكون عليه مظالم وسيرة سيئة بين الناس ثم عند موته يظهر اسوداد وجهه وعبوسه وظلمته، أو يرفض النطق بالشهادتين أو ينصرف إلى التكلم بما كان يشغل قلبه من سوء وفساد في الدنيا والعياذ بالله.

ومن ذلك أن يغفل عن التوبة فيتمادى في غيه وضلاله ويستمر في فعل المنكر حتى يموت عليه. ومنه أن يتهاون آخر عمره عن أداء عباداته وفروضه خاصة الصلاة.

وكذلك أن يظهر كرهه الموت عند احتضاره وخوفه وقلقه واضطرابه الزائد مع سيرته السيئة خلال حياته. روى البخاري ومسلم عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنْ النبي ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ ».

وأن يذكره الناس بسوء بعد موته كما في الحديث المتفق عليه «هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْراً فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَراً فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ».

قال الحافظ عبد الحق الإشبيلي رحمه الله: "وَاعلم رَحِمك الله أَن لسوء الخاتمة أعاذنا الله مِنْهَا أسبابا وَلها طرق وأبواب أعظمها الإكباب على الدُّنْيَا والإعراض عَن الْأُخْرَى، والإقدام بالمعصية على الله تَعَالَى وَرُبمَا غلب على الْإِنْسَان ضرب من الْخَطِيئَة وَنَوع من الْمعْصِيَة وجانب من الْإِعْرَاض وَنصِيب من الافتراء فَملك قلبه وسبى عقله وأطفأ نوره وَأرْسل عَلَيْهِ حجبه، فَلم تَنْفَع فِيهِ تذكرة وَلَا نجعت فِيهِ موعظة، فَرُبمَا جَاءَهُ الْمَوْت على ذَلِك...
وَاعْلَم أَن سوء الخاتمة أعاذنا الله مِنْهَا لَا يكون لمن استقام ظَاهره وَصلح بَاطِنه، وَإِنَّمَا يكون ذَلِك لمن كَانَ لَهُ فَسَاد فِي الْعقل وإصرار على الْكَبَائِر وإقدام على العظائم، فَرُبمَا غلب ذَلِك عَلَيْهِ حَتَّى ينزل بِهِ الْمَوْت قبل التَّوْبَة ويثب عَلَيْهِ قبل الْإِنَابَة وَيَأْخُذهُ قبل إصْلَاح الطوية فيصطلمه الشَّيْطَان عِنْد تِلْكَ الصدمة ويختطفه عِنْد تِلْكَ الدهشة ". [1]

[1] العاقبة وذكر الموت ص: 178.

ومن أسباب سوء الخاتمة: الاعتقاد الفاسد، والإصرار على المعاصي، والوقوع في الكبائر، الانحراف عن سبيل النبي ﷺ والإقبال على الدنيا والتعلق بها مع ضعف الرغبة في الآخرة والعمل لها، أضف لذلك ملازمة أصحاب السوء والظالمين.

ومن أخطر ما في سوء الخاتمة، ما قاله ابن رجب رحمه الله: "إنَّ خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطَّلع عليها الناس..!". [1]

فنسأل الله حسن الخاتمة وأن يعيننا على تحصيل أسبابها، ونعوذ بالله من سوء الخاتمة وكل ما يؤدي إليها.

*******

[1] جامع العلوم والحكم (57/1)

## نماذج لحسن وسوء الخاتمة

نماذج حسن الخاتمة وسوئها لا تعد ولا تحصى، نعرض فيما يلي بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر، للاعتبار والذكرى.

**من الصالحين...**

هذا علي ﷺ، رفقة زوجته أسماء بنت عميس -ﷺ- لحظة الاحتضار بعدما ضربه ابن ملجم -عليه من الله ما يستحق-، إذ بعلي يشهق شهقة فيغمى عليه، ثم يفيق ثانية وهو يقول: "مرحباً مرحباً، الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الجنة، الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، لمثل هذا فليعمل العاملون، وليتنافس المتنافسون".

ويروى أن عمرو بن العاص -ﷺ- لما دنا من الموت دعا بحراسه ورجاله، فلما دخلوا عليه قال: هل تغنون عني من الله شيئاً؟! قالوا: لا: قال: فاذهبوا وتفرقوا عني، ثم دعا بماء فتوضأ وأسبغ الوضوء، ثم قال: احملوني إلى المسجد، ففعلوا، فقال: "اللهم إنك أمرتني فعصيت، وائتمنتني فخنت، اللهم لا عذر فأعتذر، ولا قوي فأنتصر، بل مذنب مستغفر، ولا مصر ولا مستكبر".

ولما حضر سلمان الفارسي الوفاة جعل يبكي، فقيل له: ما يبكيك؟! ألست فارقت رسول الله ﷺ وهو عنك راضٍ؟! فقال: والله ما بي جزع الموت، ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا عهداً :ليكن متاع أحدكم من الدنيا كزاد الراكب. [1]

وأما خالد بن الوليد ﷺ، فإنه لما حضرته الوفاة قال: ما كان في الأرض من ليلة أحب إلي من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أُصبّح بهم العدو، فعليكم بالجهاد، هو الذي احتبس أدراعه وأعتده في سبيل الله، وقال: لقد اندق في يوم مؤتة تسعة أسياف في يدي،

[1] رواه أبو نعيم في الحلية (196/1)

فما صبرت معي إلا صفيحة يمانية، قال: أتى خالد بن الوليد رجل معه زق خمر، فقال خالد: اللهم اجعله عسلاً، فصار عسلاً[1].

ولما حضرت الوفاة معاوية بن أبي سفيان قال: أقعدوني، فأقعدوه فجعل يذكر الله تعالى ويسبحه ويقدسه، ثم قال مخاصماً نفسه: "آلآن تذكر ربك -يا معاوية- بعد الانحطام والانهدام؟! ألا كان لك ذلك وغصن الشباب نضير ريان؟!". وبكى حتى علا بكاؤه، ثم قال: هو الموت لا منجى من الموت والذي أحاذر منه الموت أوهى وأفظع، ثم قال: "يا رب: ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي، اللهم أقل العثرة واغفر الزلة، وجد بحلمك على من لم يَرْجُ غيرَك ولا وثق بأحد سواك".

وعن الحسن بن أبي الحسن البصري قال: لما حضرت معاذاً الوفاة فجعل يبكي فقيل له: أتبكي وأنت صاحب رسول الله ﷺ وأنت وأنت؟! فقال: ما أبكي جزعاً من الموت أن حل بي ولا دنيا تركتها بعدي، ولكن إنما هما القبضتان قبضة في النار وقبضة في الجنة فلا أدري في أي القبضتين أنا[2].

وروى ابن سعد في الطبقات من طرق عدة عن الشعبي قال: لما حضرت سلمان الوفاة قال لصاحبة منزله -وهي زوجته-: هلمِّ خبيك الذي استخبأتك، قالت: فجئته بصرة مسك، فقال: ائتيني بقدح فيه ماء، فنثر المسك فيه، ثم أماثه بيده، ثم قال: انضحيه حولي، فإنه يحضرني خلق من خلق الله يجدون الريح ولا يأكلون الطعام، ثم اجفئي علي الباب وانزلي، قالت: ففعلت، وجلست هنيهة، فسمعت هسهسة، قالت: ثم صعدت، فإذا هو قد مات[3].

---

[1] ماذا قالوا عند الموت؟ للشيخ محمد صالح المنجد.

[2] شعب الإيمان (502/1).

[3] المصدر السابق.

وهذا عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عند موته يقول: أجلسوني، فأجلسوه، فقال: "أنا الذي أمرتني فقصّرت، ونهيتني فعصيت، ولكن لا إله إلا الله". ثم رفع رأسه فأحدَّ النظر. فقالوا له: إنك لتنظر نظراً شديداً يا أمير المؤمنين. قال: "إني أرى حضرة ما هم بإنس ولا جن". ثم قبض -رحمه الله-، وسمعوا تالياً يتلو: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83)﴾ [القصص: 83].

وأما واثلة بن الأصقع الصحابي ﷺ، فقد دخل الأوزاعي على خصلة بنته، بنت الصحابي واثلة، فقال لها: أي شيء سمعت من أبيك؟ فقال: لما حضرته الوفاة أخذ بيدي، فقال: يا بنيه، اصبري -حتى عد أصابعي الخمس-، اصبري، اصبري، اصبري، اصبري، اصبري، ثم أخذ بيدي الأخرى، فقال: يا بُنيه، وأوصاها بالصبر. [1]

وقال عبد الله بن عائذ الثمالي صحابي رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة، قال له غضيف بن الحارث: إن استطعت أن تأتينا فتخبرنا ما لقيتم من الموت، -إن استطعت أن تأتينا في المنام، فتخبرنا بما حصل لك-، فمكث فترة لا يراه، ثم لقيه في منامه، فقال له: ألا تخبرنا؟ فقال: نجونا ولم نكد ننجو، بعد المشيبات، فوجدنا رباً خير رب غفر الذنوب، وتجاوز عن السيئة، إلا ما كان من الأحراض، قال: وما الأحراض؟ قال: الذين يُشار إليهم بالأصابع، في إشارة لمن يحبون الظهور والرئاسة، ويشار إليهم بالأصابع، والقصة رواها ابن سعد في الطبقات.

ولما حضر إبراهيم بن هانئ الموت قال لابنه إسحاق: أنا عطشان، فجاءه بماء، فقال: غابت الشمس؟ قال: لا، فرده، ثم قال: لمثل هذا فليعمل العاملون، ثم خرجت روحه رحمه الله، فختم عمره بصوم، ولم يشرب وهو عطشان[2].

---

[1] ماذا قالوا عند الموت؟ للشيخ محمد صالح المنجد.

[2] المصدر السابق.

ولما حضرت الوفاة أبا سفيان الأنصاري: قال: لا تبكوا علي فإني لم أتنظف بخطيئة منذ أسلمت[1].

لما احتضر عمرو بن قيس الملائي –رحمه الله– بكى فقال له أصحابه: على ما تبكي من الدنيا فوالله لقد كنت غضيض العيش أيام حياتك، فقال: والله ما أبكي على الدنيا وإنما أبكي خوفاً من أن أحرم خير الآخرة. [2]

ولما احتضر الأسود بن يزيد –رحمه الله:– بكى فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال مالي لا أجزع ومن أحق بذلك مني، والله لو أتيت بالمغفرة من الله عز وجل لهمني الحياء منه مما قد صنعته، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه فلا يزال مستحياً منه![3]

قال أحمد بن إبراهيم –رحمه الله–"نظر يونس بن عبيد إلى قدميه عند موته فبكى، فقيل له: ما يبكيك، أبا عبد الله؟ قال: قدماي لم تغبرا في سبيل الله عز وجل". [4]

قال سعيد بن عامر –رحمه الله–: "مرض سليمان التيمي فبكى في مرضه بكاء شديداً، فقيل له: ما يبكيك أتجزع من الموت، قال: لا ولكن مررت على قدريٍّ فسلمت عليه، فأخاف أن يحاسبني ربي عز وجل عليه".[5]

قال يحيى بن آدم –رحمه الله:–

لما حضرت مسعرا بن كادم، الوفاة دخل عليه سفيان الثوري، فوجده جزعاً، فقال له: لم تجزع؟ فوالله لوددت أني مت الساعة. فقال مسعر: أقعدوني، فأعاد عليه سفيان الكلام،

---

[1] أسد الغابة ج1، ص 118.

[2] شعب الإيمان (50/1).

[3] حلية الأولياء (103/2).

[4] حلية الأولياء (19/3)

[5] حلية الأولياء (32/3)

فقال: إنك إذا لواثق بعملك يا سفيان، لكني والله لكأني على شاهق جبل، لا أدري أين أهبط، فبكى سفيان فقال: أنت أخوف لله عز وجل مني[1].

وروى المعافى بن زكريا عن بعض الثقات أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رحمه الله قبل موته، وتوفي بعد ساعة أو أقل منها، فذُكر له عن جعفر بن مُحَمَّد أنه قال: إذا بلغت البيت الحرام فضع يدك على حائط البيت، ثم قل: يا سابق الفوت وسامع الصوت ويا كاسي العظام لحماً بعد الموت، ثم ادع بعده بما شئت. فاستدعى محبرة وصحيفةً فكتبه، فقيل له: أفي هذه الحالة؟! فقال: ينبغي للإنسان ألاّ يدع اقتباس العلم حتى الممات! [2]

وعن فرقد (إمام مسجد البصرة) أنهم دخلوا على سفيان الثوري في مرض موته، فحدَّثه رجل بحديثٍ فأعجبه، فضرب سفيان بيده إلى تحت فراشه، فأخرج ألواحاً فكتبه، فقالوا له: على هذه الحال منك؟! فقال: إنه حسن؛ إن بقيت فقد سمعتُ حسناً، وإن مت فقد كتبت حسناً [3].

ومُحَمَّد بن إسماعيل النسَّاج -قصته في البداية والنهاية لابن كثير- لما حضرته الوفاة نظر إلى زاوية البيت، فقال: قف رحمك الله، فإنك عبد مأمور، وأنا عبد مأمور، وما أُمرتَ به لا يفوت، وما أُمرتُ به يفوت، ثم قام وتوضأ وصلى، وتمدد ومات رحمه الله تعالى.

وقال عطاء بن السائب: ذهبنا نرجِّي أبا عبد الرحمن السلمي عند موته -نذكره برجاء الله-، فقال: إني لأرجو ربي، وقد صمت له ثمانين رمضان. وأبو عمرو بن حمدان -الإمام المحدث الزاهد، قد عُمِّر تسعين سنة، وتوفي وزوجته حبلى وله بنت-، فقالت له زوجته عند وفاته: قد قربت ولادتي، فقال: سلمته إلى الله، قد جاءوا ببراءتي من السماء، وتشهَّد، ومات في ذلك الوقت[4].

---

[1] حلية الأولياء (212/7)

[2] ابن عساكر: تاريخ دمشق (199/52)

[3] حلية الأولياء (64/7)

[4] ماذا قالوا عند الموت؟ للشيخ مُحَمَّد صالح المنجد.

وقال أحمد بن حفص: دخلت على أبي الحسن إسماعيل -والد أبي عبد الله- عند موته، فقال: لا أعلم من مالي درهماً من حرام، ولا درهماً من شبهة، قال أحمد: فتصاغرت إلي نفسي عند ذلك، قال أبو عبد الله: أصدق ما يكون الرجل عند الموت[1].

وأبو إسحاق الحربي -تلميذ أحمد من أئمة الفقه والحديث- الذي كان يقول: من لم يجر مع القدر لم يتهن بعيشه -الذي لا يستسلم للقضاء والقدر لا يتهنى بعيشه-، قال: قد كانت بي شقيقة -صداع الرأس- منذ أربعين سنة ما أخبرت بها أحداً، ولي عشرون سنة أبصر بفرد عينٍ -بعينٍ واحدة- ما أخبرت بها أحداً، مكث نيفاً وسبعين سنة من عمره لا يسأل أهله غداءً ولا عشاءً إن جاءه شيئاً أكله، وإلا طوى، وبقي إلى الليلة القابلة.
دخل عليه بعض أصحابه عند موته، فقامت ابنته تشكو إليه ما هم فيه من الجهد، وأنه لا طعام لهم إلا الخبز اليابس والملح، وربما عدموا الملح في بعض الأحيان، فقال لها إبراهيم: يا بُنية، تخافين الفقر، انظري إلى تلك الزاوية، فيها اثني عشر ألف جزء قد كتبتها -وكان من المحدثين-، ففي كل يوم تبيعين منها جزءاً بدرهم، فمن عنده اثنا عشر ألف درهم فليس بفقير. روى قصته الذهبي في سير أعلام النبلاء.

وقد من الله على من شاء من عباده فماتوا وهم سجود في الصلاة، وقد جمع الكاتب غالب بن شبيب الصميل من ماتوا وهم سجود من الأعلام، في كتابه "منية العابد فيمن مات من الأعلام وهو ساجد".

وعن خاتمة ابن تيمية -رحمه الله- جاء في كتاب العقود الدرية، أنه لما أخرج ما عنده من الكتب والأوراق حمل إلى القاضي علاء الدين القونوي وجعل تحت يده في المدرسة العادلية وأقبل الشيخ بعد إخراجها على العبادة والتلاوة والتذكر والتهجد حتى أتاه اليقين وختم القرآن مدة إقامته بالقلعة ثمانين أو إحدى وثمانين ختمة انتهى في آخر ختمة إلى آخر اقتربت الساعة ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ

[1] ماذا قالوا عند الموت؟ للشيخ محمد صالح المنجد.

(55)﴾ [القمر: 54-55] ثم كملت عليه بعد وفاته وهو مسجى. كان كل يوم يقرأ ثلاثة أجزاء يختم في عشرة أيام هكذا أخبر أخوه زين الدين وكانت مدة مرضه بضعة وعشرين يوما وأكثر الناس ما علموا بمرضه فلم يفجأ الخلق إلا نعيه فاشتد التأسف عليه وكثر البكاء والحزن ودخل إليه أقاربه وأصحابه وازدحم الخلق على باب القلعة والطرقات وامتلأ جامع دمشق وصلوا عليه وحمل على الرؤوس رحمه الله ورضي عنه. [1]

ونظم ابن الوردي[2] قصيدة طائية مشهورة يذكر موت ابن تيمية بالقلعة التي حبس به جاء فيها:

عثا في عرضه قوم سلاط ... لهم من نثر جوهره التقاط

تقي الدين أحمد خير حبر ... خروق المعضلات به تخاط

توفي وهو محبوس فريد ... وليس له إلى الدنيا انبساط

ولو حضروه حين قضى لألفوا ... ملائكة النعيم به أحاطوا

قضى نحبا وليس له قرين ... ولا لنظيره لف القماط

فتى في علمه أضحى فريدا ... وحل المشكلات به يناط

وكان إلى التُّقى يدعو البرايا ... وينهى فرقة فسقوا ولاطوا

كان الجن تفرق من سطاه ... بوعظ للقلوب هو السياط

فيا لله ما قد ضم لحد ... ويا لله ما غطى البلاط

هم حسدوه لما لم ينالوا ... مناقبه فقد مكروا وشاطوا

وكانوا عن طرائقه كسالى ... ولكن في أذاه لهم نشاط

ولا يفوتني أن أذكر في هذا المقام، وفاة تلميذه العلامة ابن القيم رحمه الله، الذي وجد كثيراً من الأذى والبلاء والمحن من أهل البدع ومتعصبة المذاهب، يقول ابن العماد الحنبلي في كتابه "شذرات الذهب في أخبار من ذهب"، في ترجمة ابن القيم وهو يذكر أحداث سنة إحدى وخمسين وسبعمائة: "وفيها توفي العلامة شمس الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر

---

[1] العقود الدرية في ذكر بعض مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، ج 1، ص 384. (بتصرف)

[2] كتاب أبجد العلوم لصديق حسن خان ص644 .

بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي ثم الدمشقي الفقيه الحنبلي بل المجتهد المطلق المفسر النحوي، ثم نقل عن ابن رجب أنه قال: وقد امتحن وأوذي مرات وحبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة منفرداً عنه ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ."[1] وأضاف ابن العماد: "توفي رحمه الله وقت العشاء الآخرة ثالث عشر رجب وصلي عليه من الغد بالجامع الأموي عقيب الظهر ثم بجامع جراح ودفن بمقبرة الباب الصغير".

ووصف ابن كثير ابن القيم رحمهما الله، فقال: " وكنت من أصحب الناس له، وأحب الناس إليه. وقد كان حسن القراءة والخُلق، كثير التودد، لا يحسد أحدًا ولا يؤذيه، ولا يستعيبه، ولا يحقد على أحد". [2]

وقال ابن رجب عن ابن القيم رحمهما الله: " وكان رحمه الله ذا عبادة وتهجد، وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وتأله ولهج بالذكر، وشغف بالمحبة، والإنابة والاستغفار، والافتقار إلى الله، والانكسار له، والاطِّراح بين يديه على عتبة عبوديته، لم أشاهد مثله في ذلك، ولا رأيت أوسع منه علمًا، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه، وليس هو المعصوم، ولكن لم أرَ في معناه مثله.

وقد امتُحِن وأوذي مرات، وحُبِس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة، منفردًا عنه، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ تقي الدين ابن تيمية.

وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر، ففتح عليه من ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف، والدخول في غوامضهم، وتصانيفه ممتلئة بذلك، وحج مرات كثيرة، وجاور بـ"مكة"، وكان أهل "مكة" يذكرون عنه من شدةِ العبادة، وكثرة الطواف أمرًا يتعجب منه".

---

[1] شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج 8، ص 87.

[2] البداية والنهاية (18/523)

وقال الحافظ ابن رجب: "ولازمت مجالسه قبل موته أزيَدُ من سنة، وسمعت عليه " قصيدته النونية الطويلة " في السنة، وأشياء من تصانيفه، وغيرها".
وأخذ عنه العلم خلقٌ كثير، وانتفعوا به، وكان الفضلاء يعظمونه، ويتتلمذون له، كابن عبد الهادي وغيره.

وقال القاضي برهان الدين الزُّرْعي عنه: ما تحت أديم السماء أوسع علمًا منه. [1]

وقد نقلت وصف العلماء لابن القيم لنرى كيف كانت سيرته في الدنيا وندرك كيف ذاع صيت علمه في كل زمان، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء سبحانه، فاسأل الله من فضله العظيم!

ونختم هذه النماذج بنموذج مهيب، وفاة إمام السنة أحمد بن حنبل رحمه الله، ويذكر ذلك الحافظ ابن كثير في "البداية والنهاية" في جزئه العاشر، فيقول: " قال ابنه صالح: كان مرضه في أول ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين، ودخلت عليه يوم الأربعاء ثاني ربيع الأول وهو محموم يتنفس الصعداء وهو ضعيف، فقلت: يا أبت! ما كان غداؤك؟ فقال: ماء الباقلا. ثم إن صالحاً ذكر كثرة مجيء الناس من الأكابر وعموم الناس لعيادته، وكثرة حرج الناس عليه، وكان معه خريقة فيها قطيعات ينفق على نفسه منها، وقد أمر ولده عبد الله أن يطالب سكان ملكه وأن يكفر عنه كفارة يمين، فأخذ شيئاً من الأجرة فاشترى تمراً وكفَّر عن أبيه، وفضل من ذلك ثلاثة دراهم.
وكتب الإمام أحمد وصيته: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هذا ما أوصى به أحمد بن حنبل، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن مُحَمَّداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. وأوصى من أطاعه من أهله وقرابته أن يعبدوا الله في العابدين، وأن يحمدوه في الحامدين، وأن ينصحوا لجماعة

[1] انظر في ترجمته: ذيل طبقات الحنابلة للحافظ ابن رجب، ج5 ص 170 - 175.

المسلمين. وأوصي أني قد رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً. وأوصي لعبد الله بن مُحَمَّد المعروف ببوران عليَّ نحواً من خمسين ديناراً وهو مصدق فيها، فيقضي ماله عليَّ من غلة الدار إن شاء الله، فإذا استوفى أعطى ولد صالح كل ذكر وأنثى عشرة دراهم. ثم استدعى بالصبيان من ورثته فجعل يدعو لهم، وكان قد ولد له صبي قبل موته بخمسين يوماً فسماه: سعيداً، وكان له ولد آخر اسمه: مُحَمَّد قد مشى حين مرض فدعاه فالتزمه وقبله ثم قال: ما كنت أصنع بالولد على كبر السن؟ فقيل له: ذرية تكون بعدك يدعون لك. قال: وذاك إن حصل. وجعل يحمد الله تعالى، وقد بلغه في مرضه عن طاوس أنه كان يكره أنين المريض فترك الأنين فلم يئن حتى كانت الليلة التي توفي في صبيحتها أنَّ، وكانت ليلة الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من هذه السنة، فأنَّ حين اشتد به الوجع. وقد روي عن ابنه عبد الله، ويروي عن صالح أيضا أنه قال: حين احتضر أبي جعل يكثر أن يقول: لا بعد لا بعد. فقلت: يا أبت! ما هذه اللفظة التي تلهج بها في هذه الساعة؟ فقال: يا بني! إن إبليس واقف في زاوية البيت وهو عاض على إصبعه وهو يقول: فُتَّني يا أحمد؟ فأقول: لا بعد، لا بعد – يعني: لا يفوته حتى تخرج نفسه من جسده على التوحيد –كما جاء في بعض الأحاديث قال إبليس: يا رب وعزتك وجلالك ما أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الله: وعزتي وجلالي ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني. وأحسن ما كان من أمره أنه أشار إلى أهله أن يوضئوه فجعلوا يوضئونه وهو يشير إليهم أن خللوا أصابعي وهو يذكر الله عز وجل في جميع ذلك، فلما أكملوا وضوءه توفي رحمه الله ورضي عنه. وقد كانت وفاته يوم الجمعة حين مضى منه نحو من ساعتين، فاجتمع الناس في الشوارع، وبعث مُحَمَّد بن طاهر حاجبه ومعه غلمان ومعهم مناديل فيها أكفان، وأرسل يقول: هذا نيابة عن الخليفة، فإنه لو كان حاضراً لبعث بهذا. فأرسل أولاده يقولون: إن أمير المؤمنين كان قد أعفاه في حياته مما يكره، وأبوا أن يكفنوه بتلك الأكفان. وأتي بثوب كان قد غزلته جاريته فكفنوه، واشتروا معه عوز لفافة وحنوطاً واشتروا له راوية ماء، وامتنعوا أن يغسلوه بماء بيوتهم لأنه كان قد هجر بيوتهم فلا يأكل منها ولا يستعير من أمتعتهم شيئاً، وكان لا يزال متغضباً عليهم لأنهم كانوا يتناولون ما رتب لهم على بيت المال، وهو في كل شهر أربعة آلاف درهم، وكان لهم عيال كثيرة وهم فقراء. وحضر غسله نحو من مائة من بيت الخلافة

من بني هاشم فجعلوا يقبلون بين عينيه ويدعون له ويترحمون عليه رحمه الله. وخرج الناس بنعشه والخلائق حوله من الرجال والنساء ما لم يعلم عددهم إلا الله، ونائب البلد مُحَمَّد بن عبد الله بن طاهر واقف في جملة الناس، ثم تقدم فعزَّى أولاد الإمام أحمد فيه، وكان هو الذي أمَّ الناس في الصلاة عليه، وقد أعاد جماعة الصلاة عليه عند القبر، وعلى القبر بعد أن دفن من أجل ذلك، ولم يستقر في قبره رحمه الله إلا بعد صلاة العصر وذلك لكثرة الخلق. وقد روى البيهقي وغير واحد: أن الأمير مُحَمَّد بن طاهر أمر بحزر الناس فوجدوا ألف ألف وثلثمائة ألف. وفي رواية: وسبعمائة ألف سوى من كان في السفن. وقال ابن أبي حاتم: سمعت أبا زرعة يقول: بلغني أن المتوكل أمر أن يمسح الموضع الذي وقف الناس فيه حيث صلوا على الإمام أحمد بن حنبل فبلغ مقاسه ألفي ألف وخمسمائة ألف. قال البيهقي، عن الحاكم، سمعت أبا بكر أحمد بن كامل القاضي، يقول: سمعت مُحَمَّد بن يحيى الزنجاني، سمعت عبد الوهاب الوراق، يقول: ما بلغنا أن جمعاً في الجاهلية ولا في الإسلام اجتمعوا في جنازة أكثر من الجمع الذي اجتمع على جنازة أحمد بن حنبل. فقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: سمعت أبي، يقول: حدثني مُحَمَّد بن العباس المكي، سمعت الوركاني - جار أحمد بن حنبل - قال: أسلم يوم مات أحمد عشرون ألفا من اليهود والنصارى والمجوس. وفي بعض النسخ: أسلم عشرة آلاف بدل عشرين ألفا، فالله أعلم. وقال الدارقطني: سمعت أبا سهل بن زياد، سمعت عبد الله بن أحمد، يقول: سمعت أبي، يقول: قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم الجنائز حين تمر. وقد صدق الله قول أحمد في هذا فإنه كان إمام السنة في زمانه، وعيون مخالفيه أحمد بن أبي داؤد وهو قاضي قضاة الدنيا لم يحتفل أحد بموته، ولم يلتفت إليه، ولما مات ما شيعه إلا قليل من أعوان السلطان. وكذلك الحارث بن أسد المحاسبي مع زهده وورعه وتنقيره ومحاسبته نفسه في خطراته وحركاته، لم يصل عليه إلا ثلاثة أو أربعة من الناس. وكذلك بشر بن غياث المريسي لم يصل عليه إلا طائفة يسيرة جدا فلله الأمر من قبل ومن بعد. وقد روى البيهقي، عن حجاج بن مُحَمَّد الشاعر، أنه قال: ما كنت أحب أن أقتل في سبيل الله ولم أصل على الإمام أحمد. وروي عن رجل من أهل العلم أنه قال يوم دفن أحمد: دفن اليوم سادس خمسة وهم: أبو بكر،

وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر بن عبد العزيز، وأحمد. وكان عمره يوم مات سبعاً وسبعين سنة وأياما أقل من شهر، رحمه الله تعالى".

وهناك لا شك الكثير من قصص حسن الخاتمة لم ندرجها أو لم تصلنا، للكثير من النبلاء من أئمة وأبناء الإسلام الذين لم نقع على تفاصيل رحيلهم عن هذه الدنيا على الرغم مما تركوه من حسن سيرة وعظيم أثر، وفي مقدمتهم الشهداء الذين قضوا نحبهم في سبيل الدفاع عن الإسلام وإعلاء كلمة الله والمعتقلون في السجون لأجل كلمة حق، ففاضت أرواحهم بين جدران الزنازين، وكل من بذل نفسه في سبيل العلم والعمل مخلصا لله جيلاً بعد جيل.

**من الطالحين..**

العديد من نهايات الطغاة للاعتبار يذكرها القرآن وفي مقدمتها نهاية فرعون، قال تعالى ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)﴾ [الفجر: 13-14] ولم يقتصر عذابهم على الآخرة بل أيضا في الدنيا كما قال الله تعالى ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25)﴾ [النازعات: 25] ولا ريب أن نكال الآخرة هو الأشد والأبقى قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (26)﴾ [النازعات: 26] وهي سنة الله في الطغاة.

عن ابن أبي مليكة قال: رأيت عبد العزيز بن مروان حين حضره الموت وهو يقول: ألا ليتني لم أكُ شيئا مذكورا، ألا ليتني كهذا الماء الجاري، أو كنابتةٍ من الأرض، أو كراعي ثلة في طرف الحجاز. [1]

[1] موسوعة ابن أبي الدنيا 331/5.

عن أبي وائل قال: لما حضر بشر بن مروان قال: والله لوددت أني كنت عبدا حبشيا لأسوأ أهل البادية مَلَّكةً، أرعى عليهم غنمهم، وإني لم أكن فيما كنت فيه، فقال سفيان: الحمد لله الذي جعلهم يفرون إلينا ولا نفر إليهم، إنهم ليرون فينا عِبرا، وأنا لنرى فيهم عبرا [1].

قال عبد العزيز بن أبي رواد رحمه الله: حضرت رجلاً في النزع فجعلت أقول له: قل لا إله إلا الله، فكان يقول، فلما كان في آخر ذلك قلت له: قل لا إله إلا الله، قال: كم تقول؟ إني كافر بما تقول، وقُبض على ذلك، فسألت امرأته عن أمره فقالت: كان مدمن خمر، فكان عبد العزيز يقول: اتقوا الذنوب فإنما هي أوقعته[2].

وذكر الإمام الذهبي رحمه الله في كتابه " تاريخ الإسلام " العديد من الخواتيم السيئة سيئة، نذكر منها:

خاتمة عمير بن جرموز المجاشعي، قاتل حواري رسول الله ﷺ، حيث قتله تقرباً إلى علي، ولما جاء يستأذن عليه، قال له علي: "بشر قاتل الزبير بالنار "، فندم وسقط في يده، وبقي كالبعير الأجرب، كلّ يتجنبه، ويُهول عليه ما صنع، ورأى منامات مزعجة، فكره الحياة لذنبه، وأتى بعض السواد، وهناك قصر عليه زج، فأمر إنساناً أن يطرحه عليه فقتله.

خاتمة مجد الدين الجزري، ابتلي بحب شاب، وقويت عليه السوداء، وفسدت مخيلته، فأغلق عليه الخانقاه الشهابيه، وطلع إلى السطح فألقى نفسه في الطريق، فمات.

خاتمة أبي إسحاق النظام، البصري المتكلم المعتزلي الإمام ذو الضلال والإجرام، له مقالة خبيثة، وقد كفره غير واحد، سقط من غرفة وهو سكران فهلك.

---

[1] موسوعة ابن أبي الدنيا 331/5.

[2] جامع العلوم والحكم/ 78، موسوعة ابن أبي الدنيا 370/5.

ومن ذلك، قال زكريا الساجي: كنا نمشي في أزقة البصرة إلى باب بعض المحدثين فأسرعنا، وكان معنا رجل ماجن متهم في دينه. فقال: ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا يكسروا، كالمستهزئ، فما زال موضعه حتى جفت رجلاه، وسقط.

خاتمة كيكاوس بن كيخسرو بن قلج رسلان، السلطان، كان جباراً، ظالماً، سفاكاً للدماء، أخذه الله بغتةً، فمات فجاءة وهو سكران.

وقيل لأحدهم: قل: لا إله إلا الله، فقال:

يا رُبَّ قائلةٍ يوم وقد تعبت كيف الطريق إلى حمام منجاب

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فجعل يهذي بالغناء.

وقيل لآخر فقال: وما ينفعني ما تقول، ولم أدع معصية إلا ركبتها، ثم قضى ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: وما يغني عنّي، وما أعرف أني صليتُ لله صلاة، ولم يقلها.

وحين نتحدث عن الطغاة نذكر الحاكم بأمر الله العبيدي، من أطغى الطغاة الذين عرفهم التاريخ الإنساني، قال عنه الذهبي في سيرته: "كان شيطاناً مريداً، وجبَّاراً عنيداً، كثير التلوُّن، سفَّاكاً للدماء، خبيث النحلة، عظيم المكر، له شأنٌ عجيبٌ، ونبَأ غريب، كان فرعون زمانه، تسمَّى هذا الطاغية زوراً وبهتاناً بالحاكم بأمر الله، هو أحد رُؤَساء الدولة الفاطمية الباطنية الرافضية، والذين حكَم عليهم غيرُ واحد من أهل العلم كالغزالي وابن تيميَّة بأنَّ ظاهرهم الرفض، وباطنهم الكفر المحض"[1].

[1] سير أعلام النبلاء الجزء 15، ص 174.

ومنذ تولى هذا الطاغية الحكم وعمره ثلاث عشرة سنة، وهو يفسد في الأرض بلا رادع.
فقد أذاق الناس المر والأمرّ، يفتح الأسواق ليلاً ويغلقها نهاراً، يقتل العُلَماء والصُّلَحاء، كتب سبَّ الصحابةِ وخِيارِ السلف على أبواب المساجد، وزخرَفَها بالذهب والفضة. مَنَع بيع العسل والزبيب وألغى فريضة الزكاة، ومنع صلاة الضحى وصلاة التراويح، وغيره من مظاهر الطغيان التي لم تخل من طلب التمجيد له والتقديس. ولا غرابة أن وصل به جنون العظمة إلى ادعاء الألوهيَّة، وإجبار الناس على السجود له.
استمر هذا الطاغية في حكم شعبه أكثر من خمسٍ وعشرين سنة، وشاء الله أن تكون نهايته على يد أقاربه الذين تآمَروا مع قادة الجيش على اغتياله، فتطهرت الأرض من كفريَّاته وزندقاته.

وفي عصرنا الحديث الكثير من أمثلة الطغاة ونهاياتهم البائسة من الصعب أن نذكرها جميع لكن لا خلاف في أن تدبرها يبعث في النفس اليقين والثقة بوعد الله.

في مقابلة مع سفتلانا ستالين ابنة الدكتاتور الروسي جوزيف ستالين الذي يعرف بالطاغية الفولاذي (1372- 1296هـ) (1953- 1879م) نشرها موقع "نيويوركر" [1] تحدثت فيها عن لحظة موت أبيها حيث نشر الموقع: " في مارس 1953، أصيب ستالين بجلطة دماغية. كتبت سفيتلانا في ذلك: "كان عذاب الموت فظيعاً. اختنق حرفياً حتى الموت كما كنا نشاهد. في ما بدا أنه اللحظة الأخيرة، فتح عينيه فجأة وألقى نظرة على كل من في الغرفة. كانت نظرة فظيعة، مجنونة أو ربما غاضبة، ومليئة بالخوف من الموت".

وذاك آرييل شارون الملعون، رئيس الوزراء الصهيوني الأسبق الذي هلك على عمر ناهز 86 عاما بعد تدهور حالته الصحية. حيث بقي ثماني سنوات في غيبوبة مشلولا في المستشفى بعد إصابته بجلطة دماغية منذ عام 2005 إلى أن هلك يعاني ولعنات المسلمين تحفه من كل جانب.

[1] *Newyorker: My Friend, Stalin's Daughter The complicated life of Svetlana Alliluyeva. By Nicholas Thompson*

كيف لا وقد اقترن اسم شارون بوحشيته وحقده على المسلمين منذ أن كان عسكرياً، حيث قاد بنفسه العديد من المجازر والجرائم ضد أهل فلسطين، أشهرها مجزرة صبرا وشاتيلا التي تعد من أبرز المحطات الدموية في حياة هذا الطاغية المجرم في عام 1402هـ (1982م)، وكان شعاره حينها «بدون عواطف»، فقتل وذبح بشكل مروع المئات من النساء والرجال والأطفال، وتم التمثيل بالجثث وبقر البطون، وقطع الأطراف، واغتصاب النساء والفتيات بشكل متكرر.

ومما يحضرني الآن من قصص الخيانات التي تستحق التدبر، قصة جان بردي الغزالي من المماليك، الذي بسبب خيانته لطومان باي -آخر سلاطينهم - وإفشائه أسرارهم تمكن العثمانيون من إسقاط المماليك في مصر، واكتشف طومان باي خيانة الغزالي لكن الظرف لم يكن يسمح بتصفيته وإرباك الصفوف. ولم ينس العثمانيون أن الغزالي خان أصحابه لأجلهم فحفظوها له. فبعد موت سلطان سليم طمعت نفس الغزالي في أن يتسلطن في الشام فوصل خبره لقيادة العثمانيين فقال له إياس باشا في كتاب: "لو كان فيك خير لكان لأبناء جنسك فالذي ما فيه خير لجنسه كيف يكون فيه خير لغير جنسه يا خائن يا فاجر يا غدار يا مكار، وأخذ يسبه سبًا مبرحًا ويسود وجهه ويلعنه". وقطع رأس الخائن في نهاية المواجهة وقتل شر قلتة. فخسر أصحابه وخسر من خان لأجلهم. لأن الخيانة لا تغتفر. [1]

ومما يجدر تسليط الضوء عليه في تدبر التاريخ، قصص الخونة، بداياتهم ونهاياتهم، تستحق أن تجمع في كتاب واحد ليكون عبرة لمن يعتبر، لم أر نهاية خائن سعيدة، لا ينفك يقع في شر أعماله ونواياه، وبعض القصص تبهرك حكمة الله في العقاب مهما بلغ مكر الخائن وأذاه للمسلمين، والخيانة لا تغتفر حتى مع تقادم الزمن.

وبحثت في نهايات الطغاة في زماننا فوجدت نهاية الرئيس الليبي المخلوع معمر القذافي، واحدة من أكثر النهايات السيئة للطغاة، فبعد أكثر من 40 عاماً في السلطة، قتل بطريقة

[1] تاريخ غزوة السلطان سليم مع قانصوه الغوري ص 151.

مهينة بشعة على يد الثوار الذين طالما ازدراهم وهددهم، وذلك في عام 1432هـ (2011م).

فقد حوصر القذافي في ماسورة صرف صحي في محاولة للهرب من الثوار. لكنهم تمكنوا منه فتوسلهم لإبقائه على قيد الحياة، لكن ظلمه كان أكبر من أن ترقّ له قلوب، فضربوه وصفعوه بالأحذية وجردوه من ملابسه وجرعوه من كأس الذلة والمهانة، قبل أن يعدموه بطلقات مباشرة عليه أردته قتيلا. فكانت نهايته عبرة لمن يعتبر، بعد عقود من الكبر والعدوان، بعد جرأته على دين الله وعلى حقوق عباده سبحانه.

لقد سار الطاغية القذافي على درب مَن سبَقَه من الجبابرة، شغوفاً بالإطراء، هائماً بالألقاب، فلقَّب نفسَه بملك مُلوك إفريقيا، وبإمام المسلمين، وعميد الحكَّام، ورئيس الاتحاد الإفريقي.

كان فكره عبارة عن خليط من السَّوءات العقديَّة، والعُفونات الفكريَّة، نشاهدها بوضوح في كتابه "الأخضر"، وكتابه "الأبيض" الذي أسماه "إسراطين"، وقد شهد على نفسه بالردة والضلالة في كتاب "السجل القومي" الذي جمعت فيه خُطبه وخِطاباته وبياناته وحواراته، أخزاه الله. فالحمد لله الذي اقتص لأهل ليبيا من هذا الطاغوت في الدنيا قبل الآخرة.

ومثله جميع الطغاة يموتون في كمد ومعاناة وشقاء، حتى رؤساء الدول الكبرى كالولايات المتحدة، يصل قادتها لأرذل العمل ويعانون في آخر أيامهم أشد المعاناة، في مستشفيات باردة في كل شيء!

ومن يطيل النظر في القرآن لابد أن يبصر سنة الله في كل طاغية، ومن يتدبر في قصص البشر، يتعلم أن النهايات رحمة للمؤمنين والمظلومين. وهي الشفاء والعزاء مهما بلغ الظالم من طغيان. ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: 43]، ﴿خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (111)﴾ [طه: 111]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (51)﴾ [الإسراء: 51].

*******

## من حديث الموت

لقد كتبت الكثير من الأقلام عن الموت، وفي حديثها ذخيرة من العبر والمواعظ. وإني لأجد من الأمانة أن يشغل حيّز من هذا الكتاب بعض هذه الكتابات عن الموت، فصياغة المعاني فن وعلم وأدب، وهذه قبسات انتقيتها من كناشة فوائدي وصيد قراءاتي عن أدب الموت كيف يصنع الحياة ويُلهم النفس.

ولاشك أن البشير الإبراهيمي ترك أثراً متميزاً في هذا الباب، ومما قاله رحمه الله في مجموع آثاره: "والحيُّ إذا عرَض له خيالُ الموتِ، ذابَتْ كلُّ الاعتباراتِ في نفسِه"[1].

" أيها الشباب: ساءَ مَثَلاً من أوهمكم أن بينكم وبين الموت فسحة وإمهالاً، لقد علمتم أن الموت لا يخاف الصغير ولا يعاف الكبير، وأسوأ منه نظراً من توهّم أنكم لذلك أبعد عن الله من حيث المعاد، فإنكم أقرب إلى الله من حيث المبدأ، وان أثر يد الله فيكم لَأظهر، وان المسحة الإلاهية على شبابكم لأوضح، وان أغصانكمِ الغضّة المورقة لمطلولة بانداء السماء وقد وخزتها خضرته من كل جانب، وإن نفحات الله لتشمّ من أعطافكم وشمائلكم، فلئن كنا قريباً من لقاء الله بالموت فلَأنتم أقرب إليه بالحياة، ولئن صحبكم الاتصال به في جميع المراحل فيا بشراكم، ولئن كنا نقبل عليه كارهين متَسَخِّطين على الموت، فأنتم مقبلون من عنده فرحين بالحياة مستبشرين، فصلوا حبلكم بحبله واحفظوا عهده، وحذار أن تقطعكم عنه القواطع"[2].

"إن إخوانكم ما ثاروا إلا بعد أن آمنوا بأن الموت المعجّل، ومعه الشهادة، أشرف من الموت البطيء يصحبه الذلّ والهوان. وأن الموت الشريف أكرم عند الله والناس من الحياة المهينة. وأن هذه الحالة إذا طالت أكثر مما طالت، بردت العزائم، وماتت الهمم العربية، والحمية الإسلامية. فهم حين يقاتلون الاستعمار، ويقتلون أهله، إنما يقاتلون معه هذه المعاني الخبيثة

---

[1] آثار الإبراهيمي (2/47).

[2] آثار الإبراهيمي (4/270).

الـتي ابـتلاهم بهـا وشـرّها ضـعف الأخـلاق، وخـور العـزائم، ومـا كـادوا يقتلـون طائفـة مـن عـدوهم، وتقتـل مـنهم طائفـة، حـتى تنَبّهـت فـيهم طبـائع الآباء والأجـداد، ودبّـت فـيهم الحميـة التي نشرت دين الله في أرضه، وهانت عليهم الحياة الذميمة، في طلب الحياة الكريمة". [1]

" ما أعذَبَ الموتَ إذا كان للحياةِ طريقاً!". [2]

"ألا إنّ العـالم المرشـد كالطبيـب، لا يـنجح في إنقـاذ المـريض مـن المـوت إلا بغشـيان مواقـع الموت و مباشرة جراثيم الموت!". [3]

"كلُّ ذي غَيبةٍ يؤُوبُ، وغائبُ الموتِ لا يؤُوبُ". [4]

"والأمة التي لا تَصنع الحياة يُصنع لها الموت". [5]

"والأمـة تريـد تعليمـاً عربيـاً يسـاير العصـر وقوتـه ونظامـه، لا تعليمـاً يحمـل جـراثيم الفنـاء، وتحملـه نذُر الموت". [6]

وقـال أبـو فهـر محمـود شـاكر رحمـه الله: " المـرءُ لا يكـون إنسـانا ناميـاً إلّا مـع اليقظـة، فـإذا سُلب اليقظة، فقد استقر في حومةِ الموت والهلاك، وإنْ بقي حيّاً يتحرك". [7]

---

[1] آثار الإبراهيمي (5/180)

[2] آثار الإبراهيمي (5/305).

[3] آثار الإبراهيمي (1/196).

[4] آثار الإبراهيمي (2/120).

[5] آثار الإبراهيمي (2/432).

[6] آثار الإبراهيمي (3/283)

[7] مقدمته لكتاب (في مهب المعركة) لمالك بن نبي

"حرصوا على الحياة وأسباب الحياة؛ فذلوا حتى أَمَاتهم الذل، ولو حرصوا على الموت وأسباب الموت، لعزوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة". [1]

"وأشد النكبات التي يُصاب بها البشر، نكبة الغفلة، لأنها محو لما تقوم بهِ حياة الناس، والمرء لا يكون إنساناً نامياً إلا مع اليقظة، فإذا سُلب اليقظة، فقد استقرّ في حومةِ الموت والهلاك، وإن بقي حيّا يتحرك". [2]

"القلب إذا أغلقت الأبواب على بصيرته، فلم يعد له نور ينبث وينفذ إلى أعماق الحوادث العظام التي تحيط به من كل جانب. وإذا بلغ الأمر بنا هذا المبلغ، فقد يكون من أكبر الجهل أن يسمى هذا غفلة، وإنما هو ضرب من الموت يصيب الحي، وينقله إلى لحد مظلم لا تراه العيون!". [3]

"لن نبلغ شيئا في إفهام أولئك القوم أن عملهم سيء العاقبة، مهما توسلنا إلى إفهامهم بالدعاية والمناشدة، بل لن نبلغ شيئا إلا يوم يستوي لدينا بحق معنى الموت ومعنى الحياة الحرة، فضلا عن معنى الموت ومعنى الحياة الذليلة!". [4]

" إنّ علينا أن نصارع الحياة بالقوة، وأن نداورها بالحيلة، حتى نخلص إلى الأرض المطمئنّة، ولكن هل يستطيع أحدنا بعد ذلك أن يصل إلى هذه الأرض؟ لولا أنّ اليأس هو باب الموت، لكان هو –في الحقيقة– إحدى الراحتين". [5]

"في بعضِ الإنجيل هذه الكلمة: "مَن وجد نفسَه أضاعَها، ومن أضاع نفسَه مِن أجلي وجَدَها"، أفيكون معنى ذلك أنَّ النفس الإنسانية لا توجد باقيةً أبداً إلاَّ وهي مستهلكة،

---

[1] جمهرة مقالاته، ج2 ص937

[2] كتاب في مهب المعركة، ص 10

[3] أباطيل وأسمار، ص441.

[4] جمهرة مقالاته، ج1 ص410.

[5] جمهرة مقالاته، ج1 ص121.

وأنَّ الأشياء الشريفة التي تُهلك هي بعينها التي تُحيي، وأنَّه لا معنى للشيء الحيِّ إلاَّ أن يجتمعَ فيه معنى الأشياء الشريفة، الموت والحياة معاً، وأنَّ استغراقَ النَّفْس واستهلاكَها في الأحزان النبيلة وتعذيبَها بها هو استحياؤها وتنعيمُها، وأنَّ العمل المهلك والفِكر المهلك هُمَا العمل الإنسانيُّ الجليل الذي خُلِقَتْ من أجله الحياة على الأرض؟ وعلى ذلك لا تكون النَّفْس حيَّة أبداً إلاَّ وهي سائرة بالحياة في مَسْبَعَةٍ[1] من الموت، يتخطَّفها كلُّ شيء، حتى الأسباب التي يستوجب بها الحيُّ صفة الحياة، إذاً ما أعجبَ الحياةَ!". [2]

"موت: الموت: السكون، وكل ما سكن فقد مات، يقال: ماتت الريح: سكنت"[3].

"تحت الثرى عليك رحمة الله التي وسعت كل شيء، وفوق الثرى عليّ أحزان قلبي التي ضاقت بكل شيء. تحت الثرى تتجدد عليك أفراح الجنة، وفوق الثرى تتقادم عليّ أحزان الأرض. تحت الثرى تتراءى لروحك كل حقائق الخلود وفوق الثرى تتحقق في قلبي كل معاني الموت"[4].

"إن الروح لا تموت، لأنها تستمد سلطانها من سلطان الله، وإن القلب لا يسكن، لأن سكونه هو حقيقة الموت، وإن العقل لا يؤسر أو يقيد، لأنه حر لا يستعبد، وإن الزمن قد أشرف بنا على مجد وعزة، فينبغي أن نجدد تاريخنا القديم بمجد مستحدث مستجد". [5]

"(المستعمرون)... فتكوا بنا وبتاريخنا وماضينا ومجتمعنا فتكاً لا مثيل له في تاريخ البشرية كانت وسائلهم إليه من أخفى المكر وأخبثه حتى استولوا على كل ما نملك وزادوا فاستولوا

---

[1] المسبعة: الأرض تمتلئ بالسِّباع، وهي كل حيوان مفترس.

[2] منهجي في هذا الباب، مجلة الرسالة، السنة الثامنة (العدد339)

[3] معجم محمود محمّد شاكر، إعداد منذر محمّد سعيد أبو شعر، ص311.

[4] محمود شاكر سنة 1937 عند وفاة الرافعي.

[5] جمهرة مقالات محمود شاكر (852/2)

على عقولنا واستعبدوا خطرات نفوسنا وتركونا رِمما نفكر بعقول قد طال عليها الموت حتى أنتنت". [1]

"من أشدِّ الغفلة أن نعيشَ هذهِ الأيامَ المظلمةَ بأعينٍ مفتوحةٍ وقلوبٍ مُغفلةٍ، فالقلبُ إذا أغلقت الأبوابُ على بصيرتهِ، فلم يعُدْ لهُ نورٌ ينبثُّ و ينفذُ إلى أعماقِ الحوادث العظام التي تُحيط بهِ من كلِّ جانبٍ، كانت العينُ بعد ذلك أداةً مُجرَّدةً من الإحساسِ، مكفوفة عن النَّفاذِ واللَّمح، لا تكادُ تُدركُ مما ترى وتُبْصِرُ سوى الظَّواهر الخدَّاعة، وعندئذٍ يُصبحُ الزمان حُطاماً من الساعاتِ والأيام، وركاماً من الشهور والأعوام، وتُصْبح الأشياء كُلها صفّاً واحداً، ونمطاً متشابهاً، قد خلا من الروابط، وعُرِّي من الأسباب، وإذا بلغ الأمرُ بنا هذا المبلغ، فقد يكونُ من أكبرِ الجهل أن يُسمَّى هذا ( غفلةً )، إنما هو ضربٌ من الموتِ يُصيبُ الحي، وينقلهُ إلى لَحْدٍ مُظلمٍ لا تراهُ العيونُ، وهو بعد مُقيم على ظهرِ الأرضِ يسعى أو يتحرَّك أو يتكلَّمْ". [2]

"وتضطربُ الروح، وتتفرقُ النفس، ويتألمُ القلب، وتتبعثرُ الإرادة، ويحارُ العقل، ويكونُ مع ذلك كله أمل ممض نافذ يجعل الحي يستشعرُ معاني الموت وهو لا يزال حيا بعد". [3]

"الأخ نعمة وفضل من رب عظيم أخ مع أخيه كأخ ابن تيمية وحبه له وكذلك أحمد شاكر مع أخيه:
لقد كان... بالنسبة لي أخاً وصديقاً، سِرْنَا معاً في زمنٍ واحد، ومشينا في طريق واحد... ولم يتخلّف أحدنا عن الآخر حتى فرَّقَ بيننا الموت". [4]

وأما الرافعي، فقد خط قلمه جميل المعاني في الموت فقال:

---

[1] أباطيل وأسمار ص319.
[2] أباطيل وأسمار ص351.
[3] جمهرة مقالات محمود شاكر (2/866)
[4] جمهرة مقالاته ج2 ص946.

"فلن تقهر أمة عقيدتها أن الموت أوسع الجانبين وأسعدهما". [1]

" قيل للرافعي – رحمه الله –: هل تكره الموت؟ فقال: لا، بل أكرهُ ذُنوبي، أما الموت فهو اكتشاف العالم الأكبر، نسأل الله حسن الخاتمة.
وقيل له ما وصيتك إذا حضرتك الوفاة؟ فقال: هي تكرار مبدأي الذي وضعته لأولادي: النجاح لا ينفعنا بل ينفعُنا الامتياز في النجاح". [2]

" وما أشبه فراغ الرجولة من المرأة بفراغ العقل من الذكاء؛ هذا هو العقل البليد، وتلك هي الرجولة البليدة! والمرأة تُضاعف معنى الحياة في النفس، فلا جرم كان الخلاءُ منها مضاعفة لمعنى الموت؛ علم هذا من علم وجهله من جهل!". [3]

" في الحياة الدنيا يكون الإنسان ذاتاً تعملُ أعمالَها؛ فإذا انتهت الحياة انقلبت أعمالُ الإنسان ذاتاً يُخَلَّد هو فيها؛ فهو من الخير خالدٌ في الخير، ومن الشر هو خالدٌ في الشر؛ فكأن الموتَ إنْ هو إلا ميلادٌ للروح من أعمالها؛ تولد مرتين: آتيةً وراجعة". [4]

"فالاطمئنان بالإيمان هو قتل الخوف الدنيوي بالتسليم والرضى، أو تحويله عن معناهُ بِجَعْلِ البلاء ثوابا وحسنات، أو تجريده من أوهامه باعتبار الحياة سائرة بكل ما فيها إلى الموت". [5]

"وما الحرب إلا أن يتنازع الناس على الحياة فيقيموا الموت قاضياً ويطلبوا من الشريعة المدونة في صفائح السيوف حكما على الحياة ماضية، فكلا الفريقين يقدم الحجج، من المهج،

---

[1] وحي القلم.
[2] كلمة وكليمة لمصطفى صادق الرافعي
[3] وحي القلم ج2، ص 101.
[4] وحي القلم ج2، ص 132.
[5] وحي القلم ج2، ص 80.

ويتكلم بألسنة الروح من أفواه الجروح، ويأتي من بلاغة الموت في خصامه من كل ضرب ويجري الحياة مجرى الاستعارة في بيان الحرب". [1]

"وإن أعجب ما في الإنسان أنه يرى الموت والموتى بين الساعة والساعة، ثم لا يستشعر من كل ذلك معنى زواله، كأن عادة الحياة أخمدت هذا الحس فيه!". [2]

"الروح لا تعرف شيئا اسمه الموت، ولا شيئا اسمه الوجع؛ وإنما تعرف حظها من اليقين، وهدوءها بهذا الحظ، واستقرارها مؤمنةً ما دامت هادئةً مستيقنة". [3]

" ومتى اعتبرْنا الشَّقاءَ الإنسانيَّ وما يعترضُ الإنسانَ في طريقِ الحياةِ، رأينا الحقَّ الّذي لا مِريةَ فيه أنّ هذا الإنسانَ حينَ تمشي راحلتُهُ إلى القبرِ؛ لا يكونُ قدِ انْتهى من الحياةِ كما يقال، ولكنّهُ ينتهي حينَئذٍ من الموتِ!". [4]

" ولو أيقن الشّباب أن فرائض هذا الدّين ليست إلاّ وسائل علمية لامتلاء النفس بمعاني التقديس! ولو فهم الشباب أن ليس في الكون إلاّ هذه المعاني تجعل النّفس فوق المادّة وفوق الخوف وفوق الذّل وفوق الموت نفسه". [5]

ويقول علي الطنطاوي رحمه الله: "الإنسانُ ينسى الموتَ، ولكنَّ المؤمنَ يذكُرُه دائماً، ويكونُ أبداً على استعدادٍ لاستقبالِه؛ يستعِدُّ بالتَّوبةِ، والاستغفارِ، وردِّ الحقوقِ". [6]

---

[1] الرافعي، كتاب المساكين (الحرب) ص53.

[2] أوراق الورد ص 205.

[3] وحي القلم، ج1، ص54.

[4] كتاب المساكين، ص33.

[5] وحي القلم، ج2، ص208

[6] تعريف عام بدين الإسلام ص130.

"نصلي على الأموات ونشيّع الجنائز ونحن نفكر في أمور الدنيا، كأنّا مخلدون فيها، وكأن الموت كتب على الناس كلهم إلا علينا!".[1]

" إنَّ الموتَ في حقيقتِه وِلادةٌ وانتقالٌ إلى مرحلةٍ أرحَبَ وأوسَعَ، وكلُّ وِلادةٍ فيها ألَمٌ".[2]

" وكان الموت بعيداً عن فكري، والموت -أبداً- أبعد شيء في أفكارنا عنا، وإن كان أقرب شيء في حقيقته منا، نتناساه وهو عن أيماننا وشمائلنا، نشيّع الجنائز ونمشي معها ونحن في غفلة عنها نتكلم كلام الدنيا، ونرى مواكب الأموات تمر بنا كل يوم فلا نفكر ولا نعتبر، ولا نقدّر أننا سنموت كما ماتوا ومات من كان أصح منا صحة وكان أشد منا قوة وأكبر سلطاناً وأكثر أعواناً، فما دفعت عنه الموتَ -لما جاءه- صحتُه ولا قوته ولا حماه منه سلطانه ولا أعوانه، نعرف بعقولنا أن الموت كأس سيشرب منها".[3]

" مهما جمعت من الدنيا وحققت من الأمنيات لن تجد أجمل من أمنية يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)﴾ [يوسف: 101]".[4]

" الحقّ لا يُهزَم، والإسلام لا يُذلّ وأهله هم أصحاب العزّة. ولكن الله يمتحنهم لتقوّيهم المحن، أو يُؤدّبهم في الدنيا ليُضعف لهم الأجر في الآخرة. أمّا الخاسر فهو الظالم، وإن له في الدنيا الويل، والذي ينتظره بعد الموت يجعله يتمنى هذا الويل".[5]

"{ولتنظر نفس ما قدمت لغد} لقد مر بي أكثر العمر ورأيت الحياة لم تبق متعة إلا استمتعت بها فلا اللذائذ دامت ولا الآلام، ولا الشهرة أفادت وما وجدت شيئاً يدوم ولم

---

[1] صور وخواطر، ص13.

[2] ذكريات علي الطنطاوي (7/311).

[3] حديث النفس، ص284.

[4] تنسب لعلي الطنطاوي.

[5] ذكريات الطنطاوي 1/213

يبق من دنياي إلا مطلب واحد: يقظة قلب أدرك بها حقائق الوجود وغاية الحياة وأستعد بها لما بعد الموت".[1]

" تمسكوا بأحبتكم جيداً، وعبروا لهم عن حبكم، واغفروا زلاتهم فقد ترحلون أو يرحلون يوما وفي القلب لهم حديث وشوق... واحذروا أن تخيطوا جراحكم قبل تنضيفها من الداخل (ناقشوا، بررروا، اشرحوا، اعترفوا، تنازلوا) فالحياة قصيرة جداً لا تستحق الحقد، الحسد، البغض وقطع الرحم... غداً سنكون ذكرى فقط، والموت لا يستأذن أحدا، فابتسموا وسامحوا كل من أساء إليكم".

"وقد رأيت أنا الموت مرتين، وعرفت ما شعور الميت، لقد ندمت على كل دقيقة أضعتها في غير طاعة إي والله. فلما نجوت بقيت على هذا الشعور شهوراً، صرت فيها صالحاً ثم انغمست مرة ثانية في غمرة الحياة. ونسيت... نسيت الموت". [2]

"ولو شئت لكنت من المشايخ الذين تُقبَّل أيديهم ثم تُملأ بالمال، فيملكون الضياع والسيارات ويصيرون -بحِرفة الدين- من كبار أبناء الدنيا! ولكني ما وجدت شيئاً يدوم. تذهب الوزارة فلا تترك إلاّ حسرة في نفوس أصحابها، ويصحو الناس فيعلمون أن الذي يأكل الدنيا بالدين لا يمكن أن يكون من الصالحين المصلحين... فزهدت في المناصب والمراتب والمِشْيَخات، وهانت عليّ وصَغُرت في عيني، ولم يبقَ لي من دنياي (الآن) إلاّ مطلب واحد: يقظة قلب أدرك بها حقائق الوجود وغاية الحياة وأستعد بها لما بعد الموت".[3]

" هل يُغلَب شعبٌ وطَّنَ نفسَه على الموت؟!". [4]

---

[1] كتاب من حديث النفس، ص، 275.

[2] تعريف عام بدين الإسلام، ص20.

[3] من حديث النفس، ص 276.

[4] بغداد ذكريات و مشاهدات، ص68.

" يحكم على الرجلين بالموت... فيجزع هذا ويفزع فيموت ألف مرة من قبل الممات ويملك ذلك أمره ويحكم فكره فإذا لم تنجه من الموت حيلته لم يقتله قبل الموت وهمه"[1].

قال فريد الأنصاري صاحب "في جمالية الموت" من كتابه "جمالية الدين"، الذي قال فيه قبيل موته بساعات معدودة رحمه الله: "﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: 185] هكذا (ذائقة!) فلا أحد ينبئك عن جوهرها إلا أن تدخل بابها! وإنا لداخلوه ذوقاً خاصاً، أنا وأنت و.. عما قريب! وبمجرد حصول الذوق، تدرك الحقيقة، كاملة وتنزاح عنك الحجب ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)﴾ [ق: 22]. [2]

وقال في نفس الكتاب: "الموت حقيقة من أغرب الحقائق الوجودية وأرهبها، ولو نظرت قريباً هناك في سجون الهواجس التي تعتقل أولئك الذين لا يؤمنون بالروح، لوجدت حيرة كبرى وتخبطا مظلما!".[3]

وقال أيضا:"جمالُ الموت في الإسلام هو متعةُ الوصول! الموتُ باب الدخول إلى وعد اللهِ الكريم وإنما يخافُ عندئذٍ المكذبون ولا خوفَ على مَن آمنَ بالله ثُم استقام".

"الموت لحظة من الجمال الروحي، تدخل بالسرور على أهل الشوق والمحبة، من الصديقين والشهداء والصالحين!".

"الموت بالنسبة للمؤمن جمال آخر، ينتقل فيه من مشاهدة الخلود إلى حياة الخلود، ومن عين اليقين إلى حق اليقين!".

---

[1] صوروخواطر، ص 19.

[2] جمالية الدين، ص142.

[3] جمالية الدين، ص141.

"﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)﴾ [الجمعة: 8] فيا صاح! إنك راحل إلى الله حتمًا، وما عمرك هذا المتناثر بين يديك صباح مساء، إلا دلالة صريحة على السير الحثيث، فبعد قليل ستنتهي الرحلة، ونقف على محطة القبر – أنا وأنت– لنلج عالم البرزخ، في انتظار أجيال الخلائق لليوم الموعود".

"كثير من سفهاء الناس اليوم يصورون المنتحرين من المفكّرين الفاشلين والشعراء المنهزمين أبطالًا، ويعلم الله أنهم أجبن مَن فكّر في حقيقة الموت!".

ومما قاله رحمه الله أن اليهود ابتلاهم الله بالعقيدة العِجلية، ومفادها حب الحياة وكراهية الموت، والمسلم يجب أن لا يعتقد بها أبداً ولو اقتضى الأمر أن يموت دون دينه وكرامته.

وقال مصطفى السباعي: "إذا خوفك الشيطان من الموت والقتل؛ فرده بالأجل المكتوب {فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون}. [1]

"كل إنسان كتب عليه الموت لا محالة، وأشرف أنواع الموت: الموت في سبيل الله والحق، وأحقر أنواع الموت :الموت في شهوات البطن والفرج"[2].

" لا بد أن تفارق جسمك مرغماً، مهما طال بك العمر، فاحرص على أن تفارقه الفينة بعد الفينة، طائعاً مختاراً، تخفِّف عنك غُصص مفارقته عند الموت، وتعوِّض عليه ما هو خير منه بعد"[3].

" وموطن واحد لا تعلق قلبك فيه إلا باثنين: عمرك، لا تحب فيه إلا الله ورسوله. ووقت واحد لا تفعل فيه إلا شيئاً واحداً: ساعة الموت، لا ترج فيها إلا رحمة الله"[4].

---

[1] هكذا علمتني الحياة، ص 81.

[2] هكذا علمتني الحياة، ص 271.

[3] هكذا علمتني الحياة، ص، 157.

[4] هكذا علمتني الحياة، ص 97.

قال مصطفى السباعي يرثي نفسه على فراش الموت:

أهاجـــكَ الوجـــدُ أم شـــاقتك آثار؟ كانـــت مَغـــاني، نِعـــمَ الأهـــل والـــدارُ
ومـــا لعينـــك تبكـــي حُرقـــةً وأسًـــى ومـــا لقلبـــك قـــد ضـــجّت بـــه النـــار
علـــى الأحِبّـــة تبكـــي أم علـــى طلـــل؟ لم يبـــــقَ فيـــــه أحِبّـــــاءٌ وسُمّـــــارُ
وهـــل مـــن الـــدهر تبكـــي ســـوء عشـــرته؟ لم يـــــوف حقـــــا ولم يهـــــدأ لـــــه ثار

وقال المنفلوطي:

" لا تَطلبـوا المَنْزلـةَ بـينَ المنـزلَتين، ولا الواسـطة بـين الطـرفين ولا العـيشَ الـذي هُـو بالمـوت أشـبهُ منـهُ بالحيـاة بـل اطلبـوا إمّـا الحيـاة أبـداً وإمـا المـوت أبـداً. المسـتميت لا يمـوت، والمسـتقتل لا يُقتـل، ومـن يهلِـك في الإدبار أكثـر ممـن يهلـك في الإقـدام، فـإن كنـتم لا بـد تطلبـون الحيـاة فانتزعوها من بين ماضغي الموت"[1].

"لـولا السـرور في سـاعة المـيلاد مـا كـان البكـاء في سـاعة المـوت، ولـولا الوثـوق بـدوام الغـنى مـا كان الجزع من الفقر، ولولا فرحة التلاق، ما كانت ترحة الفراق"[2].

"أسـعد النـاس مـن إذا وافتـه النعمـة، نظـر إليهـا نظـر المسـتريب وترقـب زوالهـا، فـإن بقيـت بيـده فـذاك، وإلا فقـد أعـد لفراقهـا عدتـه. لـولا السـرور في سـاعة المـيلاد مـا كـان البكـاء سـاعة المـوت، ولـولا الوثـوق بـدوام الغـنى مـا كـان الجـزع مـن الفقـر، ولـولا فرحـة الـتلاق مـا كانـت ترحـة الفراق"[3].

---

[1] النظرات (153/2)
[2] النظرات، (91/1)
[3] المصدر السابق.

"كلَّ يوم نرى الموت، ولا نزال نَعُدُّ الموت غريباً، هيهات! لا غرابة في الموت، ولكن الغريب موت الغريب"[1].

" أيها الإنسان: ارحم الأرملة التي مات عنها زوجها ولم يترك لها غير صبيةٍ صغار، ودموعٍ غزار، قبل أن ينال اليأس منها ويعبث الهم بقلبها فتفضل الموت على الحياة"[2].

" إن الأعداء إن ملكوا عليكم طريق الحياة لا يملكون عليكم طريق الموت". [3]

وكتب الشيخ عبدالرحمن علي الحَجّي رحمه الله عن الموت في التاريخ الأندلسي:
"واجه المورسكيون شنائع محاكم التفتيش بكل شجاعة، منهم الشاب خوان الابن من عائلة الكامبنيرو[4] التي نُكِّل بها في سرقسطة، عندما حُكِمَ عليه بالموت حَرْقاً بالنار مع غيره عام 1582م (990هـ)، رمى الصليب الذي أُجبر على حَمْله ورفع سبابته يقرأ الشهادة قبل الموت[5]

ومن مرثية ابن دريد للإمام الطبري:

ما زال يلهج بالأموات يكتبها  حتى غدا وهو في الأموات مكتوبا

ويروي ياقوت من هذا الشعر:

ما زلت تكتب في التاريخ مجتهداً  حتى رأيتك في التاريخ مكتوباً

وفي الأبيات ذكر الموت الكثير، قال الحافظ عبد الحق الإشبيلي وهو من أهل الحديث:

---

[1] النظرات (10/2)

[2] مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة، ص: 88.

[3] (269/3)

[4] Compañero

[5] أندلسيات، ص 208

**حقيقة الموت ..**

إن في المـــوت والمعـــاد لشـــغلا وادكـــارا لـــذي النهـــى وبلاغـــا
فـــاغتنم خطتـــين قبـــل المنـــايا صـــحة الجســـم يا أخـــي والفراغـــا

وقال أبو العتاهية:

لعَمْـــرُكَ، مـــا الـــدّنيا بـــدارِ بَقَـــاءِ كَفَـــاكَ بـــدارِ المـــوْتِ دارَ فَنَـــاءِ
فـــلا تَعشَـــقِ الـــدّنْيا، أُخـــيَّ، فإنّمـــا يُـــرَى عاشِـــقُ الـــدُّنيَا بجُهْـــدِ بَـــلاَءِ
حَلاَوَتُهَـــا ممزَوجَـــةٌ بمـــرارةٍ ورَاحتُهَـــا ممزوجَـــةٌ بِعَنـــاءِ
فَـــلا تَمْـــشِ يَوْمـــاً في ثِيـــابِ مَخيلَـــةٍ فإنَّـــكَ مـــن طـــينٍ خلقـــتَ ومَـــاءِ
لَقَـــلّ امـــرُؤٌ تَلقـــاهُ لله شـــاكِراً وقـــلَّ امـــرؤٌ يرضَـــى لـــهُ بقضَـــاءِ
ولله نَعْمَـــاءٌ عَلَينـــا عَظيمَـــةٌ ولله إحســـانٌ وفضـــلُ عطـــاءِ
ومَـــا الـــدهرُ يومـــاً واحـــداً في اختِلاَفِـــهِ ومَـــا كُـــلُّ أيامِ الفـــتى بسَـــوَاءِ
ومـــا كـــلّ مـــا لم أرْجُ أُحـــرَمُ نَفْعَـــهُ ومـــا كـــلّ مـــا أرْجـــوهُ أهـــلُ رَجـــاءِ

وقال الإمام الشافعي:

دَعِ الأَيّامَ تَفعَـــلُ مـــا تَشـــاءُ وَطِـــب نَفســـاً إذا حَكَـــمَ القَضـــاءُ
وَلا تَجـــزَع لِحادِثَـــةِ اللَيـــالي * فَمـــا لِحَـــوادِثِ الـــدُنيا بَقـــاءُ
وَكُـــن رَجُـــلاً عَلـــى الأَهـــوالِ جَلـــداً وَشـــيمَتُكَ السَـــماحَةُ وَالوَفـــاءُ
وَإِن كَثُـــرَت عُيوبُـــكَ في الـــبَرايا وَسَـــرَّكَ أَن يَكـــونَ لَهـــا غِطـــاءُ
تَسَـــتَّر بِالسَـــخاءِ فَكُـــلُّ عَيـــبٍ يُغَطّيـــهِ كَمـــا قيـــلَ السَـــخاءُ
وَلا تُـــرِ لِلأَعـــادي قَـــطُّ ذُلّاً فَـــإِنَّ شَماتَـــةَ الأَعـــدا بَـــلاءُ
وَلا تَـــرجُ السَـــماحَةَ مِـــن بَخيـــلٍ فَمـــا في النـــارِ لِلظَمـــآنِ مـــاءُ
وَرِزقُـــكَ لَـــيسَ يُنقِصُـــهُ التَـــأَنّي وَلَـــيسَ يَزيـــدُ في الـــرِزقِ العَنـــاءُ

**حقيقة الموت ..**

وَلا حُـــــزنٌ يَـــــدومُ وَلا سُـــــرورٌ وَلا بُـــــؤسٌ عَلَيـــــكَ وَلا رَخـــــاءُ
إِذا مـــــا كُنـــــتَ ذا قَلـــــبٍ قَنـــــوعٍ فَأَنـــــتَ وَمالِـــــكُ الـــــدُنيا سَـــــواءُ
وَمَـــــن نَزَلَـــــت بِســـــاحَتِهِ المَنِـــــايا فَـــــلا أَرضٌ تَقيـــــهِ وَلا سَمـــــاءُ
وَأَرضُ اللهِ واسِـــــــعَةٌ وَلَكِـــــــن إِذا نَـــــزَلَ القَضـــــا ضـــــاقَ الفَضـــــاء
دَعِ الأَيّامَ تَغـــــدِرُ كُـــــلَّ حِـــــينٍ فَمـــــا يُغـــــني عَـــــنِ المَـــــوتِ الـــــدَواءُ

وقال أحمد شوقي:

ولم تضُـــــقِ الحيـــــاة بنـــــا ولكـــــن زِحـــــام الســـــوء ضـــــيَّقها مجـــــالا
ولم تقتـــــل براحتهـــــا بنيهـــــا ولكـــــن ســـــابقوا المـــــوت اِقتتـــــالا
ولـــــو زاد الحيـــــاة النـــــاس ســـــعياً وإِخلاصـــــاً لـــــزادتهم جمـــــالا
كـــــأنَّ الله إِذ قســـــم المعـــــالي لأَهـــــلِ الواجـــــب اِدَّخـــــر الكمـــــالا
تـــــرى جـــــدّاً ولســـــت تـــــرى علـــــيهِم وُلوعـــــاً بِالصـــــغائرِ واِشـــــتغالا
ولَيســـــوا أَرغَـــــد الأَحيـــــاء عيشـــــاً ولكـــــن أَنعـــــم الأَحيـــــاء بالا
إِذا فَعلـــــوا فخـــــيرُ النـــــاسِ فِعـــــلاً وَإِن قـــــالوا فَـــــأَكرمُهُم مَقـــــالا

وقال أيضا:

خلقنـــــا للحيـــــاةِ وللممـــــاتِ ومـــــن هـــــذين كـــــلُّ الحـــــادثاتِ
ومـــــنْ يولـــــدْ يعـــــش ويمـــــتْ كـــــأن لمْ يَمُـــــرّ خيالُـــــهُ بالكائنـــــاتِ
نـــــروَّعُ مـــــا نـــــروَّعُ، ثم نرمـــــى بســـــهمٍ مـــــن يـــــدِ المقـــــدورِ آتي
ولـــــو أن الجهـــــاتِ خلقـــــن ســـــبعاً لكـــــان المـــــوتُ ســـــابعةَ الجهـــــاتِ

وقال حافظ إبراهيم:

سلامٌ على الإسلامِ بعدَ محمّدٍ ... سلامٌ عَلى أَيّامِهِ النضِراتِ
على الدينِ والدُنيا، على العِلمِ والحِجا ... على البِرِّ والتقوى على الحسَناتِ
لقَد كنتُ أخشى عادِيَ الموتِ قبلَهُ ... فأَصبَحتُ أخشى أَن تَطولَ حياتي

وقال ابن عبد ربه:

ألا إنَّما الدُّنيا كأحلامِ نائمٍ ... وما خيرُ عيشٍ لا يكونُ بدائمِ
تأمَّلْ إذا ما نِلتَ بالأمسِ لذَّةً ... فأفنَيْتَها، هل أنتَ إلا كحالِمِ
وما الموتُ إلا شاهدٌ مِثلُ غائبٍ ... وما النَّاسُ إلا جاهلٌ مثلُ عالِمِ
جادتْ لك الدُّنيا بنعمةِ عيشِها ... وكفاكَ مِنها مثلُ زاد الراكِبِ

وقال حسان بن ثابت ﵁ يبكي رسول الله ﷺ، فيما حدثنا ابن هشام، عن أبي زيد الأنصاري:

بطيبة رسم للرسول ومعهد ... منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولا تمتحي الآيات من دار حرمة ... بها منبر الهادي الذي كان يصعد
وواضح آثار وباقي معالم ... وربع له فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها ... من الله نور يستضاء ويوقد
معارف لم تطمس على العهد آيها ... أتاها البلى فالآي منها تجدد
عرفت بها رسم الرسول وعهده ... و قبرا بها واراه في الترب ملحد
ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت ... عيون ومثلاها من الجفن تسعد
يذكرن آلاء الرسول وما أرى ... لها محصيا نفسي فنفسي تبلد

مفجعـــة قـــد شـــفها فقـــد أحمـــد ... فظلـــــت لآلاء الرســـــول تعـــــدد
ومـــا بلغـــت مـــن كـــل أمـــر عشـــيره ... ولكـــن لنفســـي بعـــد مـــا قـــد توجـــد
أطالـــت وقوفـــا تـــذرف العـــين جهـــدها ... علـــى طلـــل القـــبر الـــذي فيـــه أحمـــد
فبوركـــت يا قـــبر الرســـول وبوركـــت ... بـــلاد ثـــوى فيهـــا الرشـــيد المســـدد
وبـــورك لحـــد منـــك ضـــمن طيبـــا ... عليـــه بنـــاء مـــن صـــفيح منضـــد
تهيـــل عليـــه الـــترب أيـــد وأعـــين ... عليـــه وقـــد غـــارت بـــذلك أســـعد
لقـــد غيبـــوا حلمـــا وعلمـــا ورحمـــة ... عشـــية علـــوه الثـــرى لا يوســـد
وراحـــوا بحـــزن لـــيس فـــيهم نبـــيهم ... وقـــد وهنـــت مـــنهم ظهـــور وأعضـــد
يبكـــون مـــن تبكـــي الســـماوات يومـــه ... ومـــن قـــد بكتـــه الأرض فالنـــاس أكمـــد
وهـــل عـــدلت يومـــا رزيـــة هالـــك ... رزيـــــة يـــــوم مـــــات فيـــــه مُحَمَّد
تقطـــع فيـــه منـــزل الـــوحي عـــنهم ... وقـــد كـــان ذا نـــور يغـــور وينجـــد
يـــدل علـــى الـــرحمن مـــن يقتـــدي بـــه ... وينقـــذ مـــن هـــول الخـــزايا ويرشـــد
إمـــام لهـــم يهـــديهم الحـــق جاهـــدا ... معلـــم صـــدق إن يطيعـــوه يســـعدوا
عفـــوا عـــن الـــزلات يقبـــل عـــذرهم ... وإن يحســـنوا فـــالله بالخـــير أجـــود
وإن ناب أمـــــر لم يقومـــــوا بحملـــــه ... فمـــن عنـــده تيســـير مـــا يتشـــدد
فبينـــا هـــم في نعمـــة الله بيـــنهم ... دليـــل بـــه نهـــج الطريقـــة يقصـــد
عزيـــز عليـــه أن يجـــوروا عـــن الهـــدى ... حـــريص علـــى أن يســـتقيموا ويهتـــدوا
عطـــوف علـــيهم لا يثـــني جناحـــه ... إلى كنـــف يحنـــو علـــيهم ويمهـــد
فبينـــا هـــم في ذلـــك النـــور إذ غـــدا ... إلى نـــورهم ســـهم مـــن المـــوت مقصـــد
فأصـــبح محمـــودا إلى الله راجعـــا ... يبكيـــه حـــتى المرســـلات ويحمـــد
وأمســـت بـــلاد الحـــرم وحشـــا بقاعهـــا ... لغيبـــة مـــا كانـــت مـــن الـــوحي تعهـــد
قفـــارا ســـوى معمـــورة اللحـــد ضـــافها ... فقيـــد يبكينـــه بـــلاط وغرقـــد
ومســـجده فالموحشـــات لفقـــده ... خـــلاء لـــه فيـــه مقـــام ومقعـــد
وبالجمـــرة الكـــبرى لـــه ثم أوحشـــت ... ديار وعرصـــات وربـــع ومولـــد

فبكـــى رســـول الله يا عـــين عـــبرة ... ولا أعرفنـــك الـــدهر دمعـــك يجمـــد
ومـــا لـــك لا تبكـــين ذا النعمـــة الـــتي ... علـــى النـــاس منهـــا ســـابغ يتغمـــد
فجـــودي عليـــه بالـــدموع وأعـــولي ... لفقـــد الـــذي لا مثلـــه الـــدهر يوجـــد
ومـــا فقـــد الماضـــون مثـــل مُحَمَّد ... ولا مثلـــه حـــتى القيامـــة يفقـــد
أعـــف وأوفى ذمـــة بعـــد ذمـــة ... وأقـــرب منـــه نائـــلا لا ينكـــد
وأبـــذل منـــه للطريـــف وتالـــد ... إذ ضـــن معطـــاء بمـــا كـــان يتلـــد
وأكـــرم صـــيتا في البيـــوت إذا انتمـــى ... وأكـــرم جـــدا أبطحيـــا يســـود
وأمنـــع ذروات وأثبـــت في العـــلا ... دعـــائم عـــز شـــاهقات تشـــيد
وأثبـــت فرعـــا في الفـــروع ومنبتـــا ... وعـــودا غـــذاه المـــزن فـــالعود أغيـــد
رباه وليـــدا فاســـتتم تمامـــه ... علـــى أكـــرم الخـــيرات رب ممجـــد
تناهـــت وصـــاة المســـلمين بكفـــه ... فـــلا العلـــم محبـــوس ولا الـــرأي يفنـــد
أقـــول ولا يلقـــى لقـــولي عائـــب ... مـــن النـــاس إلا عـــازب العقـــل مبعـــد
ولـــيس هـــواي نازعـــا عـــن ثنائـــه ... لعلـــي بـــه في جنـــة الخلـــد أخلـــد
مـــع المصـــطفى أرجـــو بـــذاك جـــواره ... وفي نيـــل ذاك اليـــوم أســـعى وأجهـــد

وقال حسان بن ثابت أيضا يبكي رسول الله ﷺ:

مـــا بال عينـــك لا تنـــام كأنمـــا ... كحلـــت مـــا فيهـــا بكحـــل الأرمـــد
جزعـــا علـــى المهـــدي أصـــبح ثاويا ... يا خـــير مـــن وطـــئ الحصـــى لا تبعـــد
وجهـــي يقيـــك الـــترب لهفـــي ليتـــني ... غيبـــت قبلـــك في بقيـــع الغرقـــد
بأبي وأمـــي مـــن شـــهدت وفاتـــه ... في يـــوم الاثنـــين النـــبي المهتـــدي
فظللـــت بعـــد وفاتـــه متبلـــدا ... متلـــددا يا ليتـــني لم أولـــد
أأقـــيم بعـــدك بالمدينـــة بيـــنهم ... يا ليـــني صـــبحت ســـم الأســـود
أو حـــل أمـــر الله فينـــا عـــاجلا ... في روحـــة مـــن يومنـــا أو مـــن غـــد

فتقـــوم ســـاعتنا فنلقـــي طيبـــا محضـــا ضـــرائبه كـــريم المحتـــد
يا بكـــر آمنـــة المبـــارك بكرهـــا ولدتـــه محصـــنة بســـعد الأســـعد
نـــورا أضـــاء علـــى البريـــة كلهـــا مـــن يهـــد للنـــور المبـــارك يهتـــدي
يا رب فاجمعنـــا معـــا ونبينـــا في جنـــة تثـــني عيـــون الحســـد
في جنـــة الفـــردوس فاكتبهـــا لنـــا يا ذا الجـــلال وذا العـــلا والســـؤدد
والله اسمـــع مـــا بقيـــت بهالـــك إلا بكيـــت علـــى النـــبي مُحَمَّد
يا ويـــح أنصـــار النـــبي ورهطـــه بعـــد المغيـــب في ســـواء الملحـــد
ضـــاقت بالأنصـــار الـــبلاد فأصـــبحوا ســـودا وجـــوههم كلـــون الإثمـــد
ولقـــد ولـــدناه وفينـــا قـــبره وفضـــول نعمتـــه بنـــا لم نجحـــد
والله أكرمنـــا بـــه وهـــدى بـــه أنصـــاره في كـــل ســـاعة مشـــهد
صـــلى الإلـــه ومـــن يحـــف بعرشـــه والطيبـــون علـــى المبـــارك أحمـــد

وللشريف الرضي أبيات يرثي فيها زوجه فيقول:

ذكرتـــك ذكـــرة لا ذاهـــل ولا نازع قلبـــه والجنـــان
أعـــاود منـــك عـــداد الســـليم فيـــا ديـــن قلـــبي مـــاذا يـــدان
فيـــا أثـــر الحـــب إني بقيـــت وقـــد بان فـــيمن أحـــب العيـــان
وقـــالوا تســـل بأترابهـــا فـــأين الشـــباب وأيـــن الزمـــان

وترثي فاطمة بنت أحجم الخزاعية زوجها فتقول:

يا عـــين بكّـــي عنـــد كـــل صـــباحِ جـــودي بأربعـــةٍ علـــى الجـــرّاحِ
قـــد كنـــت لي جـــبلاً ألـــوذُ بظلـــه فتركتـــني أضـــحى بأجـــرد ضـــاحي

قـد كنـت ذات حميـةٍ مـا عشـتَ لي أمشـي الـبرازَ وكنـت أنـت جنـاحي
فـاليوم أخضـع للـذليل وأتقـي منـه وأدفـع ظـالمي بالـراحِ
وأغـضّ مـن بصـري وأعلـم أنـه قـد بان حـد فوارسـي ورمـاحي
وإذا دعـت قمريـة شـجناً لهـا يومـاً علـى فـنن دعـوت (صـباحي)

وهذه أم السليك ترثي ابنها فتقول:

طـافَ يَبغـي نجـوةً مـن هـلاكٍ فَهَلَـك
لَيـت شِـعري ضـلّةً أيّ شـيءٍ قَتَلـك
أَمـريض لم تُعَـد أم عـدوٌّ خَتَلَـك
أَم تـولّى بـكَ مـا غـال في الـدهرِ السُّـلَك
وَالمنـايا رصـدٌ لِلفَـتى حَيـثُ سَـلَك
أيّ شـيءٍ حسـن لِلفَـتى لَم يـكُ لَـك
كـلّ شـيءٍ قاتـلٌ حـينَ تلقـى أَجَلَـك
طـالَ مـا قَـد نلـت في غـيرِ كـدٍّ أَمَلـك
إنّ أَمـراً فادحـاً عَـن جَـوابي شَـغَلك
سَـأُعزّي الـنفسَ إذ لَم تُجِـب مَـن سَـأَلَك
لَيـتَ قَلـبي سـاعةً صـبرهُ عَنـك مَلَـك
لَيـتَ نَفسـي قُـدّمَت لِلمَنـايا بَـدَلَك

وتأمل حب الأخت لأخيها صخر في رثاء الخنساء وهي أم الرثاء في الشعر العربي:

يـذكرني طلـوع الشـمس صـخرا وأذكـره لكـل غـروب شمـس

ولـــولا كثـــرة البـــاكين حـــولي  علـــى إخـــوانهم لقتلـــت نفســـي
ولكـــــن لا أزال أرى عجـــــولا  وباكيـــة تنـــوح ليـــوم نحـــس
أراهـــا والهـــا تبكـــي أخاهـــا  عشـــية رزئـــه أو غـــب أمـــس
ومـــا يبكـــون مثـــل أخـــي ولكـــن  أعـــزي الـــنفس عنـــه بالتأســـي

ومن ذلك القصيدة التي قالها الشاعر أبو ذؤيب الهذلي في رثاء بنيه واستهلها بقوله:

أمـــن المنـــون وريبـــه يتفجـــع  والـــدهر لـــيس بمعتـــب مَـــن يجـــزع
أودى بـــني و أعقبـــوني حســـرة  بعـــد الرقـــاد وَعـــبرة مـــا تُقلـــع
ولقـــد حرصـــت بأن أدافـــع عـــنهم  واذا المنيّـــة أقبلـــت لا تُـــدفع
وإذا المنيـــة أنشـــبت أظفارهـــا  ألفيـــت كـــل تميمـــة لا تنفـــع
والـــنفس راغبـــة اذا رغّبتهـــا  واذا تُـــرد الى قليـــل تقنـــع

ونختم هذه القبسات بقصيدتين من أجود ما نظم في الرثاء، الأولى للشريف الرضا يرثي أمه، والثانية لأبرز وأشهر الشُّعَراء الذين رثوا أنفسهم، وهو مالكُ بن الريب صاحب اليائية المشهورة.

قال الشريف الرضا:

أبكيـــك لـــو نقـــع الغليـــل بكـــائي  وَأقُـــولُ لَـــوْ ذَهَـــبَ المِقـــالُ بِـــدائي
وَأعُـــوذُ بالصّـــبْرِ الجَميـــلِ تَعَـــزّياً  لَـــوْ كَـــانَ بالصّـــبْرِ الجَميـــلِ عَزائـــي
طـــوراً تكـــاثرني الـــدموع وتارة  آوي الى اكـــــرومتي وحيـــــائي
كـــم عـــبرة موهتهـــا بأناملـــي  وســـترتها مـــتجملاً بردائـــي
أبـــدي التجلـــد للعـــدو ولـــو درى  بتَمَلْمُلـــي لَقَـــدِ اشـــتَفَى أعـــدائي
مـــا كنـــت اذخـــر في فـــداك رغيبـــة  لـــو كـــان يرجـــع ميـــت بفـــداءِ

لــو كــان يــدفع ذا الحمــام بقــوة ... لتكدســت عصــب وراءَ لــوائي
بِمُــدَرَّبِينَ عَلــى القِــرَاعِ تَفَيَّــأُوا ... ظِــلَّ الرّمَــاحِ لكُــلّ يَــوْمِ لِقَــاءِ
قَــوْمٌ إذا مَرِهُــوا بِأغبــابِ السُّــرَى ... كَحَلُــوا العُيُــونَ بإثْمِــدِ الظّلْمَــاءِ
يَمشُــونَ في حَلَــقِ الــدّرُوعِ كــأنّهُمْ ... صــم الجلامــد في غــدير المــاءِ
بــبروق ادراع ورعــد صــوارم ... وغمــام قســطلة ووبــل دمــاءِ
فَارَقْــتُ فِيــكِ تَماسُــكي وَتَجَمّلــي ... ونســيت فيــك تعــززي وإبائــي
وَصَــنَعْتُ مَــا ثَلَــمَ الوَقَــارَ صَــنيعُهُ ... ممــا عــراني مــن جــوى البرحــاءِ
كــم زفــرة ضــعفت فصــارت أنــة ... تَمّمْتُهَــا بِتَــنَفّسِ الصُّــعَداءِ
لَهَفَــانَ أنْــزُو في حَبَائِــلِ كُرْبَــة ... مَلَكَــتْ عَلــيّ جَــلادَتي وَغَنَــائي
وجــرى الزمــان علــى عوائــد كيــده ... في قلــب آمــالي وعكــس رجــائي
قَــدْ كُنــتُ آمُــلُ أنْ أكــونَ لــكِ الفِــدا ... مِمّــا أَلَمّ، فكُنــتِ أنْــتِ فِــدائي
وَتَفَــرُّقُ البُعَــداءِ بَعْــدَ مَــوَدَّة ... صــعب فكيــف تفــرق القــرباءِ
وَخَلائِــقُ الــدّنْيَا خَلائِــقُ مُــومِسٍ ... للمنــع آونــة وللاعطــاءِ
طــوراً تبادلــك الصــفاء وتارة ... تَلْقَــاكَ تُنكِرُهَــا مِــنَ البَغضَــاءِ
وَتَــداوُلُ الأيّامِ يُبْلِينَــا كَمَــا يُبلــي ... الرّشَــاءَ تَطــاوُحُ الأرْجَــاءِ
وَكَــأنّ طُــولَ العُمْــرِ روحَــة رَاكِــبٍ ... قضــى اللغــوب وجــدّ في الاســراءِ
أنْضَــيتِ عَيشَــكِ عِفّــة وَزَهَــادَة ... وَطُرِحْــتِ مُثْقَلَــة مِــنَ الأعْبَــاءِ
بصِــيَامِ يَــوْمِ القَــيظِ تَلْهَــبُ شَمْسُــهُ ... وقيــام طــول الليلــة اللــيلاءِ
مــا كــان يومــا بالغبــين مــن اشــترى ... رغــد الجنــان بعيشــة خشــناءِ
لَــوْ كَــانَ مِثلَــكِ كُــلُّ أُمّ بَــرّة ... غــني البنــون بهــا عــن الآباءِ
كيــف الســلو وكــل موقــع لحظــة ... أثــر لفضــلك خالــد بازائــي
فَعَــلاتُ مَعــرُوفٍ تُقِــرّ نَــوَاظِرِي ... فَتَكُــونُ أجْلَــبَ جالِــبٍ لبُكــائي
مَــا مَــاتَ مَــنْ نَــزَعَ البَقَــاءَ، وَذِكْــرُهُ ... بالصّــالحاتِ يُعَــدّ في الأحْيَــاءِ
فبــأي كــف اســتجن واتقــي صَــرْفَ ... النّوَائِــبِ أمْ بِأيّ دُعَــاءِ

ومـــن الممـــول لي إذا ضـــاقت يـــدي ... ومـــــن المعلـــــل لي مـــــن الادواءِ
ومـــن الـــذي إن ســـاورتني نكبـــة ... كَـــانَ المـــوَقّي لي مِـــنَ الأسْـــوَاءِ
أمْ مَـــنْ يَلِـــطّ عَلـــيّ سِـــتْرَ دُعَائِـــهِ ... حَرَمـــاً مِـــنَ البَأسَـــاءِ وَالضّـــرّاءِ
رُزءانِ يَـــزْدادانِ طُـــولَ تَجَـــدّدٍ ... أبَـــدَ الزّمَـــانِ: فَناؤهـــا وَبَقـــائي
شـــهد الخلائـــق إنهـــا لنجيبـــة ... بـــدَليلِ مَـــنْ وَلَـــدَتْ مِـــنَ النُّجَبَـــاءِ
في كـــل مظلـــم ازمـــة أو ضـــيقة ... يَبْـــدُو لهَـــا أثَـــرُ اليَـــدِ البَيْضَـــاءِ
ذَخَـــرَتْ لَنـــا الـــذّكرَ الجَميـــلَ ... إذا انقضَـــى مـــا يـــذخر الآباء للابنـــاءِ
قَـــدْ كُنْـــتُ آمُـــلُ أنْ يَكُـــونَ أمامَهـــا ... يـــومي وتشـــفق ان تكـــون ورائـــي
آوي الى بـــــرد الظـــــلال كـــــأنني ... لِتَحَرّقـــــــي آوِي إلى الرّمضَـــــــاءِ
وأهـــب مـــن طيـــب المنـــام تفزعـــاً ... فـــزع اللـــديغ نبـــا عـــن الإغفـــاءِ
آبَاؤكِ الغُـــــرّ الّـــــذِينَ تَفَجّـــــرَتْ ... بِهِـــمُ يَنَـــابيعٌ مِـــنَ النّعْمَـــاءِ
مِـــــنْ نَاصِـــــرٍ للحَـــــقّ أوْ داعٍ ... إلى ســـبل الهـــدى أو كاشـــف الغمـــاءِ
نزلـــوا بعرعـــرة الســـنام مـــن ... العلـــى وَعَلَـــوا عَلـــى الأثْبَـــاجِ وَالأمْطَـــاءِ
مـــن كـــل مســـتبق اليـــدين الى النـــدى ... وَمُسَـــــــدِّدِ الأقْـــــــوَالِ وَالآرَاءِ
يُرْجَـــى عَلـــى النّظَـــرِ الحَدِيـــدِ تَكَرّمـــاً ... ويخـــاف في الاطـــراق والاغضـــاءِ
دَرَجُـــوا عَلـــى أثَـــرِ القُـــرُونِ وَخَلّفُـــوا ... طُرُقـــاً مُعَبَّـــدَة مِـــنَ العَلْيَـــاءِ
يا قـــــبر امنحـــــه الهـــــوى واود ... لـــو نزفـــت عليـــه دمـــوع كـــل سمـــاءِ
لا زَالَ مُرْتَجِـــزُ الرّعُـــودِ مُجَلْجِـــلٌ ... هَـــزِجُ البَـــوَارِقِ مُجلِـــبُ الضّوْضَـــاءِ
يرغـــو رغـــاء العـــود جعجعـــه ... السـرى وَيَنُـوءُ نَـوْءَ المقـرِبِ العُشَـرَاءِ
يقتـاد مثقلـة الغمـام كانمـا ... ينهضـن بالعقـــــــدات والانقـــــــاءِ
يهفـو بهـا جـنح الـدجى ويسـوقها ... ســـوقَ البِطَـــاءِ بِعاصِـــفٍ هَوْجَـــاءِ
يرميـــك بارقهـــا بافـــلاذ الحيـــا ... وَيَفُـــضّ فِيـــكَ لَطـــائِمَ الأنْـــداءِ
متحليـاً عـذراء كـل سـحابة تَغْـذُو ... الجَمِـــيمَ برَوْضَـــة عَـــذْرَاءِ
للومـــت ان لم اســـقها بمـــدامعي ... وَوَكَلْـــتُ سُـــقْيَاهَا إلى الأنْـــوَاءِ

لهفـــي علـــى القـــوم الألى غـــادرتهم ... وعلـــيهم طبـــق مـــن البيـــداءِ
مُتَوَسّـــدِينَ عَلـــى الخُـــدُودِ كَأنّمَـــا ... كرعـــوا علـــى ظمـــأ مـــن الصـــهباءِ
صـور ضـننت علـى العيـون بلحظهـا ... أمْسَـــيْتُ أُوقِرُهـــا مِـــنَ البَوْغَـــاءِ
وَنَـــوَاظِرٌ كَحَـــلَ التُّـــرَابُ جُفُونَهَـــا ... قـــد كنـــت أحرســـها مـــن الأقـــذاءِ
قربـــت ضـــرائحهم علـــى زوارهـــا ... ونأوا عـــن الطـــلاب أي تنـــائي
وابـــئس مـــا تلقـــى بعقـــر ديارهـــم ... أُذْنُ المِصِـــيخِ بِهَـــا وَعَـــينُ الرّائـــي
معروفـــك الســـامي أنيســـك كلمـــا ... وَرَدَ الظّـــلامُ بوَحشَـــة الغَبْـــرَاءِ
وضـياءُ مـا قدمتـه مـن صـالح لـك ... في الـــدجى بـــدل مـــن الاضـــواءِ
إنّ الـــذي أرْضَـــاهُ فِعلُـــكِ لا يَـــزَلْ ... تُرْضِـــيكِ رَحْمَتُـــهُ صَـــبَاحَ مَسَـــاءِ
صَلّى عَلَيكِ، وَما فَقَدْتِ صَلاتَهُ قَبلَ ... الـــرّدَى، وَجَـــزاكِ أيّ جَـــزَاءِ
لَـوْ كَـانَ يُبلِغُـكِ الصّـفيحُ رَسَـائِلي ... أو كـــان يســـمعك الـــتراب نـــدائي
لَسَـــمِعتِ طُـــولَ تَأوّهـــي وَتَفَجّعـــي ... وعلمـــت حســـن رعـــايتي ووفـــائي
كَـــانَ ارْتِكاضِـــي في حَشـــاكِ مُسَـــبِّباً ... رَكـــضَ الغَليـــلِ عَلَيـــكِ في أحشـــائي

ورثاء مالك بن الريب لنفسه:

ألا ليـــتَ شِعـــري هـــل أبيـــتَنَّ ليلـــةً ... بجنـب الغضَـى أُزجـي الِقـلاصَ النواجيـا
فَليـتَ الغضـى لم يقطـع الركـبُ عرْضَـه ... وليـت الغضـى ماشـى الرِّكـاب لياليـا
لقد كان في أهل الغضى لو دنا الغضى ... مـــزارٌ ولكـــنَّ الغضـــى لـــيس دانيـــا
ألم تـــرَني بِعـــتُ الضـــلالةَ بالهـــدى ... وأصـبحتُ في جـيش ابـن عفّـانَ غـازيا
وأصـبحتُ في أرض الأعـاديَّ بعـد مـا ... أرانيَ عـــن أرض الآعـــاديّ قاصِـــيا
دعـاني الهـوى مـن أهـل أُودَ وصُـحبتي ... بـــذي (الطِّبَّسَـــيْنِ) فالتفـــتُّ ورائيـــا
أجبـــتُ الهـــوى لمـــا دعـــاني بزفـــرةٍ ... تقنَّعـــــتُ منهـــــا أن أُلامَ ردائيـــــا
أقـول وقـد حالـتْ قُـرى الكُـردِ بيننـا ... جـزى اللهُ عمـراً خـيرَ مـا كـان جـازيا

إنِ اللهُ يُـــرجعني مـــن الغـــزو لا أُرى ... وإن قـــلَّ مـــالي طالِبـــاً مـــا ورائيـــا
تقـــول ابنـــتيْ لمِـــا رأت طـــولَ رحلـــتي ... سِـــفارُكَ هـــذا تاركـــي لا أبا ليـــا
لعمـــريْ لـــئن غالـــتْ خراســـانُ هـــامتي ... لقـــد كنـــتُ عـــن بابَي خراســـان نائيـــا
فـــإن أنـــجُ مـــن بابَي خراســـان لا أعـــدْ ... إليهـــا وإن منَّيتُمونـــي الأمانيـــا
فللـــهِ دَرّي يـــوم أتـــركُ طائعـــاً ... بَـــنيّ بأعلـــى الـــرَّقمتَينِ ومـاليـــا
ودرُّ الظبَّـــاء الســـانحات عشـــيةً ... يُخَـــبّرنَ أنّي هالـــك مَـــنْ ورائيـــا
ودرُّ كبـــيريَّ اللـــذين كلاهمـــا ... عَلـــيَّ شـــفيقٌ ناصـــح لـــو نَهانيـــا
ودرّ الرجـــال الشـــاهدين تَفتُكـــي ... بأمـــريَ ألاّ يَقْصُـــروا مـــن وَثاقِيـــا
ودرّ الهـوى مـن حيـث يـدعو صـحابتي ... ودّرُّ لجاجـــــاتي ودرّ انتِهائيـــــا
تـــذكّرتُ مَـــنْ يبكـــي علـــيَّ فلـــم أجـــدْ ... ســـوى الســـيفِ والـــرمح الـــرُّدينيّ باكيـــا
وأشـــقرَ محبوكـــاً يجـــرُّ عِنانـــه ... إلى المـــاء لم يـــترك لـــه المـــوتُ ســـاقيا
ولكـــنْ بأطـــرف (السُّـــمَيْنَةِ) نســـوةٌ ... عزيـــزٌ عليهـــنَّ العشـــيةَ مـــا بيـــا
صـــريعٌ علـــى أيـــدي الرجـــال بقفـــزة ... يُسّـــوُّون لحـــدي حيـــث حُـــمَّ قضـــائيا
ولمِـــا تـــراءتْ عنـــد مَـــروٍ منيـــتي ... وخـــلَّ بهـــا جســـمي، وحانـــتْ وفاتيـــا
أقـــول لأصـــحابي ارفعـــوني فإنّـــه ... يَقَـــرُّ بعيـــنيْ أنْ (سُـــهَيْلٌ) بَـــدا لِيـــا
فيـــا صـــاحبَيْ رحلـــي دنا المـــوتُ فـــانزِلا ... برابيـــــةٍ إنّي مقيـــــم لياليـــــا
أقيمـــا علـــيَّ اليـــوم أو بعـــضَ ليلـــةٍ ... ولا تُعجـــلاني قـــد تَبـــيَّن شانِيـــا
وقومـــا إذا مـــا اســـتلَّ روحـــي فهيِّئـــا ... لِيَ السِّـــدْرَ والأكفـــانَ عنـــد فَنائيـــا
وخُطَّـــا بأطـــراف الأســـنّة مضـــجَعي ... ورُدّا علـــى عيـــنيَّ فَضْـــلَ رِدائيـــا
ولا تحســـــداني بارَكَ اللهُ فيكمـــــا ... مـن الأرض ذات العـرض أن تُوسِـعا ليـا
خـــذاني فجـــرّاني بثـــوبي إليكمـــا ... فقـــد كنـــتُ قبـــل اليـــوم صَـــعْباً قِيـــاديا
وقـــد كنـــتُ عطَّافـــاً إذا الخيـــل أدبَـــرتْ ... ســـريعاً لـــدى الهيجـــا إلى مَـــنْ دعانيـــا
وقـــد كنـــتُ صبّاراً على القِـرْنِ في الـوغى ... وعـــن شَـــتْميَ ابـــنَ العَـــمِّ وَالجـــارِ وانيـــا
فَطَـــوْراً تَـــراني في ظِـــلالٍ ونَعْمَـــةٍ ... وطـــوْراً تـــراني والعِتـــاقُ رِكابيـــا

ويومـــا تـــراني في رحـــاً مُســـتديرةٍ ... تُخـــرّقُ أطـــرافُ الرّمـــاح ثيابيـــا
وقومـــا علـــى بئـــر السُّـــمَينة أسمِعـــا ... بهـــا الغُـــرَّ والبـــيضَ الحِســـان الرَّوانيـــا
بأنّكمـــــا خلفتُمـــــاني بقَفْـــــرةٍ ... تَهِيـــلُ علـــيّ الـــريحُ فيهـــا السّـــوافيا
ولا تَنْسَـــيا عهـــدي خليلـــيَّ بعـــد مـــا ... تَقَطَّـــعُ أوصـــالي وتَبلـــى عِظاميـــا
ولـــن يَعـــدَمَ الوالُـــونَ بَثًّـــا يُصـــيبهم ... ولـــن يَعـــدم المـــيراثُ مِـــنّي المواليـــا
يقولـــون: لا تَبْعَـــدْ وهـــم يَـــدْفِنونني ... وأيـــنَ مكـــانُ البُعـــدِ إلا مَكانيـــا
غـــداةَ غـــدٍ يا لهْـــفَ نفســـي علـــى غـــدٍ ... إذا أدْلجُـــوا عـــنّي وأصـــبحتُ ثاويا
وأصـــبح مـــالي مـــن طَريـــفٍ وتالـــدٍ ... لغـــيري، وكـــان المـــالُ بالأمـــس ماليـــا
فيـــا ليـــتَ شِـــعري هـــل تغـــيَّرتِ الرَّحـــا ... رحـــا المثْـــلِ أو أمســـتْ بَفَلْـــوجٍ كمـــا هيـــا
إذا الحـــيُّ حَلوهـــا جميعـــاً وأنزلـــوا ... بهـــا بَقـــراً حُـــمّ العيـــون سواجيـــا
رَعَـــينَ وقـــد كـــادَ الظـــلام يُجِنُّهـــا ... يَسُـــفْنَ الخُزامـــى مَـــرةً والأقاحيـــا
وهـــل أتـــرُكُ العِـــيسَ العَـــواليَ بالضُّـــحى ... بِرُكبانِهـــا تعلـــو المتِـــان الفيافيـــا
إذا عُصَـــبُ الرُّكبـــانِ بـــينَ (عُنَيْـــزَةٍ) ... و(بَـــوَلانَ) عـــاجوا المبقيـــاتِ النَّواجِيـــا
فيـــا ليـــتَ شـــعري هـــل بكـــتْ أمُّ مالـــكٍ ... كمـــا كنـــتُ لـــو عـــالَوا نَعِيَّـــكِ باكِيـــا
إذا مُـــتُّ فاعتـــادي القبـــورَ وســـلِّمي ... على الرمسِ أُسقيتِ السحابَ الغَواديا
علـــى جَـــدَثٍ قـــد جـــرّتِ الـــريحُ فوقـــه ... تُـــراباً كسَـــحْق المزْنَبـــانيَّ هابيـــا
رَهينـــة أحجـــارٍ وتُـــرْبٍ تَضَـــمَّنتْ ... قرارتُهـــا مـــنّي العِظـــامَ البَواليـــا
فيـــا صـــاحبا إمـــا عرضـــتَ فبلِغـــاً ... بـــني مـــازن والرَّبـــب أن لا تلاقيـــا
وعـــرِّ قَلوصـــي في الرِّكـــاب فإنهـــا ... سَـــتَفلِقُ أكبـــاداً وتُبكـــي بواكيـــا
وأبصـــرتُ نارَ (المازنيـــاتِ) مَوْهِنـــاً ... بعَلياءَ يُثنـــى دونَهـــا الطَّـــرف رانيـــا
بِعـــودٍ أَلَنْجـــوجٍ أضـــاءَ وَقُودُهـــا ... مَهـــاً في ظِـــلالِ السِّـــدر حُـــوراً جَـــوازيا
غريـــبٌ بعيـــدُ الـــدار ثاوٍ بقفـــزةٍ ... يَـــدَ الـــدهر معروفـــاً بأنْ لا تـــدانيا
اقلـــبُ طـــرفي حـــول رحلـــي فـــلا أرى ... بـــه مـــن عيـــون المؤنســـاتِ مُراعيـــا
وبالرمـــل منّـــا نســـوة لـــو شَـــهِدْنَني ... بَكـــينَ وفَـــدَّين الطبيـــبَ المـــداويا

وما كان عهدُ الرمل عندي وأهلِهِ ذميماً ولا ودّعتُ بالرمل قالِيا
فمنهنّ أمي وابنتايَ وخالتي وباكيةٌ أخرى تَهيجُ البواكيا

*******

## وقفة مع الرثاء

لا شك أن التراث الإسلامي يزدحم بالكثير من قصائد الرثاء المؤثرة والبليغة، والرثاء معروف لدى الصحابة ﷺ، وكذلك لدى الكثير من أهل العلم. ولكن ليس كل رثاء يجوز.
فقد قسّم القرافي المراثي إلى أربعة أقسام، فقال: "ليس الأمر على إباحة المراثي وعدم تفسيق الشعراء الذين يرثون الموتى من الملوك والأعيان مطلقا، وإن اشتهر ذلك بين الناس بل الحق أن المراثي على أربعة أقسام: حرام كبيرة، وحرام صغيرة، ومباح، ومندوب.
أما ضابط ما هو حرام كبيرة فكل كلام يقرر في النفوس ويوضح للأفهام نسبة الرب سبحانه وتعالى إلى الجور في قضائه، والتبرم بقدره ، وأن الواقع من موت هذا الميت لم يكن مصلحة، بل مفسدة عظيمة، فيحمل السامعين على اعتقاد ذلك يكون حراما كبيرة نظما كان أو نثرا. كأن يقول الشاعر في رثائه:

مات من كان بعض أجناده الموت ومن كان يختشيه القضاء

فيتضمن شعره من التعريض للقضاء بقوله: "من كان بعض أجناده الموت" تعظيما لشأن هذا الميت، وأن مثل هذا الميت ما كان ينبغي أن يخلو منه منصب الخلافة، ومتى تأتي الأيام بمثل هذا؟ ونحو ذلك. ويشير قوله: "يختشيه القضاء" إلى أن الله تعالى كان يخاف منه، وهذا إذا لم يكن كفرا صريحا وهو الظاهر من لفظه فهو قريب منه، فلذا لما حضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام في المحفل الذي جمع فيه الملك الصالح الأكابر والأعيان والقراء والشعراء لعزاء الخليفة ببغداد، وأنشد بعض الشعراء في مرثيته: مات من كان بعض أجناده الموت وسمعه الشيخ أمر بتأديبه وحبسه وأغلظ الإنكار عليه، وبالغ في تقبيح رثائه، وأقام بعد التعزير في الحبس زمانا طويلا، ثم استتابه بعد شفاعة الأمراء والرؤساء فيه. وأمره أن ينظم قصيدة يثني فيها على الله عز وجل تكون مكفرة لما تضمنه شعره من التعرض للقضاء والإشارة إلى أن الله تعالى كان يخاف من الميت. والشعراء كثيرا ما يهجمون على أمور صعبة مثل ذلك رغبة في الإغراب والتمدح بأنه طرق معنى لم يطرق قبله فيقعون في هذا

ومثله. وهذا القسم شر المراثي. وأما ضابط ما هو حرام صغيرة فكل كلام نظماً أو نثراً لم يصل إلى الغاية المذكورة في القسم الأول إلا أنه يبعد السلوة عن أهل الميت، ويهيج الأسف عليهم حتى يؤدي إلى تعذيب نفوسهم وقلة صبرهم وضجرهم، وربما بعثهم على القنوط وشق الجيوب وضرب الخدود، يكون حراما صغيرة. وأما ضابط ما هو مباح من المراثي فكل كلام لم يكن فيه شيء مما في القسمين قبله بل ذكر فيه دين الميت، وأنه انتقل إلى جزاء أعماله الحسنة ومجاورة أهل السعادة. وأنه أتى عليه ما قضى على عامة الناس، وأن هذا سبيل لا بد منه وأنه موطن اشترك فيه جميع الخلائق وباب لا بد من دخوله، يكون مباحا خاليا عن التحريم.

وأما ضابط المندوب من المراثي فكل كلام زاد على ما في قسم المباح من أمر أهل الميت بالصبر وحثهم على طلب الأجر والثواب، وأنهم ينبغي لهم أن يحتسبوا ميتهم في سبيل الله تعالى ويعتمدون في حسن الخلف على الله تعالى ونحو ذلك، يكون مندوبا إليه مأمورا به.
ومنه ما روي أن العباس بن عبد المطلب ﷺ لما مات عظم مصابه على ابنه عبد الله فقدم أعرابي من البادية، فسأل عن عبد الله بن عباس، فلما دخل عليه قال:

اصبر نكن بك صابرين فإنما ... صبر الرعية عند صبر الراس
خير من العباس أجرك بعده ... والله خير منك للعباس

فلما سمع عبد الله بن العباس رثاءه واستوعب شعره سرى عنه عظيم ما كان به. وهذا كلام في غاية الجودة من الرثاء، مسهل للمصيبة، مذهب للحزن، محسن لتصرف القضاء، مثن على الرب بإحسان وجميل العوارف، فهذا حسن جميل. وعلى هذه القوانين يتخرج جميع ما يرد عليك من المراثي والله سبحانه وتعالى أعلم ". [1]
على هذا فإن الرثاء الذي يقتصر على ذكر محاسن الميت، والحزن عليه، وينصح بالصبر ويذكر بسنة الله في الموت فهذا لا بأس به، وكل رثاء خلا من المحظورات فوق فلا بأس به.

[1] "الفروق" (174/2)

والمنهي عنه تهييج الأحزان والاعتراض على قدر الله، والتسخط والكفر، وكذلك الكذب ووصف الميت بما ليس فيه، والمبالغة في الثناء بما لا يصح، وغيره.

*******

## تغريدات عن الموت

كتبت هذه التغريدات في حينها، في سياق التفكير في الموت، أجمعها هنا، للذكرى ولعلها أثر.

- قال رسول الله ﷺ: "لو أنَّ ابنَ آدمَ هرَبَ من رزقِهِ كما يهرَبُ من الموتِ، لأدْرَكَهُ رزْقُهُ كما يُدْرِكُهُ الموتُ".

إنها دنيا فانية.. فكن مسلماً مؤمناً محسناً..

- قال ابن رجب رحمه الله: "الخاتمة الحسنة لا تقع إلَّا لِمن كانت سريرتُه حسنة؛ لأنَّ لحظة الموت لا يمكن تصنُّعها، فلا يَخرج حينئذٍ إلَّا مكنون القلب".

رأس مالك تلك السريرة.. فصُنها.

- لا تحدثني عن الدنيا وأنت في كامل قوتك ونشاطك، بل حدثني عنها عند ضعفك ومرضك.

لا تنظر للمشاهير في أوج شهرتهم وشبابهم بل انظر إليهم في آخر العمر عند سكرات الموت وقد انفض الناس من حولهم.
القوة والدعة تبهرك لكن الضعف والشدة يوقظك.
لا يدوم للإنسان إلا عمله الصالح، فاجعل حديثك عنه منقبتك.

- حياة بلا معاني.. هي الحرمان أو قل الموت!

- ميتة عز وشرف لا عشرات الميتات في ذلّ وهوان.

ثم الموت واحد، حين يحين موعده، فاعلم أنه لا يغني حذر من قدر.

- شياطين الملحدين، لا منطق ولا حجة ولا حقيقة، مجرد حديث نفس مريضة يلوكونه في محاولة للنيل من عظمة الإسلام فترتد عليهم فتكشف صغر نفوسهم ودنوها وعظيم جهلهم وتخبطهم، أضاعوا الأصل فكيف بالفروع، يعيشون عيشة تيه وعبث، حياتهم تافهة.. نهايتهم الانتحار أو الموت بحسرة الجحود. ظلمات بعضها فوق بعض.

- مهما تجبر الظالم في ظلمه، إلى أين بعد ذلك؟ إلى الموت، تلك اللحظات التي يعيش فيها العجز يدرك معنى "الظلم ظلمات". وصدق من قال: خاب من كسب ظلما. فإن رأيت ظالما يوماً، أشفق عليه لأن مآله مظلم حتماً. وإياك أن تخشاه لأنه ذليل أمام الحق، صغير أمام المظلوم مهما استعلى واستكبر، داخله هشّ.

- حامل الهم لا يعرف الغفلة أو النوم، لا يركن للدّعة أو اللهو، كلما تراخت همته أفزعه همه من جديد فقام يثابر بعزم من حديد وعينه على عقارب الساعة والرزنامة وخط الموت.

- قال المتنبي:

كَثيرُ حَياةِ المرءِ مِثلُ قَليلِها ... يَزولُ وَباقي عَيشِهِ مِثلُ ذاهِبِ

إِلَيكِ، فَإِنّي لَستُ مِمَّن إِذا اتَّقى ... عِضاضَ الأَفاعي نامَ فَوقَ العَقارِبِ

يقول: غاية الإنسان الموت، طالت حياته أم قصرت، وعيشه الباقي إلى نفادٍ، مثل عيشه الماضي، فَلِمَ أخاف الموت وأحمل الضيم والذل؟
ويقول للعاذلة: إليك عني، أي كفّي لومك، فلست ممن إذا اتقى عظيمة صير على مذلة وهوان. فشبه عظيمة بالأفاعي وشبه الذل بالعقارب.

- تأمل وصلّ عليه!

«يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، فقال قائل: ومِن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا، وكراهية الموت».

- أولئك الذين لا تتحرك عاطفتهم إلا مع المجرمين عند الموت ليتهم أظهروها لحظة انتهاك حرمة الإسلام والاعتداء على قيمه وشرائعه الربانية، ولحظة الكفر والشرك بالله سبحانه والافتراء على النصوص الشرعية والدعوة للفسق والفجور وما يدور في فلك الرذيلة، لدينا ملايين الثكالى والأيتام لم يروا عاطفتكم.

- حين تشاهد عبارات الثناء على من أفنت عمرها تدافع عن حقوق المرأة فاعلم أن المقصود بها ساقطة تشربت من كأس التغريب حتى الثمالة فحاربت دينها وتراث أمتها ثم سارعت لتقصير الثياب وتبرير الرذيلة. لم نشاهد في هذه الأمساخ إلا البشاعة بكل أصنافها، بشاعة القلب والفعل والمنظر، فالحمد لله على نعمة الموت.

- نعوذ بالله من سوء الخاتمة، يموت العبد الصالح فيبكي لفقده القريب والبعيد وتتفانى القلوب في الدعاء له بالرحمة والمغفرة والقبول، ويموت العبد الطالح الفاجر فتطارده

اللعنات ويستذكر الناس خبثه وظلمه، ثم لا ينبري للثناء عليه إلا بهائم البشر، والطيور على أشكالها تقع.

لكن الموت يهدم اللذات.

- هناك دائما بدايات جديدة لأصحاب الهمم مهما اشتدت الخطوب وبلغ الفقد منتهاه، فلا نهاية حقيقية إلا الموت.

- ليس الموت بتوقف نبض القلب، بل يكون أيضا بتوقف الإحساس!

- ومن علو الهمة أن تشعر أنك في سباق مع الزمن، تسارع لتسجيل محطات السبق والإنجاز وحفظها قبل أن تنتهي دقائق العمر، وفي ذهنك موعد الموت! فيصبح ذلك الموعد محطة محببة لك، يرسم تفاصيلها شوق اللقاء والحنين لاستراحة أبدية، تاقت لها الروح المثقلة بتبعات المسير مسابقاً في درب كله أشواك.

سعادة لا تُبارى.

- أولئك الذين يبصرون أمام قائمة أهدافهم محطة الموت الأكيدة، لا يعرفون الكسل أو التسويف، بل المسارعة بالخيرات حتى إذا ما حان موعد الرحيل، يعتذرون لله بكونهم استنفذوا كل جهد لهم في سبيل مرضاته وترك الأثر الطيب.

فاجعل استذكار لحظة الموت محرضاً لك في كل وقت.

- كان السابقون حين يسمعون خبر موت أحدهم يتذكرون أنفسهم ويجهشون بكاءً خشية أن تسوء خواتيمهم فيسارعون بالخيرات والاستغفار لعلهم يستدركون، واليوم نسمع خبر موت أحدهم فنشغل فضاء التواصل بالحديث عن مصير الميت!

إن افتقدت الخشية في الموت فأي موعظة بعده تنفع!
اللهم لا تبتلينا بقسوة القلب.

- العيش بدون قضية تنصرها وهدف تسعى إليه هو الموت بعينه.

فعش لدينك وأمتك واْسْعَ لنهضتها وسعادتك لتنبض حياةً.

- قال أبو بكر المروزي: دخلت على أحمد بن حنبل -رحمه الله- يوماً؛ فقلت: كيف أصبحت؟ فقال: كيف أصبح من ربه يطلبه بأداء الفرض، ونبيه يطالبه بأداء السنة، والملكان يطالبانه بتصحيح العمل، ونفسه تطالبه بهواها، وإبليس يطالبه بالفحشاء، وملك الموت يطالبه بقبض روحه، وعياله يطالبونه بالنفقة.

{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}

- مناجل الموت تعددت، مرضاً وحوادثاً وحروباً وصدفةً وبلا سبب. تحصد الأرواح في زماننا، فاللهم نسألك الرحمة وحسن الخاتمة.

- وكفى بهادم اللذات موعظة وعبرة أن هذه الدنيا لا تساوي جناح بعوضة، فعلام يتكالب الناس عليها وتتفشى المظالم وينتشر الجفاء!

- أينما تقلب الصفحات تصادفك أخبار الوفيات..

ومع ذلك يستمر الظالم في ظلمه والمجرم في إجرامه.
وإن كان مقام الموت مقام عزاء، إلا أنه لا عزاء في موت القلب.
نسأل الله قلباً حياً نابضاً بمحبته وتقواه، وحسن الخاتمة.
اللهم ارحم أمة مُحَمَّد ﷺ

- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[ آل عمران:185].

وإنما تُوفَّون أجوركم على أعمالكم وافية غير منقوصة يوم القيامة، وما الحياة الدنيا إلا متعة زائلة، فلا تغترُّوا بها.
كل نفس ذائقة الموت في موعد أكيد لكن لا يعلمه إلا الله سبحانه. اللهم ارحمه وانفع بجهوده وأحسن خواتيمنا بما يرضيك عنا.

- عش مسلماً أبياً ولو على فقر ولا تعش مسلماً مقهوراً يخشى على فطرته ولو في غنى.

هذه الحقيقة سيصل لها الكثير ممن خدعهم زيف الحضارة الغربية.
سيصل الجميع (أصاحب الفطرة السليمة) لقناعة راسخة إما الإسلام أو الموت.
{سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق}

- الموت يقع مرة، وفي درعا مرتين!

حين يسلم المسلم سلاحه لعدو غادر.

- "ارتفاع عدد المسلمين في بإسبانيا إلى أكثر من مليونين و250 ألف نسمة نهاية عام 2021م، ويشكل الإسبان المعتنقين للإسلام أكثر من 950 ألفا، يعيش

الكثير منهم بإقليم الأندلس الذي فضلوه لكونه كان تحت الحكم الإسلامي لمدة 8 قرون"[1].

رغم كل ما تعرض له أهل الأندلس من اضطهاد كبير ومحاكم تفتيش تخيّرهم بين الموت أو الردة، ومطاردة في البحار واليابسة بلغت أقصى الأرض وأدناها، يبقى الإسلام في هذه البلاد وينتشر، ويُذكر تاريخه باعتزاز، ويُعجز أعداءه المحاربين له.
﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32)﴾ [التوبة: 32].

- مشاهد الموت والمصاب الجلل، تحيط بالمسلمين وتشغل أذهانهم في كل يوم.

إلا أن ريان الصغير[2] في البئر العميقة، جمع حوله القلوب في كل مكان -بقوة- ليكسر الحدود المصطنعة ويوحد المسلمين حول آلامهم ونوازلهم.
اللهم رده إلى أمه وأحبته واجعله للمتقين إماماً.

- الأطفال في الغرب أتعس الأطفال في هذا العالم! تتربص بهم الشرور من كل جانب، وتُقتل طفولتهم في مهدها، ويعاملون معاملة الممتلكات المستهلكة لصالح نزعات الشر وهوس الشواذ والمتخلفين فطرياً. حقل تجارب مجاني لأفسد الأفكار. معدلات ضحاياهم ترتفع كل يوم وتنكشف مآسي تعذيبهم إلى الموت حتى في قلب الكنائس!

- كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ... وَالمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ[3]

إنَّا لنفرحُ بالأيام نقطعها.... وكل يوم مضى يدني من الأجل

---

[1] خبر نشرته الجزيرة.
[2] طفل صغير سقط في بئر في المغرب وتوفي بعد أيام من المعاناة وعجز عن إخراجه.
[3] رواه البخاري ومسلم.

**حقيقة الموت ..**

ما أقرب الموت!

- في كل يوم تتوالى المنشورات عن أخبار الموت، كلّ يرثي قريباً أو صديقاً، وإن في ذلك لعبرة وموعظة وآية من آيات الله، ولكن رحيل البعض وقعه عظيم لعظيم الأثر الذي حفروه بقوة دينهم وحسن خلقهم ومسابقتهم بالخيرات، لا يملك المرء حين يسمع خبر رحيلهم إلا أن يتفقد من حوله من الأخيار ليبرّهم قبل الوداع.

- حدثني عن الموت.. فإن الحديث عنه حياة!

يكسر كل غرور ويسحق كل استكبار،
يختصر المسافات.. فلا طول أمل ولا تحسّر على دنيا البشر.
يشعل الهمة وتصبح الدنيا أهون والعقبات ملذات!
ولا يعشق حديث الموت إلا بصير رحل قلبه إلى منازل الخالدين وترك جسده يكابد للحاق به.
الموت مع الإيمان حياة.

*******

## وصايا للحيّ

إن حقيقة الموت تدفع بكل صاحب عقل أن يعد نفسه إعداداً لائقاً لموعد الرحيل عن الدنيا الفانية، ذلك الموعد الأكيد الذي نقبل عليه مع كل دقيقة من أعمارنا تمضي، ولأن النفس تفتر، تغفل، وتظلم! فإن التواصي بالحق والتواصي بالصبر مجاديف لا غنى للمسلم عنها في هذه الحياة. وهذا ما يدفعني لتلخيص بعض الوصايا لمسيرة أكثر اطمئناناً وسكينةً باتجاه موعد الموت.

1) لم يفرض الإسلام فريضة على مسلم إلا وهي نجاة له عند الموت وسبيل لارتقائه في الدار الآخرة، لذلك فاجعل أداء فرائض الإسلام أولى أولوياتك على رأسها الصلاة، فهي عماد الدين، كل تقصير فيها، تقصير ينعكس على جميع أعمالك وما تنشده من خير وبركة وقبول. فاحرص على أداء صلاتك في وقتها، وعلى الخشوع فيها، وعلى العناية بالسجود والدعاء فيه، فهذه محطة لا تفوت لبيباً. لا تنقر نقر الغراب ولا تسرق من سجداتك وركعاتك كالمختلس! كل دقيقة تسرقها من صلاتك ومن عباداتك ترجع بالنقصان على ما تنشده من بركة وتوفيق ومعية. لا تحسب أن تلك الدقائق التي تنقصها من فريضة ستكسبها في عمل يشغلك تراه ذا أهمية، بل هي وسيلتك للنجاح والإنجاز فلا تهدمه بيديك. إتمام العبادات من فقه الاستعانة بالله. قال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110)﴾ [البقرة: 110].

2) لم أر مثل الرباط على قراءة القرآن باعثاً للخير في القلوب وسبيلاً لنيل الفتوحات، من استمر عليه قاصداً الهداية بصّره الله بخيري الدنيا والآخرة، ولا يزال ذكر الموت فيه يحيي القلوب. قال ابن القيم رحمه الله: "لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل، والرضا والتفويض،

والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله"[1]. وقال أيضا: "وكذلك محبة كلام الله، فإنه من علامة حب الله، وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله، فانظر محبة القرآن من قلبك، والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإن من المعلوم أن من أحب محبوبا كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه كما قيل: إِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ حُبِّي فَلِمَ هَجَرْتَ كِتَابِي؟ أَمَا تَأَمَّلْتَ مَا فِيهِ مِنْ لَذِيذِ خِطَابِي"[2]. وقال سفيان بن عيينة: "والله لا يفقه العبد كل الفقه حتى لا يكون شيء يسمعه أحبّ إليه من كلام الله عز وجل"[3]. واعلم أن أهل القرآن وخاصته في نعيم الجنة المعجل!

3) لابد من ذكر الموت، بالتفكر فيه، وبرؤيته، بالحديث عنه وتذكر الموتى ممن رحل، وبذلك سبق أئمة أهل السنة، قال المروذي: "كان أبو عبد الله إذا ذكر الموت خنقته العبرة، وكان يقول: الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب، وإذا ذكرت الموت هان عَلَيَّ كل أمر الدنيا، إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل ما أعدل بالفقر شيئاً، ولو وجدت السبيل لخرجت حتى لا يكون لي ذكر، وقال: أريد أن أكون في شعب بمكة حتى لا أُعرف، قد بُليت بالشهرة"[4]. وقال ثابت البناني رحمه الله: "طوبى لمن ذكر ساعة الموت، وما أكثر عبد ذكر الموت إلا رؤي ذلك في عمله". [5]

4) لا تسمح لنفسك بالانهيار عند كل أزمة وصدمة وفاجعة، ولا تعجل بالدعاء لنفسك بالموت مهما بلغ بك السخط من مبلغ، قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه، فإن كان لا بد فاعلا، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفني

---

(1) مفتاح دار السعادة (1/187)

(2) الجواب الكافي ص 235 - 236

(3) كتاب السنة لأبي بكر الخلال 2/68

(4) تاريخ الإسلام - الذهبي - ج 18، ص 81.

(5) حلية الأولياء (2/326)

إذا كانت الوفاة خيراً لي»؛ متفق عليه. وما خاب من تمسك بهدي نبيه ﷺ فهو سبيل النجاة الوحيد. ثم ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142)﴾ [آل عمران: 142]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (214)﴾ [البقرة: 214]، ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3)﴾ [العنكبوت: 3].

5) لا تشغل نفسك بهم جمع المال والغنى، على حساب العمل بهما، اجعل شغلك الشاغل أن تستفيد من هذا المال في حياتك، يحدوك وصايا القرآن في صرف المال، بلا إسراف ولا تقتير، وبأداء حقه، من زكاة وصدقات وخاصة الصدقات الجارية، فهي الذخيرة ليوم الموت، قال ابن مسعود رضى الله عنه: "درهم ينفقه أحدكم في صحته وشحه؛ أفضل من مائة يوصى بها عند الموت"[1]. بل زن كل هموم الدنيا في ميزان الآخرة، ولا تترك نية لك ولا عزماً في أمر من أمور الدنيا إلا ابتغيت به هذه الآخرة، فترجع العقبات لأحجامها الحقيقية وتبصر بنور من الله ﷻ.

6) أعدّ نفسك لاستقبال الموت كل يوم، فإن البصير لا يغفل عن موعد الموت، وإن غفل لحظة، سرعان ما هبّت نفسه للمسابقة من جديد فزعاً من ذكرى الموت، وقد وعى السابقون كيف تكتسب القلوب القوة فيقبلون على الموت بشوق شديد لله ﷻ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: 165]، عن أيوب بن موسى قال: سمعت شيخاً في المسجد يكنى أبا سهل الترمذي قال: سمعت سفيان الثوري يقول: رأيت شيخاً في مسجد الكوفة يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن

[1] تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين للسمرقندي، ص 310.

ينـزل بي لـو أتاني مـا أمرتـه بشـيء ولا نهيتـه عـن شـيء ولا لي علـى أحـد شـيء ولا لأحـد عندي شيء. [1] فتأمل كيف كان يستعد للقاء الله!

7) اجعل ذكر الموت العلاج لكل ما يؤرقك، لما يزعجك، وهادماً للذات، اجعله وصية لنفسك ولمن حولك. جاء رجل إلى أبي الدرداء رضى الله عنه فقال: أوصني، قال: اذكر الله في السراء والضراء، وإذا ذكرت الموتى فاجعل نفسك كأحدهم، وإذا أشرفت نفسك على شيء من الدنيا، فانظر إلى ما تصير[2].

8) اجعل ذكر الموت رادعاً لك عن الظلم، زاجراً لك لحظة التفكير فيه. عن الربيع بن صبيح، قال: قلنا للحسن رحمه الله، يا أبا سعيد عظنا، فقال: إنما يتوقع الصحيح منكم داء يصيبه، والشاب منكم هرماً يُفنيه، والشيخ منكم موتاً يرديه، أليس العواقب ما تسمعون؟ أليس غداً تفارق الروح الجسد؟ المسلوب غداً أهله وماله، الملفوف غداً في كفنه، المتروك غداً في حفرته، المنسي غداً من قلوب أحبته، الذين كان سعيه وحزنه لهم، ابنَ آدم نزل بك الموت فلا ترى قادماً ولا تجيء زائراً ولا تكلم قريباً، ولا تعرف حبيباً، تنادي فلا تجيب، وتسمع فلا تعقل، قد خربت الديار، وعُطلت العشار، وأُيتمت الأولاد، قد شخص بصرك، وعلا نفسك، واصطكت أسنانك، وضعفت ركبتاك، وصار أولادك غرباء عند غيرك!. [3] وتذكر دائما إذا أزّتك نفسك على باطل وشر، أن الحساب عسير، وأن الله لا يعزب عنه مثقال ذرة من شر، قال أبو بكر بن أبي الدنيا: أصبت رقعة في الجنازة فيها مكتوب: وهَبْتم همكم للدنيا، وتناسيتم سرعة حلول المنايا، أما والله ليحلن بكم من الموت يوم مظلم، ينسيكم طول معاشرة النعمة، ولتندمن ولا تنفعكم الندامة، الحذر! الحذر! الحذر! قبل بُغْتان المنايا، ومجاورة أهل البلى[4].

---

[1] صفة الصفوة ج2 ص 106.

[2] موسوعة ابن أبي الدنيا (513/5)

[3] موسوعة ابن أبي الدنيا (551/5)

[4] موسوعة ابن أبي الدنيا (558/5)

9) إن شعرت بقسوة في القلب، فعالجها مبكرًا قبل أن تشتد، وابحث دائماً عما يحيي قلبك ويبقيه نابضا بالخشية والوجل، جاء في طبقات الحَنَابِلة (82/1): أخبرنا زكريا بن يحيى الساجي، حدثنا أبوطالب: أن أبا عبد الله قال له رجل: كيف يرِقُّ قلبي؟ قال: ادخل المقبرة، وامسح رأس اليتيم، فتأمل!. وقال الحافظ ابن رجب في لطائف المعارف: "فأما رقة القلوب فتنشأ عن الذكر فإن ذكر الله يوجب خشوع القلب، وصلاحه، ورقته ويذهب بالغفلة".

10) رَبِّ نفسك على الأدب في حضرة الموت، إياك والغفلة فهي آية وهي حقيقة لتفر إلى ربك سبحانه، فهل يعقل أن تفكر في سخرية والمصاب جلل! أم تفكر في ظلم أو أذى! فذلك منتهى الغبن والحرمان، قيل لسفيان بن عيينة رحمه الله: لأي شيء كان يُستحب خفض الصوت عند الجنائز؟ قال: شبهوه بالحشر إلى الله، أما سمعته يقول: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً (108)﴾ [طه: 108][1]. وإن المرء ليعجب ممن يثير الفكاهة في العزاء، ويكثر الضحك أو يشغل تفكيره كيف يكيد لإنسان، بينما الدموع حفرت أخاديد في وجوه أهل الميّت..! ولا تقصّر في العزاء لمسلم ولا تبخل على نفسك بصلاة الجنائز.

11) اعلم أن كل معروف وكل خير وكل بر تقدمه لنفسك يكون مقابله حسن الخاتمة والقبول بإذن الله لمن صدق وأخلص، والسبيل للمسابقة في ذلك، عدم إحصاء المعروف، كما جاء في الأثر: حُسر النيل عن صخرة عظيمة، فإذا مكتوب عليها: اعمل الخير وتناساه، وإذا عملت شرا فتذكره، أوشك من كان كذلك أن يلقى راحة طويلة. [2] لا تحص صنائع المعروف منك، فإن إحصاءها يفقد الإخلاص، ويقسّي القلب، ويجلب العجب والشح، ويؤز القلب على الحسد والحقد، بينما نسيانها موجب

[1] موسوعة ابن أبي الدنيا (67/6)

[2] موسوعة ابن أبي الدنيا (118/6)

للبركة واليسر ويشحذ الهمة. واحص بدلا من ذلك معروف الناس لك، فإن إحصاءه يبعث المودة والحلم، والطمأنينة والبر، ويكسر الغرور والكبر، ويدفع النفس للمسابقة.

12) أحب الموت لأنه لقاء مع الله ﷻ طال انتظاره، والبصير يشتاق للقاء ربه بعد أن أعد العدة لهذا اللقاء المهيب، محسناً الظن به ﷻ، عن عبد ربه بن صالح قال: دُخل على مكحول رحمه الله في مرضه الذي مات فيه، فقيل له: أحسن الله عافيتك أبا عبد الله؟ فقال: الإلحاق بمن يُرجى عفوه، خير من البقاء مع من لا يؤمن شره[1]. ولا أحد يحب الموت كالمجاهد في سبيل الله لما في قلبه من شوق ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84)﴾ [طه: 84].

13) ومن الفقه تمني طول العمر لزيادة العمل والأجر، وقال عمر ﷺ: لولا ثلاث لأحببت أن أكون قد لقيت الله، لولا أن أضع جبهتي لله، أو أجلس في مجالس يُنتقى فيها طيب الكلام كما ينقى جيد التمر، أو أن أسير في سبيل الله – عزَّ وجلَّ[2]، وعن عباس بن جليد الحجري، عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه، أنه قال: لولا ثلاث خلال لأحببت أن لا أبقى في الدنيا. فقلت: وما هن؟ فقال: لولا وضوع وجهي للسجود لخالقي، في اختلاف الليل والنهار، يكون تقدمة لحياتي، وظمأ الهواجر، ومقاعدة أقوام ينتقون الكلام كما تنتقى الفاكهة، وتمام التقوى أن يتقي الله – عزَّ وجلَّ – العبد، حتى يتقيه في مثل مثقال ذرة، حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما، يكون حاجزاً بينه وبين الحرام. إن الله تعالى قد بين لعباده الذي هو يصيرهم إليه، قال – تعالى –: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8)﴾ [الزلزلة: 8] فلا تحقرن شيئاً من الشر أن تتقيه، ولا شيئاً من الخير أن تفعله[3].

---

(1) الحلية (تهذيبه) (2/ 180)

(2) الحلية (تهذيبه) (1 / 71).

(3) الحلية (تهذيبه) (1 / 169)

14) واعلم أن الموت والأجل يخضعان لقانون السببية الذي خلقه الله في هذا الكون، بل أَمْرُ الموت كسائر ما يقدَّر في هذه الدنيا مبنيٌّ على الأسباب المادية المكتوبة أيضا في اللوح المحفوظ. فالموت له أسبابه المادية التي يعلمها جميع الناس، كالسقوط من شاهق، والجرح الغائر في المقاتل، والأمراض الخطيرة، ونحو ذلك. كما له أسبابه المادية التي تؤخره وتؤجله: كحفظ الصحة، والبعد عن أماكن الخطر، ونحو ذلك، وكلها من قدر الله، فعن أبي خزامة عن أبيه قال: سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله؛ أرأيت رقى نسترقيها، ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها؛ هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال: «هي من قدر الله».[1] وأيضا الأسباب المعنوية التي أخبرنا النبي ﷺ أنها تزيد في العمر وتمد الأجل، كالدعاء، وصلة الرحم، وبر الوالدين، وأعمال البر كلها. فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يبسط له رزقه أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه». رواه البخاري ومسلم. وعن سلمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر» رواه الترمذي وحسنه الألباني. فمن أتى بهذه الأسباب استحق زيادة العمر، ومن نقص أسباب الحياة فقد عرض نفسه للموت، وكل ذلك – سواء الأسباب أو المسببات – معلومة مكتوبة عند الله تعالى في ابتدائها وانتهائها، لا تتغير لأنها معلومة لله على ما ستكون، مهما غير العبد من أسبابه، رفعت عنها الأقلام، وجفت بها الصحف[2]. وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: 11]. يقول ابن عباس ﷺ في تفسير هذه الآية:" ليس أحد قضيت له طول الحياة والعمر إلا هو بالغ ما قدرت له من العمر، قد قضيت ذلك، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت له، لا يزاد عليه، ليس أحد قضيت له أنه قصير العمر ببالغ العمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له، فذلك قوله: (ولا ينقص من عمره إلا في كتاب)، يقول: كل ذلك في كتاب عنده"[3]، ويقول البيهقي:" والمعنى في هذا أن الله جل ثناؤه قد كتب ما يصيب عبداً من عباده من البلاء والحرمان والموت وغير ذلك،

---

[1] رواه الترمذي وابن ماجة، وروي موقوفا. قال الترمذي: هذا أصح.

[2] الإسلام سؤال وجواب: طول العمر وقصره (بتصرف)

[3] رواه البيهقي في "القضاء والقدر" (218/1)

وأنه إن دعا الله تعالى أو أطاعه في صلة الرحم وغيرها، لم يصبه ذلك البلاء، ورزقه كثيراً، وعمره طويلا، وكتب في أم الكتاب ما هو كائن من الأمرين".[1] ويقول ابن تيمية:"إن الله أمر الملك أن يكتب أجلا، وقال: إن وصل رحمه زدته كذا وكذا، والملك لا يعلم أيزداد أم لا، لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر، فإذا جاء الأجل لا يتقدم ولا يتأخر"[2].

وكما أن البر وصلة الرحم تطيل العمر فإن البغي والظلم للعباد قد تجلب العقاب بقصم العمر، فالباغي سريع المصرع. وبهذا إن أخذ المسلم بأسباب طول العمر يطيل الله عمره في خير وبركة وهذه الأسباب هي من قدر الله تعالى.

15) احرص على كتابة وصيتك، فإن الموت يأتي فجأة، ورب وصية أوجبت الفتوحات لمن بعدك وتمنعهم الظلم وترشدهم إلى سبيل الحق. عن عبدالله بن عمر – ﷺ – أن رسول الله ﷺ قال: «ما حقُّ امرئ مسلم له شيء يوصي فيه، يَبيتُ ليلتين إلا ووصيتُه مكتوبة عنده»؛ متفق عليه، هذا لفظ البخاري. وفي رواية لمسلم: «يبيت ثلاثَ ليالٍ». قال ابن عمر: ما مرَّت عليَّ ليلةٌ منذ سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك إلا وعندي وصيتي. قال ابن حجر: "وفي الحديث منقبة لابن عمر لمبادرته لامتثال قول الشارع ومواظبته عليه، وفيه الندب إلى التأهب للموت والاحتراز قبل الفوت؛ لأن الإنسان لا يدري متى يفجؤه الموت؛ لأنه ما من سن يفرض إلا وقد مات فيه جمع جَمٌّ، وكل واحد بعينه جائز أن يموت في الحال، فينبغي أن يكون متأهباً لذلك، فيكتب وصيته، ويجمع فيها ما يحصل له به الأجر، ويحبط عنه الوزر من حقوق الله وحقوق عباده والله المستعان، واستدل بقوله: "له شيء"، أو "له مال" على صحة الوصية بالمنافع، وهو قول الجمهور قال: ويستفاد منه أن الأشياء المهمة ينبغي أن تضبط بالكتابة؛ لأنها أثبت من الضبط بالحفظ؛ لأنه يخون غالباً"[3]. وقال أيضاً: "كالوصية قد تكون

---

[1] القضاء والقدر (211/1)

[2] مجموع الفتاوى" (517/8)

[3] فتح الباري: (5/359)

واجبة وقد تكون مندوبة فيمن رجا منها كثرة الأجر، ومكروهة في عكسه، ومباحة فيمن استوى الأمران فيه، ومحرمة فيما إذا كان فيها إضرار؛ كما ثبت عن ابن عباس الإضرار في الوصية من الكبائر، قال: واستدل بقوله مكتوبة عنده على جواز الاعتماد على الكتابة والخط ولو لم يقترن ذلك بالشهادة"[1]. قال الشيخ ابن عثيمين في «شرح رياض الصالحين» (3/ 460- 465): "ثم ذكَرَ المؤلِّف رحمه الله حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «ما حقُّ امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يَبيتُ ليلتين إلا ووصيتُه مكتوبة عنده»؛ يعني ما حقه أن يبيت ليلتين إلا وقد كتَبَ وصيته التي يريد أن يوصيَ بها، وكان ابن عمر ﷺ منذ سمع هذا الكلام من رسول الله لا يبيتُ ليلةً إلا وقد كتَب وصيته.

والوصية: معناها العهد، وهي أن يعهد الإنسان بعد موته لشخص في تصريف شيء من ماله، أو يعهد لشخص بالنظر على أولاده الصغار، أو يعهد لشخص في أي شيء من الأعمال التي يملكها بعد موته فيوصي به؛ هذه هي الوصية.

مثل أن يكتب الرجل: وصيتي إلى فلان بن فلان بالنظر على أولادي الصغار. ووصيتي إلى فلان بن فلان بتفريق ثُلُث مالي أو ربعه أو خُمُسِه في سبيل الله. وصيتي إلى فلان في أن ينتفع بما خلفت من عقار أو غيره أو ما أشبه ذلك.

المهم أن هذه هي الوصية، عهد الإنسان بعد موته إلى شخص بشيء يملكه، هذه هي الوصية.

والوصية أنواع: واجبة، ومحرَّمة، وجائزة.

أولًا: الوصية الواجبة: وهي أن يوصي الإنسان بما عليه من الحقوق الواجبة؛ لئلا يجحدها الورَثةُ، لا سيما إذا لم يكن عليها بيِّنة.

كأن يكون على الإنسان دَيْنٌ أو حق لغيره، فيجب أن يوصي به، لا سيما إذا لم يكن فيه بيِّنة؛ لأنه إذا لم يوصِ به فإن الورثة قد ينكرونه، والورثة لا يلزمون أن يصدِّقوا كل

(1) المغني: (6/521).

من جاء من الناس وقال: إن لي على ميتكم كذا وكذا، لا يلزمهم أن يصدِّقوا، فإذا لم يوصِ الميت بذلك، فإنه ربما يكون ضائعًا، فمن عليه دَينٌ - يعني حقًّا في ذمته لأحد - فإنه يجب عليه أن يوصي به.

كذلك أيضًا أن يوصي لأقاربه غير الوارثين بما تيسَّر؛ لقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾؛ يعني مالًا كثيرًا ﴿الْوَصِيَّةُ﴾ هذه نائب الفاعل ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: 180]، فخرج من ذلك - مِن الوالدين والأقربين - مَن كانوا ورثة؛ فإن الورثة لا يوصى لهم، وبقيت الآية محكمة فيما عدا الوارثين.

هكذا دلالة الآية، وبها فسَّرها ابن عباس رضي الله عنهما، وذهب إليها كثيرٌ من أهل العلم أن الإنسان يجب أن يوصي إذا كان عنده مالٌ كثيرٌ بما تيسَّر لأقاربه غير الوارثين، أما الوارث فلا يجوز أن يوصى له؛ لأن حقه من الإرث يكفيه، فهذان أمران تجب فيهما الوصية.

الأول: إذا كان عليه دَين؛ يعني حقًّا للناس.

والثاني: إذا ترك مالًا كثيرًا، فإنه يلزمه أن يوصي لأقاربه من غير الوارثين.

ثانيًا: الوصية المحرَّمة: وهي محرَّمة إذا أوصى لأحد من الورثة، فإنه حرام عليه، مثل أن يوصي لولده الكبير بشيء من بين سائر الورثة، أو يوصي لزوجته بشيء من بين سائر الورثة، فإن هذا حرام عليه، حتى ولو قدِّر أن المرأة - أي: الزوجة - كانت تخدمه في حياته وتطيعه وتحترمه، وأراد أن يكافئها، فإنه لا يحل له أن يوصي لها بشيء، وكذلك لو كان أحد أولاده يبره ويخدمه ويسعى في ماله، فأراد أن يوصي له بشيء، فإن ذلك حرام عليه. وكذلك ما يفعله بعض الناس إذا كان له أولاد عدة وزوَّج الكبير، أوصى للصغار بمثل المال الذي زوَّج به الكبير، فإن هذا حرامٌ أيضًا؛ لأن التزويج دفع حاجة؛ كالأكل والشرب، فمن احتاج إليه من الأولاد وعند أبيهم قدرةٌ، وجب عليه أن يزوجه، ومن لم يحتَجْ إليه فإنه لا يحلُّ له أن يعطيه شيئًا مثل ما أعطى أخاه الذي احتاج للزواج.

وهذه مسألة تخفى على كثيرٍ من الناس، حتى على طلبة العلم، يظنون أنك إذا زوَّجتَ ولدك، فإنك يجب أن توصي لأولادك الصغار بمثل ما زوَّجتَه به، وهذا ليس بصحيح، فالوصية للوارث لا تجوز مطلقًا.

فإنْ قدِّر أن أحدًا كان جاهلًا وأوصى لأحد الورثة بشيء، فإنه يرجع إلى الورثة بعد موته، إن شاؤوا نفَّذوا الوصية، وإن شاؤوا ردُّوها.

ثالثًا: الوصية المباحة: فهي أن يوصي الإنسان بشيء من ماله لا يتجاوز الثُلُثَ؛ لأن تجاوُزَ الثلث ممنوع، لكن ما دون الثلث أنت حرٌّ فيه، ولك أن توصي فيه لمن شئت إلا الورثة، هذه جائزة.

ولكن هل الأفضل الثلث أو الربع أو ما دون ذلك؟ نقول: أكثر شيء الثلث لا تزد عليه، وما دون الثلث فهو أفضل منه؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع؛ فإن النبي ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص: «الثلث والثلثُ كثير»، وكان أبو بكر ﷺ أوصى بخُمس ماله، وقال: أرضى بما رضي الله لنفسه الخمس، فأَوصى بخمس ماله. وهذا أحسن ما يكون.

وليت طلبة العلم والذين يكتبون الوصايا ينبِّهون الموصين على أن الأفضل: الوصية بالخمس لا بالثلث، وقد شاع عند الناس الثلث دائمًا، وهذا الحد الأعلى الذي حدَّه الرسول عليه الصلاة والسلام، وما دونه أفضل منه؛ فالربع أفضل من الثلث، والخمس أفضل من الربع.

وإذا كان الورثة محتاجين فتركُ الوصية أَولى؛ هم أحق من غيرهم؛ قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إنك أنْ تَذَرَ ورَثَتك أغنياءَ خيرٌ من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»، فإذا كان الورثة الذين يرثونك تعرف أن حالهم وسط، والمال شحيح عندهم، وأنهم إلى الفقر أقرب، فالأفضل ألا توصي.

ففي هذا الحديث الإشارةُ إلى أن الإنسان يوصي، ولكن الوصية تنقسم إلى أقسام كما أشرنا، منها واجبة، ومنها محرَّمة، ومنها مباحة.

فالواجبة: أن يوصي الإنسان بما عليه من الحقوق الواجبة؛ لئلا يجحدها الورثة، فيضيع حقُّ من هي له، لا سيما إذا لم يكن بها بيِّنة.

والثانية من الوصية الواجبة: وصية من ترك مالًا كثيرًا لأقاربه الذين لا يرثون بدون تقدير، لكن لا تزيد عن الثُلث.

والوصية المحرَّمة: نوعان أيضًا: أن تكون لأحد من الورثة، وأن تكون زائدة على الثلث.

والمباحة: ما سوى ذلك، ولكن الأفضل أن تكون المباحة من الخمس فأقل، وإن زاد إلى الربع فلا بأس، وإلى الثلث فلا بأس، ولا يزيد على الثلث.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما العمل بالكتابة؛ لقوله ﷺ: (إلا ووصيتُه مكتوبة عنده)، فدل هذا على جواز العمل، بل وجوب العمل بالكتابة.

وفي قوله: (مكتوبة) اسم مفعول، إشارة إلى أنه لا فرق بين أن يكون هو الكاتب أو غيره ممن تثبت الوصية بكتابته، فلا بد أن تكون الكتابة معلومة؛ إما بخط الموصي نفسِه، أو بخط شخص معتمد، وأما إذا كانت بخط مجهول، فلا عبرة بها، ولا عمل عليها.

وفي قوله: (عنده) إشارة إلى أنه ينبغي أن يحتفظ الإنسان بالوثائق، وألا يسلِّط عليها أحدًا، بل تكون عنده في شيء محفوظ محرز كالصندوق وغيره؛ لأنه إذا أهملها فربما تضيع منه، أو يسلَّط عليها أحد يأخذها ويتلفها، أو ما أشبه ذلك.

المهم في هذا الاعتناءُ بالوصية، وأن يحتفظ بها الإنسان حتى لا تضيع.

وفيه أيضًا سرعة امتثال الصحابة لأمر النبي ﷺ؛ لذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما بعد ما سمع هذا الحديث من النبي ﷺ: "ما مرَّت عليَّ ليلةٌ منذ سمعت النبي ﷺ يقول هذا إلا ووصيتي مكتوبة عندي".

فالذي ينبغي للإنسان أن يهتم بالأمر؛ حتى لا يَفجَأَه الموت وهو قد أضاع نفسه، وأضاع حقَّ غيره" انتهى.

16) لا تهمل وصية ميّت، فإنك ترجو ألا تُهمل وصيّتك. ويدخل في ذلك تعويد النفس على قراءة الوصايا من أهل الفضل، وزيارة المرضى فإنها عبادة وفقه. وتدبر أذكار الصباح والمساء ففي معانيها خير جمّ وأثرها عظيم في النفوس.

17) لا تفرح كثيراً بما تناله في الدنيا من خير وما تحققه من نجاحات، ولا تأس أيضاً على فقد أو خسارة! وردد قول الله تعالى في اليسر والعسر ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: 23]. تضبط هذه الآية العظيمة مشاعر الإنسان فلا ينهار حزنًا لما خسره ولا يطرب فرحًا لما اكتسبه. فالمسلم بين الرجاء والخوف، وذلك شعور يدركه جيداً من علم أن الدنيا لا تساوي جناح بعوضة وأن الحيَ لا تُؤمن عليه الفتنة. ولولا الألم ما أدركنا نعمة زوال الألم. تجري مراكبنا بين المتضادات بحسن التوكل ومعاني هذه الآية العظيمة، فإن الأيام مداولة بين تقلبُ الأحوال وفُجاءة النِّقَمْ، عن سعيد بن أبي بردة رحمه الله قال: ما يُنتظر من الدنيا إلا كل محزن، أو فتنة تُنتظر[1]. جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: أخذ النبي ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

18) عليك بقصر الأمل، وتلك وصية الصحابة ﷺ ومن تبعهم بإحسان، قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه: "إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتين: اتباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى: فيصد عن الحق، وأما طول الأمل: فينسي الآخرة، ألا وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة؟، ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، ولكل واحد منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل"[2]. وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: "ما منكم إلا ضيف ومالُه عاريّة، فالضيف مرتحل، والعاريّة مؤداة إلى أهلها". [3] وقال معاذ بن جبل رضى

---

[1] موسوعة ابن أبي الدنيا (18/6)

[2] موسوعة ابن أبي الدنيا 313/3، البخاري في صحيحه: 6416

[3] أخرجه الطبراني: 8455.

الله عنه لابنه: "يا بني إذا صليت فصلّ صلاة مودّع لا تظن أنك تعود إليها أبداً، واعلم يا بني أن المؤمن يموت بين حسنتين، حسنةٍ قدَّمها، وحسنةٍ أخّرها"[1]. وفي ذلك قال ابن القيم رحمه الله: "قصر الأمل: هو من أنفع الأمور للقلب، وبناؤه على أمرين: تيقن زوال الدنيا ومفارقتها، وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها، ثم يقايس بين الأمرين، ويوثر أَولاهما بالإيثار". [2] وقال الفُضيل بن عياض رحمه الله: إنما أمس مثلٌ، واليومَ عملٌ، وغداً أملٌ. [3]

19) جاهد نفسك وأساس منهجك الاستدراك، ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: 114]، فكلما وقعت في سيئة، استغفر الله وهبّ لتحصيل حسنة وحسنات مع تمام اليقين بفضل الله عليك. عن ابن أبي ليلى قال: كتب أبو الدرداء رضى الله عنه إلى مسلمة بن مخلد الأنصاري: أما بعد، فإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله، فإذا أحبه الله حبّبه إلى خلقه، وإذا عمل بمعصية الله أبغضه الله، فإذا أبغضه الله بغّضه إلى خلقه[4]. ولا يعرف حقيقة العبودية مثل العبد المقرّ بذنبه المنكسر لربه يرجو لطفه ومغفرته، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، وجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله –تعالى، فيغفر لهم» رواه مسلم.

20) لابد من نصاب علم شرعي لتعبد الله على نور من الله، في مقدمته المعرفة بالله جل جلاله، فلا تكن ممن قال الله فيهم ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: 91]، قال ابن القيم رحمه الله: "فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب سبحانه في القلب، وأعرف الناس به أشدهم له تعظيماً وإجلالاً، وقد ذم الله تعالى من لم يعظمه حقَّ عظمته، ولا عرفه حق معرفته، ولا وصفه حق صفته؛ قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13)﴾ [نوح: 13] قال ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهما: لا ترجون لله عظمة،

---

[1] صفة الصفوة 231/1

[2] مدارج السالكين 32/2 .بتصرف.

[3] السير (تهذيبه) 774/2

[4] صفة الصفوة 299/1

وقال سعيد بن جبير رحمه الله: ما لكم لا تعظمون الله حقَّ عظمته، وروح العبادة هو الإجلال والمحبة، فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت"[1]. ومعرفة الله تكون كما جاء بها القرآن والسنة وأوضحها السلف الصالح، وإياك وانحرافات المبتدعة فإن سبلهم مهلكة. ولا تحرم نفسك عبادة التفكر في خلق الله فإنها عبادة جليلة تقوي صلتك بخالقك ﷻ.

21) احذر أشد الحذر من الوقوف في باطل أو خذلان الحق ولو بقلبك، قال إبراهيم الخواص رحمه الله: "على قَدْر إعزاز المرء لأمر الله يلبسه الله من عزّه، ويُقيم له العزَّ في قلوب المؤمنين"[2]. وقال ابن القيّم رحمه الله: "وأيُّ دينٍ، وأيُّ خيرٍ؛ في مَن يَرى مَحارمَ الله تُنتهَك، وحدودَه تُضاع، ودينَه يُترك، وسُنة رسول الله ﷺ يُرغب عنها! وهو باردُ القلب، ساكتُ اللسان، شيطانٌ أخرس؟! كما أن المتكلم بالباطل؛ شيطانٌ ناطق، وهل بَلِيَّةُ الدِّين إلا مِن هؤلاء الذين إذا سَلِمَت لهم مآكلُهم ورياساتُهم؟! فلا مبالاة بما جَرى على الدِّين، وخيارُهم المتحزّن المتلمّظ، ولو نُوزع في بعضِ ما فيه غَضاضةٌ عليه في جاهِه أو مالِه بذَل وتبذَّل، وجدَّ واجتهَد، واستعملَ مراتبَ الإنكار الثلاثة، بحَسب وِسْعه! وهؤلاء مع سُقوطهم مِن عَين الله، ومَقت الله لهم، قد بُلوا في الدنيا بأعظم بَليَّة تكون، وهم لا يشعرون، وهو موت القلوب..! فإن القلبَ كلَّما كانت حياتُه أتمّ كان غضبُه لله ورسوله أقوى، وانتصارُه للدين أكمَل". [3] وما أجمل ما قاله ابن القيم:"المؤمن عزيز غالب مؤيد منصور مكفي، مدفوع عنه بالذات أين كان ولو اجتمع عليه من بأقطارها إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته ظاهراً وباطناً وقد قال تعالى للمؤمنين: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139] فهذا الضمان إنما هو بإيمانهم وأعمالهم"[4].

---

[1] مدارج السالكين، 2، 495

[2] صفة الصفوة 348/4

[3] إعلام الموقعين عن رب العالمين 121/2

[4] إغاثة اللهفان (2/ 181)

22) وإياك والظلم فما أهلك أصحاب الخواتيم السيئة مثله، وتأمل الأثر "إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِّينَ سَنَةً، ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ".[1] كما أن الظلم موجب للوقوع في الفتن، قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (25)﴾ [الأنفال: 25]. والظلم بالقول كما بالفعل، فهل يكبّ الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم! وتأمل قول ابن رجب"من الذنوب المانعة من المغفرة؛ الشحناء وهي: حقد المسلم على أخيه بغضاً له لهوى نفسه"[2].

23) تجنب مداخل النار، وما يؤدي إليها، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول -وأهوى النعمان بإصبعيه إلى أذنيه: «إن الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه، وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». متفق عليه. وقال ابن القيم رحمه الله: "دخل الناس النار من ثلاثة أبواب: باب شبهة أورثت شكا في دين الله، وباب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته، وباب غضب أورث العدوان على خلقه"[3]. وإياك والاستهانة بالذنب فهي بداية الانتكاسة والانحراف، ولا تنس محاسبة النفس راغبًا في العدل والإنصاف، مترفعاً عن كل تعصب يحرمك البصيرة، يحدوك في ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30]. وتذكر دائما حديث رسول الله ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تعود القلوب على قلبين؛ قلب أسود مرباداً كالكوز

---

[1] الترمذي عن أبي هريرة

[2] لطائف المعارف: 139

[3] الفوائد لابن القيم، ص: 58.

مجخياً، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه، وقلب أبيض فلا تضره فتنة ما دامت الأرض والسماوات»، رواه مسلم.

24) أوصيك بحديث لا يغيبن عن ذهنك. عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ - ﷺ - قَالَ: قُلْت يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنْ النَّارِ، قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْت عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّك عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ تَلَا: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة: 16] حَتَّى بَلَغَ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: 17]، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُك بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْت: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُك بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ فقُلْت: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وَقَالَ: كُفَّ عَلَيْك هَذَا. قُلْت: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْك أُمُّك وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ -أَوْ قَالَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- إلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟! »[1].

25) تحرّ الصدق في القول بشدة، لأنه مفتاح الصدق في العمل وصدق الرؤى، وبركاته لا تخفى على المثابر الذي يجاهد نفسه وهو يعلم أن الله يراه حتى في الخلوات. واحذر الكذب ولو مزاحاً، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، ومَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ ويَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وإِيَّاكُمْ والْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، ومَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ ويَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وعن أَبِي أُمَامَةَ الباهِلِيِّ ﷺ، قال: قال رَسُولُ اللَّه ﷺ: أَنا زَعِيمٌ ببَيتٍ في ربَضِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقاً، وَببيتٍ في وَسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الكَذِبَ وإِن كَانَ مازِحاً، وَببيتٍ في أعلَى الجَنَّةِ لِمَن حَسُنَ خُلُقُهُ حديثٌ

[1] رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ [رقم: 2616] وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

صحيحٌ، رواه أَبُو داود بإسنادٍ صحيحٍ. وعن عبد الله بن عامر -رضي الله عنه- قال: دعتني أمي يوما ورسول الله - ﷺ - قاعد في بيتنا، فقالت: ها تعال أعطيك، فقال لها رسول الله - ﷺ: "ما أردت أن تعطيه؟" قالت: أردت أن أعطيه تمرا. فقال رسول الله - ﷺ: "أما إنك لو لم تعطيه شيئاً كتبت عليك كذبة "رواه أبو داود، والبيهقي في شعب الإيمان. والمسلم يستعين بالمعاريض عند الحاجة ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً.

26) احذر صفات النفاق، فإنها من أكثر ما استهان به العباد في زماننا، ولم يكن ذكرها في الأحاديث بلا حكمة! فالإصرار عليها والاستهانة بها، ينقل المرء من مجرد خصلة نفاق إلى النفاق المحض، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار والعياذ بالله. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ» رواه البخاري ومسلم. وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» رواه البخاري ومسلم. قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: "الذي فسره به أهل العلم المعتبرون أن النفاق في الشرع ينقسم إلى قسمين: أحدهما النفاق الأكبر، وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله ﷺ ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم، وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار. والثاني: النفاق الأصغر، وهو نفاق العمل: وهو أن يظهر الإنسان علانية صالحة، ويبطن ما يخالف ذلك. وحاصل الأمر: أن النفاق الأصغر كله يرجع إلى اختلاف السريرة والعلانية كما قاله الحسن، والنفاق الأصغر وسيلة إلى النفاق الأكبر، كما أن المعاصي بريد الكفر، وكما يخشي على من أصر على المعصية أن يُسلب الإيمان عند الموت، كذلك يخشي على من أصر على خصال النفاق أن يسلب الإيمان فيصير منافقاً خالصاً. وسئل

الإمام أحمد: ما تقول فيمن لا يخاف على نفسه النفاق؟ قال: ومن يأمن على نفسه النفاق"[1].

27) إن المسابقة في العبادات والصدقات في العلن كلها خير عظيم لكن يبقى أمر الخبيئة التي تخفيها عن الناس في السر، من عمل تتقرب به إلى الله ﷻ لا يعلمه أحد غيره، قدر الإمكان، هي الأجمل وإن صغرت، فهذه الأعمال في السر لها عظيم الأثر كما شاهدنا مع قصة الذين حبسوا في الغار. وقال النبيُّ ﷺ مرةً لأصحابه: «من استطاع منكم أن يكون له خبء من عمل صالح فليفعل». رواه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة. وقال أحد السلف: "أجمع العارفون بالله أن ذنوب الخلوات هي أصل الانتكاسات، وأن عبادات الخفاء هي أعظم أسباب الثبات". وبقدر الإخلاص والصدق تنال بركات السعي! قال ابن تيمية رحمه الله: "إن الفضل بنفس العمل وجودته لا بقدره وكثرته، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: 30]، ورُبَّ تسبيحة من إنسان أفضل من ملء الأرض من عمل غيره". [2]

28) إن القلب يتقلب، والوسط يؤثر في تقلبه، لذلك احرص على الصحبة الصالحة، الصحبة المعينة على طريق الله، ولله الحمد يتوفر اليوم للمسلمين شبكات تواصل يلتقي فيها الشتات من كل مكان في العالم على دين الله نصرة له وولاء للمؤمنين بلا سابق معرفة أو قرابة، فيرسم البذل مشاهد من التفاني والتلاحم الرائع، هذا ميدان لا يشعر فيه المسلم بوحدة إن استوحش يوما ويجد لنفسه فيه موطئ قدم لخدمة دينه ونصرته. عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب

---

[1] جامع العلوم والحكم (1/429-432)

[2] الفتاوى (4 / 378)

ثبت قلبي على دينك»، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك، وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله، يقلبها كيف يشاء »[1].

29) تجنب سفاسف الأمور فإنها كالمستنقع، كالطين، تجرّك لأسفل جرّاً، فلا يمكنك التحليق بعدها وتتأذى نفسك لدرجة الضيق والتخبط والأمراض النفسية، فاشغل نفسك بمعالي الأمور مستذكراً عظم الأجر والجنة، قال ابن القيم رحمه الله: " وكما أن الشاة التي لا حافظ لها وهي بين الذئاب سريعة العطب، فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولا بد، وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى، فهي وقاية وجنة، حصينة بينه وبين ذئبه، كما هي وقاية بينه وبين عقوبة الدنيا والآخرة، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعي كانت أسلم من الذئب، وكلما بعدت عن الراعي كانت أقرب إلى الهلاك، فأسلم ما تكون الشاة إذا قربت من الراعي، وإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم، وهي أبعد من الراعي. وأصل هذا كله: أن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع، وكلما قرب من الله بعدت عنه الآفات"[2]. بحسب ما تغذي بصرك وقلبك تنال العلو بالإيمان. والله سبحانه يقول ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139)﴾ [آل عمران: 139].

30) لا يمكنك أن تثبت على سبيل المؤمنين بلا دعاء واستعانة بالله سبحانه، قال تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186]، قال ابن القيم رحمه الله: "أجمعوا على أن التوفيق ألا يكلك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يُخلي بينك وبين نفسك، فإذا كان كل خير فأصله التوفيق، وهو بيد الله لا بيد العبد، فمفتاحه الدعاء والافتقار،

[1] رواه الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، وأحمد، وغيرهما، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.
[2] الجواب الكافي 79.

وصدق اللجأ والرغبة والرهبة إليه"[1]. ولابد من العناية بآداب الدعاء والإلحاح في أوقات الإجابة، فعن أبي هريرةَ أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "أقربُ مَا يَكونُ العبْدُ مِن ربِّهِ وَهَو ساجدٌ، فَأَكثِرُوا الدُّعاءَ". رواهُ مسلم. والحرص على الحمد والثناء بأسماء الله الحسنى مع الصلاة على النبي ﷺ، قال ابن تيمية رحمه الله: "إن الصلاة على النبي ﷺ قبل الدعاء وفي وسطه وفي آخره من أقوى الأسباب التي يرجى بها إجابة سائر الدعاء"[2]. وهي من آداب الدعاء.﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: 77]، والحمد لله على نعمة الدعاء.. وقود المسيرة والحل الذي لا حل مثله ولا بعده في الأزمات.. ومنتهى الاستعانة بالله سبحانه.. والهداية لخير الدعاء فضل عظيم من الله، والهداية للدعاء في حينه أيضا فضل. قال ابن عبد البر رحمه الله: "كان عروة بن الزبير يواظب على حزبه من الدعاء كما يواظب على حزبه من القرآن"[3]. وكم من صالح استجاب الله له الله دعاءه بحسن الخاتمة، منهم الصحابي عبد الله بن سعيد بن أبي السرح ﷺ (ت: 36هـ) فقد ورد في كتاب الاستيعاب أنه دعا الله أن تكون خاتمة عمله صلاة الصبح، وقال ابن كثير: مات وهو ساجد في صلاة الصبح. ومنهم: المحدث أحمد بن المظفر النابلسي رحمه الله (ت: 758هـ) قال الحافظ ابن حجر: كان يقول: اشتهي أن أموت وأنا ساجد فرزقه الله ذلك. فقد وجدوه ميتاً وهو ساجد. ولا ننسى أن الدعاء للغير له أجر عظيم أيضا، عن أَبي الدَّرداء ﷺ، كان رسول اللَّه ﷺ يقول: "دعوةُ المرءِ المسلِمِ لأخيهِ بِظهرِ الغيبِ مُستجابةٌ، عِند رأْسِهِ ملكٌ مُوكَّلٌ كلَّما دَعا لأَخيهِ بخيرٍ قَال المَلَكُ الموكَّل بهِ: آمِينَ، ولَكَ بمِثْلٍ"، رواه مسلم. قال ابن تيمية: "ودعاء الغائب للغائب أعظم إجابة من دعاء الحاضر، لأنه أكمل إخلاصاً وأبعد عن الشرك"[4]. وعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة". قال الهيثمي في

---

(1) كتاب الفوائد لابن القيم، ص97.

(2) اقتضاء الصراط 249/2.

(3) التمهيد 300/10

(4) فتاوى ابن تيميه 1/328

المجمع: إسناده جيد، وحسنه الألباني في الجامع. فاللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات.. اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عن عبادك المؤمنين وإمائك المؤمنات.

31) لا تشغل بالك كثيراً بمن آذاك ونال منك بظلم، واحتسب سليم الصدر على المؤمنين، وهي صفة الشهداء! وهذا لا يعني أن تلدغ من جحر مرتين، فالمؤمن كيّس فطن، لكن احتسب كل ما يؤذيك في سبيل الله، وتغاضى عنه، فإن في ذلك راحة بال وبعد نظر. في الحديث الصحيح، قيل للنبي ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: «كل مخموم القلب، صدوق اللسان»، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «هو التقي النقي، لا إثم فيه، ولا بغي، ولا غل، ولا حسد». وقال ابن القيم: "إن العبد ليشتد فرحه يوم القيامة بما له عند الناس من الحقوق في المال والنفس والعرض". [1] وسلامة الصدر على المؤمنين من نعيم أهل الجنة المعجّل، قال تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: 47]، قال ابن منظور: "هو إمساك العداوة في القلب والتربص لفرصتها"، وفي هذا دلالة على أن الغل يدخل بين المؤمنين، ولكنه لا يحرمهم الجنة. وتعهد القلب بهذه الآية مطلوب حين يوسوس الشيطان للنيل من مؤمن. فمن يحمل الغل اليوم سيحمل الود في الغد. قال الرسول ﷺ: «لا تدخلوا الجنةِ حتى تؤمِنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، ألا أدلُّكم على ما تحابُّون به؟ قالوا: بلى، يا رسولَ اللهِ، قال: أَفشوا السلامَ بينَكم»[2]، وقال ﷺ: «تهادوا تحابوا». [3] وروى البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك ﷺ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» روى الإمام أحمد في مسنده من حديث معاذ ﷺ؛ أنه سأل رسول الله ﷺ عن أفضل الإيمان، قال: «أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ لِلهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللهِ، وَتُعْمِلَ لِسَانَكَ فِي ذِكْرِ اللهِ» قال: وماذا يا رسول الله؟ قال: «وَأَنْ تُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَتَكْرَهَ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ، وَأَنْ

---

[1] مدارج السالكين 1/306

[2] أخرجه مسلم (54)، والبخاري في (الأدب المفرد) (980) واللفظ له

[3] ورواه كذلك أحمد الطيالسي والبخاري في الأدب والترمذي والنسائي في الكنى وأبو يعلى في معجمه وإسناده جيد ورواه البيهقي في الشعب من طريق صمام عن موسى بن وردان عن أبي هريرة وعند ابن عساكر في التاريخ بزيادة "وتصافحوا يذهب الغل عنكم".

تَقُولَ خَيْرًا أَوْ تَصْمُتَ»، وروى الإمام أحمد في مسنده من حديث يزيد بن أسد القسري ﷺ، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أَتُحِبُّ الْجَنَّةَ؟» قلتُ: نعم، قال: «فَأَحِبَّ لِأَخِيكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ». وروى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأتِ إِلى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ».

32) قال تعالى ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (113)﴾ [هود: 112-113]، هذه الآيات من سورة هود عظيمة جداً، منهج حياة، استقم كما أمرت، لا تنحرف عن سبيل المؤمنين، لا إلى التفريط ولا إلى الإفراط، لا إلى ركون ولا إلى طغيان، فذاك منهج النبي ﷺ، وأما غيره فسبل البدعة، قال ابن القيم رحمه الله: "ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وإضاعة وإما إلى إفراط وغلو. ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه كالوادي بين جبلين والهدى بين ضلالتين والوسط بين طرفين ذميمين"[1]. وقال ابن القيم: "الدِّين كله في قوله تعالى (فاستقم كما أُمرت)"[2] وقال ابن تيمية رحمه الله في التحفة العراقية: "البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن البدعة لا يتاب منها فالمبتدع قد زين له سوء عمله فرآه حسنا فهو لا يتوب ما دام يراه حسنا والمعصية يتاب منها". واعلم أن أمر هذه الأمة لا بد له أن يقوم على السنة، لأن خلافة آخر الزمان لا تكون إلا على منهاج النبوة، فلا ملك عضوض ولا حكم جبري، ولا سبيل بدعة، إنما بالعودة الكاملة الشاملة التامة لمنهج أهل السنة والجماعة، وهذا يعني أن مجرد التزامك بهذا الأصل، ومجرد ثباتك على سبيل الاستقامة كما يحب الله ويرضى، فقد ساهمت في نصرة هذه الأمة نصراً عظيماً مؤزراً. فكيف إن ربيت من تحتك على هذه الاستقامة، وكيف إن ساهمت في نشرها بين محيطك ومعارفك، بتصحيح المفاهيم الخاطئة وتصحيح أخطاء المبتدعة. فهذا من جنس الجهاد لا محالة، قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "وتبليغ سُنَّتِه إلى الأمة أفضل من تبليغ السِّهام إلى نحور العدو، لأن ذلك التبليغ يفعله كثيرٌ من

---

[1] مدارج السالكين (2/496)

[2] طريق الهجرتين ص 114.

الناس، وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء؛ وخلفاؤهم في أُمَمِهم، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه"[1].

33) الصبر عند البلاء من أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، والبلاء الذي يتعرض له المؤمن يهون، إذا احتسبه العبد لتكفير ذنوبه ورفع درجته؛ قال رسول الله ﷺ: «إذا ابتلى الله العبد المسلم ببلاء في جسده، قال الله عز وجل لملائكته: اكتبوا له صالح عمله، فإن شفاه الله غسله وطهّره، وإن قبضه غفر له ورحمه» صحيح الجامع. والموت مصيبة لابد منها، تبتلى بها فيمن تحب ثم تبتلى بها في نفسك وبالاحتساب يعظم الأجر.

إن عشت تفجع بالأحبة كلهم ولفقد نفسك لا أبا لك أفجع[2]

34) علو الهمة حزام أمان للمسلم يمنعه من السقوط، فإن لم تجده في نفسك فاصنعه صناعة[3] قال ابن قتيبة رحمه الله: "ذو الهمة إن حُطَّ فنفسه تأبى إلا عُلوّا، كالشعلة من النار يُصَوِّبُها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعا[4]". قال ابن القيم رحمه الله: "ولقاح الهمة العالية النية الصالحة، فإذا اجتمعا بلغ العبد غاية المراد"[5]. مجرد شعور أن هناك من يسبقك لله، لا بد أن يستنهض العزم ويوقد فتيل الهمة فيك، فإن لم تشاهده أمامك اجعله حاضراً في ذهنك. ولم أر مثل همة أحد الصالحين، حيث قال: إني أعمل في هذه الدنيا حتى إذا ما لقيت ربي قلت: والله لو أرجعتني إليها ما عملت أكثر مما عملت فيها حين كنت فيها.

---

[1] جلاء الأفهام ص491.

[2] البيتان للبخاريّ لما بلغه خبر وفاة الدّرامي رحمهما الله.

[3] قد تناولت كل ما يتعلق بعلو الهمة في كتاب "صناعة الهمة"

[4] عيون الأخبار 231/3

[5] الفوائد (406).

35) الكـيّس الفطـن ينـام علـى توبـة واسـتغفار ولا يفـرّط في فرصـة لـذكر الله أثنـاء عملـه وأثنـاء راحتـه. قـال ابـن رجـب رحمـه الله: "المـؤمن لا ينبغـي أن يصـبح ويمسـي إلا علـى توبـة، فإنـه لا يـدري متى يفاجئـه المـوت صـباحا أو مسـاء، أو تقـبض روحـه علـى طاعـه أم علـى معصـيه. فمـن أصـبح أو أمسـى علـى غـير توبـة، فهـو علـى خطـر، لإنـه يُخشـى أن يلقـى الله غـير تائـب، فيُحشَـر في زمـرة الظـالمين، قـال الله تعـالى: ﴿وَمَـنْ لَمْ يَتُـبْ فَأُولَئِـكَ هُـمُ الظَّـالِمُونَ (11)﴾ [الحجـرات: 11]"[1]. وتأمـل حـين سمـع داود الطـائي رحمـه الله امـرأة في مقبرة تندب ميتا لها ببيتين من الشعر قالت فيهما:

مقـــيم إلى أن يبعـــث الله خلقـــه لقـــاؤك لا يرجـــى وأنـــت قريـــب
تزيـــد بلـــى في كـــل يـــوم وليلـــة وتنســـى كمـــا تبلـــى وأنـــت حبيـــب

فوقع البيتان في قلبه وقعاً شديداً، وفزع منهما ورجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة، واستمر مقبلا على العبادة إلى أن توفي – رحمه الله. وروي عن ابن عباس، في قوله تعالى: (يتوبون من قريب) قال: قبل المرض والموت، وهذا إشارة إلى أن أفضل أوقات التوبة، هو أن يبادر الإنسان بالتوبة في صحته قبل نزول المرض به، ويكثر من العمل الصالح وهو يحسب حساب اليوم العسير، قال رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم لرجلٍ وهو يَعِظُه: «اغتنِمْ خمسًا قبل خمسٍ: شبابَك قبل هَرَمِك، وصِحَّتَك قبل سَقَمِك، وغناك قبل فقرِك، وفراغَك قبل شُغلِك، وحياتَك قبل موتِك »[2].

36) لا تـترك حقـاً لإنسـان عنـدك، أعـد الحقـوق لأصـحابها، واسْـعَ قـدر المسـتطاع لأداء الـديون وللعـدل في الحكـم وطلـب المسـامحة ممـن ظلمـت، فسـتندم كثـيراً لحظـة المحاسـبة! ولا أحكـم مـن تنظيف كتابك من كل مظلمة، فالظلم ظلمات يوم القيامة، وخاب من كسب ظلما، ومن ذلك، قطع الـرحم، والتعامـل بالـربا، وظلـم الجـار، والمماطلـة المتعمـدة في دفـع الـدين، وغـيره مـن مواقـف الظلم بين الناس، فالحقوق لا تسقط بالتقادم.

---

[1] لطائف المعارف (358)

[2] رواه عبد الله ابن عباس وإسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما.

37) في لحظات الموت وكل لحظة نازلة أو حدث يزلزل القلوب، كن المذكِّر بالله، الداعي إليه سبحانه، اعمل على إحياء القلوب للفرار إلى الله، لا تنهزم ولا تنهار، كن كالصّدّيق حين فجع بأحب الناس إليه! نبيّ الله ﷺ، مع ذلك قام كالطود شامخاً يحفظ أمانة الدين! كوني كأم سليم رضي الله عنها زوجة أبي طلحة رضي الله عنه، لما مات ابنه الذي يحبه كما أورد مسلم في صحيحه: "قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوما أعاروا أهل بيت عارية فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، قالت: فاحتسب ابنك ". هذه حال من يعيش القرآن في كل تفاصيل حياته.

38) اعلم أنها قضية معادلة، كلما أقبلت على الإسلام بكلك لا ببعضك، أخذت من بركات النصر والتأييد من هذا الدين ما يذهلك ويتفطر له قلبك. فلا تبخل على نفسك بالمجاهدة والمسابقة، وستلاحظ أنه ما من اجتهاد في عبادة إلا كان له انعكاس على نفسيتك، بشراً وسروراً وكأن الله ﷻ يعجّل لعبده الجزاء في الدنيا، ويلطف به، وما أدراك ما لطف الله ﷻ، على عكس الظالم لنفسه الذي لا ينفك يتعثر ويعيش الضيق النفسي والغمة فلا تنفعه عقاقير ولا جلسات نفسية، تلك هي المعيشة الضيقة! قال تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: 124]، على عكس المؤمن، قال الله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97)﴾ [النحل: 97]. قال ابن القيم رحمه الله: "المؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشاً وأنعمهم بالاً وأشرحهم صدراً وأسرهم قلباً وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة"[1] فالإخلاص أول مفاتيح السعادة والفلاح. وقال رحمه الله: "متى نزلت على العبد السَّكِينَة: استقام، وصَلُحت أحواله، وصَلُح بالُه.. وإذا ترحَّلت عنه السَّكِينَة، ترحَّل عنه السُّرور، والأمن، والدَّعة، والرَّاحة، وطيب العيش.. فمِنْ أعظم نعم الله على عبده: تَنَزُّل السَّكِينَة عليه، ومن أعظم أسبابها: الرِّضا عنه[2]". أنت بحد ذاتك بتفاصيلك الخاصة والعامة منظومة كاملة متكاملة، كل جزء فيها مرتبط بالآخر، كما تتصل دنياك

---

[1] تهذيب الجواب الكافي 130

[2] مدارج السالكين 2-207

بآخرتك، فاعمل على هذا الأساس، إن صلحت المنظومة كان كل أدائك صالحاً، إلا ما احتاج إلى صيانة واستدراك، وإن فسد جزء منها تعثرت وضعف أداؤها حتى تعيد إصلاحه، وتلك هي المجاهدة.

39) أعُظِم التوكل على الله وعش طيّب البال، فقد تأملت في عبادة التوكل فوجدتها كمجاديف القارب في بحر هذه الحياة، لا يزال المتوكلون على الله ينسابون بسهولة ويسر متجاوزين جميع العقبات بأقل التكاليف وقلوبهم منشرحة! حين تنقطع الأسباب.. أعْظِم التوكل على الله مولاك لتُبهرك معيته. وثمرة التوكل الرضا أي القناعة والسعادة القلبية والاطمئنان. قال ابن القيم: "كلما كان العبد حسن الظن بالله حسن الرجاء له صادق التوكل عليه: فإن الله لا يخيب أمله فيه ألبتة، فإنه سبحانه لا يخيب أمل آمل ولا يضيع عمل عامل"[1]. وقال أيضا: "فالقوة كل القوة في التوكل على الله كما قال بعض السلف؛ من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله "[2] و"ما اقتَرَنَ العَزمُ الصحيحُ بأدبِ التوكُّلِ على مَن بيدِه ملكوتُ كلِّ شيءٍ إلا كانت عاقبتُه نجاحاً ورُشْداً"[3].

ومن فقه التوكل، استعانتك بالله في كل عمل وكل خطوة واختيار، تشكو بثك وحزنك في الدعاء وتسأله التوفيق والسداد، فتلتمس بركة هذا الإقبال يسراً ومعية وتوفيقاً. وتلك ثروة لا تضاهيها ثروة في العالم! ومن عود نفسه هذا الفقه اختزل المسافات وارتقى الدرجات على قلة ذات اليد وبضاعته المزجاة. قال عروة بن الزبير: "إني أسأل الله في صلاتي، حتى أسأله الملح إلى أهلي".

40) من أسرار السعادة والطمأنينة في هذا الزمان "فقه الإحسان"، إحسان العمل والتفاني في الإخلاص والإنجاز.. إحسان التوكل على الله توكلًا لا يهتز بحوادث الأيام.. إحسان الصبر

---

[1] مدارج السالكين (3/471)

[2] زاد المعاد (2/331)

[3] موسوعة الأعمال الكاملة لمحمد الخضر حسين (5/136)

والاستعانة بالله في كل السكنات والحركات.. الإحسان في تقديم كل شيء، ابتغاء مرضاة الله، لا تنتظر جزاءً ولا شكوراً، همك القبول لا هم لك آخر يسبقه! ثم كل ما يأتي بعد ذلك، ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 137].

أكثر الناس سكينة وسعادة:

من يعطي دون انتظار مقابل.

من يحسن التوكل والاحتساب.

من يردد عند كل كارثة ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72)﴾ [طه: 72]

من سلم صدره على المؤمنين تحدوه ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: 22]

من لم يدخر جهداً في المسابقة ووقود مسيرته ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (21)﴾ [الإسراء: 21]

وبها يتمايز المؤمنون.

41) لابد للمرء من ذكر للجنة لتشتاق النفوس لها، قال ابن القيم: "فإن العبد على جناح سفر، إما إلى الجنة وإما إلى النار"[1]. وقال في مدارج السالكين: "إذا خلاَ القلبُ من ملاحظةِ الجنّة والنّار فترَت عزائمه"، فقلبك بين ترهيب وترغيب يمضي مستقيماً على سبيل المتقين. وتأمل ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 32]، ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 24]، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: 73] فيا لجلال اللقاء!

وفي الواقع، النصائح كثيرة والوصايا مديدة، من كتب السلف إلى عصرنا اليوم، الكثير من الثروات الثمينة، وليست القضية متعلقة بعدد الوصايا إنما بالقلوب الحيّة التي تحييها كلمة، يحييها الإيمان ويدفعها الشغف والشوق لما عند الله، وتأمل كيف تشعل الكلمات الهمة عند التشجيع وكيف تخمدها عند التثبيط.. وقد كان السابقون تكفيهم الآية والحديث

[1] (فوائد الفوائد 86).

والموعظة الحسنة، فينطلقون في مضمار المسابقة بقلوب خفاقة حنينها جارف! ولعل هذا المعنى نستنبطه من قول ابن مسعود ﷺ حين قال في صحيح الأدب المفرد: "إنكم في زمان كثير فقهاؤه قليل خطباؤه قليل سؤاله كثير معطوه، العمل فيه قائد للهوى وسيأتي من بعدكم زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه كثير سؤاله قليل معطوه، الهوى فيه قائد للعمل، اعلموا أن حسن الهدي – في آخر الزمان– خير من بعض العمل".

ومتى ما أصبح تأثير الكلمات الطيبة في قلوبنا ينعكس عملاً وإقبالاً، هنا نتحدث عن إنجاز عظيم وانعطافة جادة لتغيير حياتنا للأفضل. فالقلوب هي مصانع الخير ومصانع المستقبل.

ومما يُثقل علي، أني أجد الكثير من الاستنباطات العظيمة في كتاب الله وأحاديث نبيه ﷺ، وفي كلام السلف والعلماء، فأتوق للتعبير عنها باسترسال وإطالة إلا أنني — في ذات الوقت– أجد نفسي مضطرة للاختصار، تدفعني طبيعة الزمن الذي أصبح فيه القارئ يعجز عن مجرد قراءة مقالة فكيف بقراءة كتاب يتجاوز المئة صحفة!

فحسبي أني بلغت آية وحديثاً وأثراً، وأسأل الله أن يبارك في ذلك، ويجعل منه ذخيرة وتذكرة ودليل عمل ومسابقة. وما لا يدرك كله لا يترك جلّه!

*******

ترجـــو البَقـــاءَ بـــدارِ لا ثَبـــاتَ لهـــا فهـــل سَمِعْـــتَ بظـــلٍّ غـــيرِ منتقـــلِ
ويا خبـــيراً علـــى الأســـرار مُطّلِعـــاً اصْمُتْ ففي الصَّمْتِ مَنْجاةٌ من الزَّلَلِ
قـــد رشَّـــحوك لأمـــرٍ إنْ فطِنـــتَ لـــهُ فـاربأْ بنفسـكَ أن ترعـى مـع الهَمَـلِ[1]

[1] أصالة الرأي صانتني (لامية العجم)، الطغرائي.
(الصورة المرفقة من مواقع إعلامية على الشبكة).

## حديث الموت

عش لحظة الموت بنفسك! ضع يدك على قلبك، تخيل توقف نبضه، وتلاشي مشاهد الحياة من أمام عينيك، وتسلل البرودة لجسدك، فلم تعد ترى إلا ما أنت مقبل عليه، قد نسيت كل من تحب، وكل من تعرف، وكل ما تعلقت به في الدنيا وكل أمنية حدثت نفسك بها يوما!

تلك اللحظة الحاسمة التي تعلم يقيناً أنها قادمة لكنك لا تعلم أين وكيف ومتى!

هناك من وصل إلى حافة الموت وأعاده الله للحياة، كنت ممن منّ الله علي بذلك، عدة مرات، فصنع ذلك في نفسي صنيعه! وجعلني أنظر للدنيا بحجمها الحقيقي، كل لحظة قرب من الموت، كانت بمثابة نذير وتنبيه، ونصيحة وموعظة، أدركت خلالها أن لا شيء في هذه الدنيا أعظم ولا أجل ولا أسمى من حب الله ﷻ، من القرب منه من الفرار إليه! فالمرء كما قال ابن تيمية في التحفة العراقية: "إذا وجد عبد حلاوة محبة الله وجدها أحلى من كل محبة ولهذا يكون إشتغال أهل الجنة بذلك أعظم من كل شيء فيلهمون التسبيح كما يلهمون النفس تنعماً به"، وقال فيها أيضا: "إن أعظم الوصايا أن تحب الله بكل قلبك وعقلك وقصدك وهذا هو حقيقة الحنيفية ملة إبراهيم التي هي أصل شريعه التوراة والإنجيل والقرآن".

كل حياة خلت من معنى حب الله، هي قبر! كل إحساس لم ينطلق من حب الله ﷻ، هو موت!

كل حركة وسكنة في وصال دائم مع الله سبحانه، هذا ما علمتني تلك التجارب في الحياة.

رأيت الموت ورأيت الموتى ورأيت كيف يصنع الموت بأيدي البشر، كل ذلك كان حقيقة لا خيالاً، إنما الخيال ما نعيشه اليوم من تعلق بالدنيا، من تمسك بها لحد الظلم والطغيان.

مع أن لحظة معية ربانية تستشعرها في خضم الحياة كافية لأن تصنع منك مدفعاً.. بركاناً من العطاء والبذل، ينهمر نصرة لدين الله ونجدة الضعفاء!

كثيرة هي الكتابات التي تناولت قضية الموت، قد تسابقت الأقلام على الحديث عنها بتفانٍ وألم!

ومع ذلك قليلة هي الهمم التي جعلت هذا الموت هدفاً نبيلاً جليلاً!

أولئك الذين ساروا على طريق الفرار إلى الله أو "الموت مظانه" هم فقط من أحسنوا فهم فلسفة الحب في الحياة.

عن أبي هريرة ﷺ: "خير معايش الناس لهم، رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله، ويطير على متنه، كلما سمع هيعة أو فزعة، طار عليه إليها، يبتغي الموت أو القتل مظانه، ورجل في غنيمة في رأس شعفة من هذه الشعاف، أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير"[1].

إنه إقبال على الموت بيقين الحياة الأبدية وأمنية الخلود في الجنة السرمدية، ينبض حباً لله ﷻ ولنبيه صلوات ربي عليه وسلامه.

حبّ لا يناجزه حب، وفداء لا يباريه فداء.

[1] صحيح ابن ماجه

والمؤمن يستعذب الموت في مواطن الجهاد حيث تبذل الدماء رخيصة في سبيل الله ومن أجل حياة الأمة كلها.

يجودُ بالنَّفسِ أَنْ ضنَّ الجبانُ بها  والجودُ بالنَّفس أقْصَى غايةُ الجُودِ

قال ﷺ: "من قاتل في سبيل الله فواق ناقة فقد وجبت له الجنة، ومن سأل الله القتل في سبيل الله من نفسه صادقا ثم مات أو قتل فإن له أجر شهيد" رواه أحمد، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه به؛ مات على شعبة من نفاق". رواه مسلم.

فلا عجب أن اقترن النفاق بكراهية الموت في سبيل الله ولا عجب أن صار حالة الأمة للضعف وتداعي الأمم – وأنجس الأمم– عليها إلا من هذا الوهن الذي تحول لأغلال تمنع نهوضها، ولن ترجع هذه الأمة لحالها الأول إلا بالعودة لما كان عليه الجيل الأول المتفرد، جيل الصحابة العظام، ﷺ، الذين جعلوا سبيلهم للحياة، طلب الموت في سبيل الله فانعكس ذلك على أفعالهم بالصدق في البذل، والعدل في القول، والتقوى في كل فعل، فكان لذلك بركاته بفتح البلدان وهزيمة الأعداء ونشر الإسلام وإعلاء كلمة الله تعالى.

لقد طلبوا الموت فوهبهم الله به الحياة في الدراين، الدنيا والآخرة، فأي فضل أعظم من هذا الفضل!

إن الموت مدركنا لا محالة، فليكن في عزة وشرف، في عمل لله، في طاعة له ﷻ، في إعلاء لكلمته سبحانه، في صياغة السياق الذي تقوم فيه شريعته حاكمة لا محكومة أو مدفونة، في كل جهد لإقامة حكم الله في الأرض، ولا يكون في ركون للدنيا وتعايش مع المذلة والانهزامية وهوان النفس.

ثم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، ولن نغير ما بأنفسنا حتى نغير فكرتنا عن الموت.

لن نغير ما بأنفسنا حتى يصبح الموت أعظم موعد يشغل بالنا وتفكيرنا وجدول أعمالنا ومسابقتنا.

حتى نكون كالصحابة ﷺ الذين جمعوا "إلى فروسية الخيل، فروسية الإيمان واليقين والتنافس في الشهادة وبذل نفوسهم في محبة الله ومرضاته فلم تصمد أمامهم أمة من الأمم، ولم يحاربوا أمة إلا قهروها".

ولأن مستقبل هذه الأمة النصر كما قال رسول الله ﷺ: "بشر هذه الأمة بالسناء والدين والرفعة والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب"[1].

فلا يحمل المسلم إلا هم الاستعمال لنصرة دين الله ويستعيذ بربه من الاستبدال مدركاً تمام الإدارك، أنه لا يغني حذر من قدر! وأن الموت إذا حلّ موعده لا يستأخر ساعة ولا يستقدم.

والسير في سبيل الاستحقاق للاستعمال، يتطلب صدق النية وقوة الإخلاص ابتداءً، وحسن الاتباع وصحته لنهج النبي ﷺ، ذلك أن الانحراف عن سبيل النبي ﷺ موجب للخسران المبين قال تعالى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً (115)﴾ [النساء: 115] ومن يجرؤ على معاندة سنن الله إلا ظالم لنفسه خاسر!.

---

[1] صحيح الترغيب

من ذلك يظهر لنا أهمية النأي بالنفس عن سبل البدعة والانحرافات العقدية، فهي من أكثر ما يفسد الخواتيم وكذلك الظلم والجور.

قال الإبراهيمي: "ما زال للهِ جندٌ ميسَّرٌ لنَصرِ دِينِه، تجهّزُه العنايةُ الإلهيةُ لحينِ الحاجةِ إليه"[1]. فلا يغفل عاقل عن سؤال الله الاستعمال في نصرة دينه ويقرن ذلك بالاستعاذة بالله من الاستبدال.

وأما الانتحار لمجرد الخلاص من تكاليف الحياة، فقد جعل الله مصير المنتحر خسراناً مبيناً، قال ﷺ: "من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن شرب سماً فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً". متفق عليه.

واستقرار الإيمان في القلب لا يسمح للانتحار بطرق بابه أبداً. ويفتح بدلا من ذلك باباً لتمني الموت فيما يرضي الله جلّ جلاله.

فالمؤمن يتمنى الموت في الجهاد فهو من أعلى مراتب الشهادة، قال ابن تيمية عن الجهاد: "وهذا باب واسع لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه، فهو ظاهر عند الاعتبار، فإن نفع الجهاد عام لفاعله، ولغيره في الدين والدنيا، ومشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة، والظاهرة، فإنه مشتمل على محبة الله، والإخلاص له، والتوكل عليه، وتسليم النفس والمال له، والصبر والزهد، وذكر الله، وسائر الأعمال، على ما لا يشتمل عليه عمل آخر، والقائم به من الشخص والأمة، بين إحدى الحسنيين دائماً، إما النصر والظفر، وإما الشهادة والجنة"[2].

---

[1] آثار الإبراهيمي (3/158).

[2] مجموع فتاوى ابن تيمية (353/28)

وعَنْ أبي سعيدٍ الخدري – ﷺ– عنِ النَّبي ﷺ قال: «أفضلُ الجهادِ كلمةُ عدلٍ عند سلطان جائرٍ" رواه أبو داود، والترمذي، وقال: حديث حسنٌ.

ويتمنى المؤمن الموت خوف الفتنة إيثاراً للتمسك بالعقيدة الصحيحة كما رد السحرة على فرعون حين هددهم بقطع أيديهم وإنزال أشد العذاب بهم فـ ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (50)﴾ [الشعراء: 50].

ويتمناه حين ينتفض للحق ولا يرضى الضيم قال ﷺ: "من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد". رواه أحمد.

وفي كل ذلك يرضى المؤمن بقدر الله فيصبر عليه ويحتسب لا يظهر التسخط ولا التذمر مدركًا لحقيقة الموت.

واللبيب يعمل لحياة لا موت فيها، روى البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي منادٍ يا أهل الجنة فيشرئبون – (يمدون أعناقهم ويرفعون رؤوسهم للنظر) – وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح ثم يقول: يا أهل النار فيشرئبون، فيقول: هل تعرفون هذا؟. فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»، ثم قرأ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39)﴾ [مريم: 39].

وحديثنا عن الموت في هذا الكتاب ليس قاصراً على العظة والتذكرة إنما هو محاولة قراءة الموت كحقيقة تجتمع حولها المعاني الإيمانية والعقدية والمبادىء الحياتية والعملية والدوافع

السلوكية والأخلاقية التي يقوم عليها أداء الإنسان في الحياة، بين مجتهد مثابر وبين لاهٍ عابث. فهذا يترك الأثر وذاك يترك أسوأ المثل.

وعلى عكس ما يشغل الناس اليوم التنافس فيما يعد "منحة وهبة" من الله ﷻ لعباده، فيهب من يشاء المال ويهب من يشاء الولد، تنافس على حقيقة أن كل ما نحن فيه من نعم إنما هي من الله ﷻ، فيا لها من مضيعة للوقت ومفسدة للقلب، يبقى أكثر ما يغيب عن أذهان الناس في غمرة هذا التنافس على الدنيا في زماننا: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53]، ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: 33].

لذلك يختلف أداء وعطاء المرء تماما، حين يتعامل مع نعم الله بفقه المنحة والحقوق والمحاسبة لأننا لله راجعون. وتلك حقيقة الموت فنقول "إنا لله وإنا إليه راجعون" فما نحن إلا عبيد لله وخلق من خلقه سبحانه، لا يمكن لأحد أن يفر منه، قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: 8].

وبهذه المعاني وهذه المفاهيم يتباين أداء الناس في الدنيا وتتباين مراتبهم في الآخرة.

ويكفي من ذكر الموت إدارك حقيقة أن المتعة الخالدة هي متعة الجنة، التي تستحق كل السعي لها، أما ما في الدنيا فكلها متع زائلة، لها عمر محدود وصلاحية معينة.

ويكفي من ذكر الموت تشويق النفس للجنة، للفرد ولمن يحب، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: 21]، وقال سبحانه ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17].

وما الموت إلا انتقال من دار إلى دار، لا ينجح في هذا الانتقال من قال الله فيهم ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: 16-17]. وإنما ينجح فيه من أدرك قول رسول الله ﷺ: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»، رواه البخاري.

قال تعالى ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185)﴾ [آل عمران: 185]

فهذا أعظم نجاح وأهم هدف على المسلم أن يعمل عليه في حياته، ولا يكلّف الله نفسا إلا وسعها.

فاعمل أيها المسلم ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، قال الله تعالى ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105)﴾ [التوبة: 105].

الكثير أود الحديث عنه في حديثنا عن الموت، الكثير من المشاهد في حياتنا، من الحقائق التي يغيّبها الإعلام ويخفيها، وإن كنت أدّخر منه لمشاريع مقبلة بإذن الله لصناعة التغيير الواعد، إلا أنني ألخصه في عبارات جامعة لها دلالات بعيدة لمن تدبّر، فحديث الموت متصل بماضينا وواقعنا ومستقبلنا، فهو ليس مجرد أرقام في وثيقة توثّق تأريخ موت الإنسان، بل هناك حقوق وواجبات تتعلق بهذه التواريخ، فقتل المسلم ظلماً وعدواناً يتطلب قصاصاً وإقامة للعدل.

وموت المسلم في دنيا دنية خلف شهوة مهلكة، غفلة لا يجب أن يُهملها القادة العاملون، بل يجب أن يقيموا المشاريع التي تنتشل هؤلاء الشباب من آلة التجهيل وصناعة الجاهلية، آلة التفسيق التي يحارب بها الكفار دين الله ويهدمون بها عوامل وأسباب الانبعاث داخل هذه الأمة.

والحديث عن الموت يعني القضاء على البدع والشركيات التي توارثتها الأجيال من الفرق المنحرفة وينشرها دعاة الضلالة، حتى تقوم الأمة كما أرادها الله على منهاج النبوة.

الحديث عن الموت يعني إقامة الأجيال على حب المنية نصرة لله ولرسوله ﷺ، فتنصلح القلوب وتصغر الدنيا في قلوبهم ليسهل العمل على صناعة النصر والتمكين ويقل التنازع على فتات الدنيا ويحل الاستحقاق للفضل العظيم، فضل خلافة الصالحين في الأرض!

إن حديث الموت يفرض نفسه فرضاً، فهو حاضر في الأوبئة وفي الحروب، وهي آخذة في الازدياد، كما تشير له أحاديث آخر الزمان، فلا تجعل نفسك مجرد ميت غير مأسوف عليه، رحل بلا عمل ينجيه من عذاب القبر ومن لحظات الحساب العظيمة.

إن حديث الموت يعني الاستعداد لزمن الفتن الذي بدأ بالفعل، زمن يكثر فيه الهرج والقتل، ولا بد له من إعداد وصبر!

إن حديث الموت حديث أمة كادت أن تموت في زمن الاستضعاف، لولا لطف الله بها، وكفايته لها المكر الكُبَّار الذي يحيط بها من كفار الشرق والغرب وكل خائن من هذه الملة! فقيّض الله لها من أبنائها من يرفض الركوع لغير الله ولا يزال ثابتاً لأجل أن يكون له نصيب في تحقيق وعد الله الحق ولو بسجدة خالصة في جوف الليل ولو بصدقة خفية في سبيل الله، كل يبذل قدر استطاعته بقلب نابض بحب الله يرجو رحمته، الرجل والمرأة، إنه مضمار مسابقة بالنفس والنفيس لنيل مرضاة الله ﷻ ووعد نبيّه في عليين، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

إن حديث الموت يعني تربية النفس وصقلها وصناعة أجيال تقوم على الصدق والأمانة والكرم والشجاعة، فلا تسل بعدها عن جمال مسابقتهم وحسن صنيعهم لأنفسهم وأمتهم. يصنعون التمكين ويحفظون التمكين.

إن حديث الموت يعني أن لقاء الله ونيل قبوله ورضوانه أسمى أمنيات المسلم، يعمل له ويسعى إليه بلا كلل ولا ملل، لا يقبل بغير إقامة الإسلام في نفسه وفي الأرض، قدوته الجيل المتفرد، ولا يعني ذلك أن يكون نسخة مثالية لا يشوبها تقصير أو خطأ! إنما يكون أفضل نسخة صالحة من ذاته!

قال الحسن البصري رحمه الله: ما رأيت يقيناً لا شكَّ فيه أشبهَ بشكٍّ لا يقينَ فيه من الموت". [1]

فماذا بعد حديث الموت إلا العمل!

وختاماً، ما كان من خير وإصابة حق، فمن الله وحده سبحانه وتعالى، وما كان من تقصير أو خطأ فمن نفسي ومن الشيطان، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم ثبتنا على الإيمان، ووفقنا للتمسك بهدي النبي ﷺ وأمتنا على سنته وطريقته. اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينا ما علمت الحياة خيراً لنا، وتوفنا إذا كانت الوفاة خيراً لنا. اللهم ونسألك خشيتك في الغيب والاستعمال في سبيلك، ونسألك كلمة الحق في الرضى والغضب، ونسألك القصد في الفقر والغنى، ونسألك نعيماً لا ينفد، ونسألك قرة عين لا تنقطع، ونسألك الرضا بعد القضاء، ونسألك برد العيش بعد الموت ونسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مُضرة، ولا فتنة مُضلة، اللهم زَيِّنّا

[1] محمود شاكر/ الرسالة الشافية للجرجاني ص 604

بزينة الإيمان، واجعلنا هداةً مهتدين، اللهم نسألك مراتب الصديقين والشهداء. وصلى الله على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

**ولا تنسوا من الدعواتِ قوماً**
**مَضَوا عنكم إلى دارِ المنايا**